مؤتمر مواجهة الغزو الثقافي الامبريالي الصهيوني للوطن العربي

أقامت شعبة الثقافة بالأمانة الدائمة لمؤتمر الشعب العربي في تونس العاصمة مؤتمراً هاماً من ٢٩ آذار (مارس) حتى ٣ نيسان (ابريل) ١٩٨٢ شارك فيه عدد كبير من المفكرين والأدباء العرب وكان جدول أعمال المؤتمر كما يلي :

المحور الأول : ـ الخصائص القومية للشخصية العربية .

١ ـ المقومات الثقافية للشخصية العربية .

٢ ـ الأهداف الحضارية للأمة العربية .

٣ ـ الرؤية العربية للعصر .

المحور الثاني : ـ الغزو الثقافي الامبريالي الصهيوني والاستلاب الفكري في الوطن العربي .

١ ـ الغزو الثقافي الممهد والمتوافق مع الاستعمار الحديث في الوطن العربي .

٢ ـ الاستلاب الفكري والثقافي وازدواجية اللغة .

٣ ـ الاستشراق والاستلاب الفكري .

٤ ـ التعليم والاستلاب الحضاري .

٥ ـ وسائل الاعلام الغربية والاستلاب الثقافي .

المحور الثالث : ـ الجذور التاريخية للغزو الثقافي :

١ ـ الغزو الفكري الصهيوني في التراث :

أ/ الاسلامي .

ب/ المسيحي .

٢ ـ الغزو الثقافي الصهيوني للأمة العربية منذ القرن الماضي .

المحور الرابع : ـ الغزو الثقافي الصهيوني للأمة العربية في الوقت الحاضر .

١ ـ الثقافة الصهيونية ، ما هي ؟

٢ ـ الغزو الثقافي للعرب في الأرض المحتلة .

٣ ـ الغزو الثقافي الصهيوني بعد معاهدة معسكر داوود وسياسة تطبيع العلاقات في مصر .

المحور الخامس : ـ مواجهة الغزو الثقافي في الوطن العربي .

١ ـ خلق أدوات المقاومة .

٢ ـ اطلاق الحريات .

٣ ـ التواصل مع الثقافات الأخرى .

ويسرّ « الآداب » أن تنشر في هذا العدد الخاص مختارات من الأبحاث التي القيت ونوقشت في هذا المؤتمر .

وفيما يلي الوثائق التي صدرت عن المؤتمر :

اعلان تونس

إن الكتّاب والمفكرين والمثقفين العرب الذين اجتمعوا في تونس بين ٢٩ مارس ـ آذار و ٣ أبريل ـ نيسان ٨٢ في مؤتمر لمواجهة الغزو الثقافي الامبريالي الصهيوني للأمة العربية يؤكدون لأمتهم وللعالم أن الفكر العربي الذي استطاع في فترات عديدة أن يسهم وان يشارك وان يبدع في حل الكثير من المعضلات الحضارية التي صادفت شعبنا بل والانسانية في بعض مراحل مسيرتها ما زال قادراً على العطاء ، بأعرق تقاليده في شرايين أبناء وبنات هذه الأمة ، وان الفكر العربي لازال يواصل ـ رغم المحن والعوائق ـ رسالته كضمير لجماهير هذه الأمة ينتسب إلى وعيها العميق ويقف بمسؤولية كاملة على مصيرها الحضاري في قلب حركتها المناضلة من اجل المستقبل المنشود .

إن الكتاب والمفكرين والمثقفين العرب الذين تنادوا الى مؤتمر مواجهة الغزو الثقافي الامبريالي الصهيوني للأمة العربية ، في تونس العربية التي كانت وستظل رباطاً عربياً اسلامياً ، يؤكدون أن الظروف التي تمر بها الأمة العربية حاسمة وخطيرة يتوقف على مدى قدرتنا في التغلب عليها ، بقاء الأمة العربية . ومن هنا فان سلاح الكلمة والفكر ينبغي تجريده لتدشين ثورة ثقافية شاملة تستهدف تحرير وتثوير الارادة والانسان العربي ، انطلاقاً من الايمان العميق بأمتنا العربية ورسالتها الحضارية وقدراتها التي مكنتها من الاضطلاع بدور رائد في خدمة مسيرة الانسان وتقدم الحضارة البشرية ، وان هذه الأمة قادرة على استئناف هذا الدور ومواصلة العطاء الخلّاق متى استطاعت أن تتغلب على الظروف التي عطلت ذلك الدور الحضاري ، معتمدة على عناصر قوتها الذاتية ومقومات شخصيتها التاريخية .

وتتمثل خطورة الأوضاع التي تعيشها الأمة العربية في التناقض الصارخ الذي تشهده التطورات السياسية والاجتماعية والثقافية على الرغم من امتلاك امتنا لشروط التقدم وتحقيق النصر ولكنها في الوقت نفسه تعيش الهزيمة وتواجه أسوأ مصير .

إن الواقع العربي الذي يشهد مشكلات خطيرة ومعقدة لا بد أن يواجه بحلول جذرية شاملة ، لا يمكن أن تفصل فيه معارك الحرية والديمقراطية والاشتراكية والوحدة العربية بعضها عن بعض ، ولا يمكن فصل المعركةضد العدو الأجنبي عن المعركة من اجل الحرية والتقدم والعدالة الاجتماعية ، ان تثوير الواقع العربي منهجاً وأسلوباً هو الشرط الأساسي لبداية مسيرة النصر .

ولقد كان نجاح العدو الامبريالي الصهيوني في ابرام معاهدة الصلح الاستسلامية بين النظام الساداتي والكيان الصهيوني والنص في بنود المعاهدة على تطبيع العلاقات بينهما وفي المقدمة منها العلاقات الثقافية ، بداية مرحلة جديدة في الصراع العربي - الاسرائيلي الاستعماري عموماً ، والصراع الفكري على وجه الخصوص .

ذلك انه بالرغم من التوسع الصهيوني الاستيطاني في الأراضي العربية طيلة ثلاثة عقود سابقة على ابرام المعاهدة المذكورة ، فقد كان عدم الاعتراف العربي الشامل بالكيان الصهيوني حصاراً لفكرها المباشر والفكر الامبريالي المتضمن في اقامتها والمعلن قبل زرعها بزمن طويل . ولكن زيارة رئيس أكبر دولة عربية وما تلاها من خطوات عملية بتوقيع اتفاقيات معسكر داوود ومعاهدة واشنطن خلقت وضعاً جديداً بالغ الخطورة على مصير الأمة العربية ومستقبلها . وقد كان لعجز الأنظمة العربية في مواجهة العدوان أن تهيأ المناخ الذي أدى إلى سلسلة من الهزائم .

إن الكتاب والمفكرين والمثقفين العرب يرون أن تدمير الهوية القومية للانسان العربي هي الهدف الرئيسي للغزاة ، بكل ما تعنيه هذه الهوية من ابعاد حضارية وتاريخيةوكينونة ذاتية مستقلة ، وبكل ما تشتمل عليه من مستويات الأرض والاقتصاد والمجتمع ، وليس الغزو الثقافي للعقل والفكر والثقافة العربية الا مدخلاً لاحتلال الارادة العربية بهدف السيطرة على مقدرات هذه الأمة .

ويرون أيضاً أن الغزو الثقافي الصهيوني وان تمايز بخصائص نوعية في الفكر والممارسة إلا أنه كان دوماً وما زال جزءاً لا يتجزأ من الأصل الامبريالي الذي لم يتخل قط منذ الحروب الصليبية إلى الاستعمار الغربي الحديث الى قيام الدولة الصهيونية حتى الاستعمار الجديد عن مشروعه الثابت ، وهو التشكيك في الهوية القومية العربية الواحدة لكل العرب ، وما يستتبع ذلك من تفتيتهم الى كيانات إقليمية قطرية واحياناً قبلية عشائرية طائفية ، لتسهيل السيطرة على أراضيهم وانسانهم وعقولهم وكل ما يعنيه ذلك من نفوذ وهيمنة اقتصادية وسياسية وثقافية واستراتيجية .

إن الكتاب والمفكرين والمثقفين العرب ، وهم يدركون أن محاولات ضارية لغزو التراث العربي قد جرت في الأزمنة القديمة بقصد احتواء اصالتنا الفكرية ونجاح الأمة في الماضي في صد هذا الغزو ، فانهم يدركون أيضاً أن هذه المحاولات قد استمرت وتستمر في العصر الحديث بقصد محاصرتنا وعرقلة نهضتنا أي أن العدو الذي حرص في الماضي على تشويه جذورنا هو ذاته العدو الذي حرص ويحرص على تشويه اتصالنا بروح العصر الجديد . .

إننا نؤمن بأن للشخصية العربية ذات الهوية القومية الواحدة ، مقوماتها الثقافية الخاصة بها كأية شخصية حضارية في التاريخ الانساني ، وان هذه المقومات هي ثمرة التفاعل بين التاريخ والجغرافيا والانسان على هذه الرقعة التي وحّدها الاسلام في أمة واحدة من المحيط الى الخليج .

كما اننا نؤمن بأن لأمتنا العربية أهدافها الحضارية التي أعلنتها ثورة الاسلام ، والتي تتميز بعطائها الانساني الشامل في ما قدمته منجزات الحضارة العربية الاسلامية من شوامخ في العلوم الطبيعية والانسانية للعالم بأسره .

اننا نؤمن كذلك بأن الأمة العربية لم تنغلق يوماً على ذاتها ، فالحضارة العربية الاسلامية في ذروة مجدها كانت حواراً مفتوحاً ومتصلاً مع الحضارات والثقافات الأخرى ، حواراً حراً وعقلانياً . ولكن التواصل مع روح العصر لا يعني التبعية بل تفاعل الانداد واغناء زاوية الرؤية الذاتية التي تشارك بها .

ولقد استهدف الغزو الثقافي الامبريالي منذ مطلع العصر الحديث تدمير المقومات الثقافية للشخصية العربية بأساليب شتى ، منها تفتيتها الى عدة « شخصيات » يستلهم لها تاريخاً قطرياً أو عرقياً أو طائفياً وينسيها تماماً ان الحضارة العربية هي الوريثة الشرعية لأهم الحضارات والثقافات السابقة على الاسلام ، وان الاسلام هو الدين الذي يعترف بما سبقه من أديان . ولكن تفتيت الشخصية العربية إلى كيانات ظل هدفاً للغزو الثقافي الامبريالي ، جنباً إلى جنب مع تطويع الشخصيات التي يفتعلها للنمط الحضاري الغربي الامبريالي سواء عن طريق التبشير الديني أو اللغة الأجنبية أو عبر السيطرة المباشرة وغير المباشرة على التعليم والاعلام والثقافة .

وقد كان الهدف من هذين الاسلوبين في الغزو- تفتيت الشخصية العربية وتطويعها لهذا النمط الغربي - هو الوصول الى حالة من العدمية القومية بفقدان الهوية القومية والشخصية الحضارية الواحدة

إن الكتّاب والمفكرين والمثقفين العرب ، يدركون تماماً أن توحد الشخصية العربية لا يعني مطلقاً الغاء تراثها الحضاري المتنوع الأصول بل يزيدها غنى وثراء وان وحدة هذه الشخصية لا تعني مطلقاً انغلاقها على ذاتها . ولكنهم يدركون أيضاً أن هذه الثغرات التي تسلل منها الغزو الثقافي الأجنبي لم تكن من صنعه وحده بل كانت في الوقت نفسه ولا تزال من صنع الطبقات والقوى والشرائح والفئات الاجتماعية المحلية ذات المصلحة المشتركة مع قوى الغزو ، معتمدة على القوى الرجعية القديمة التي بررت شرعية وجود هذه الطبقات وأصدرت الفتاوى لحسابها والتي انهكت الدولة الاسلامية الأولى باغلاق باب الاجتهاد واحتكار الرأي وبتقنين الامتيازات وباحلال الدكتاتورية مكان الشورى وقهر الفقراء ، فكانت النتيجة هي العودة إلى شعوبية العصر الجاهلي رغم راية الاسلام ، وكانت النتيجة هي استباحة الأمة العربية أرضاً وهوية . . من قبل الغرب ، فكانت التجزئة والاقليمية والشتات العربي النتيجة المباشرة للغزو . وما زالت هذه القوى الاجتماعية إلى اليوم وقد ازدادت ارتباطاً عضوياً ومصيرياً بالغزاة ، تدعم غزوه الثقافي دعماً مباشراً سواء وهي ترفع راية الاسلام أو وهي ترفع راية الحداثة العصرية ، فالاقليمية هي الوجه الآخر للتبعية بمشتقاتها من سيطرة عسكرية واقتصادية واجتماعية وسياسية وغياب مطلق للحريات والتقدم الاجتماعي . .

إن الكتاب والمثقفين والمفكرين العرب يرون في خصوصية القومية العربية انها في نشأتها وتطورها في انتصاراتها وانكساراتها ، كانت دائماً قومية ذات محتوى اجتماعي متعدد المستويات ، فهي بحكم النشأة لا تتناقض مع الدين وبحكم التطور فان أغنى عناصرها هي الحرية والعدل والتقدم والمشاركة الانسانية الفاعلة ، لذلك كانت قواها الحية دائماً هي الطبقات المقهورة المضطهدة ، كما كان نبراسها المنير التآخي مع القوميات المجاورة والاقليات الدينية .

لذلك كانت رؤيتنا للصراع العربي الصهيوني من هذا المنطلق ، ففي الوقت الذي يشهد التاريخ القديم والحديث على أن اليهود العرب عاشوا كمواطنين متساوي الحقوق مع غيرهم في كافة الاقطار العربية ، فان اقتطاع جزء من الأرض العربية وزرع الكيان الصهيوني فوق أرض فلسطين بكاملها واجزاء أخرى من الأراضي العربية يشكل على صعيد الهوية القومية اغتصاباً وتمزيقاً للكينونة العربية المستقلة . ومن ثم فان العربي من أي قطر يرى أن وطنه لم يتحرر بعد ، طالما أن هناك شبراً واحداً ما زال تحت الاحتلال الصهيوني .

ومن هذا المنطلق نفسه يرى الكتاب والمفكرون والمثقفون العرب أن اعتراف النظام الساداتي بالكيان الصهيوني فوق كونه خيانة قومية وعدواناً على الوجود القومي العربي ترسيخ للهويات القطرية المفتعلة التي كرستها الأقليمية العربية ومضاعفاتها على حساب الحقيقة الموضوعية المستقلة عن رغبة أي حاكم وأية قوى اجتماعية ، وهي الهوية القومية للوطن العربي من المحيط إلى الخليج .

ولا يفوتنا أن غزو فلسطين ومصر بشكل مباشر سواء عن طريق القوة العسكرية أو المعاهدات السياسية ، لا ينفي لحظة واحدة انه تجسيد مباشر أيضاً لغزو بقية ارجاء الوطن العربي عن طريق الارتباط البنيوي بين أقطاره والاحتكارات الأجنبية ، ورسوخ التجزئة الاقليمية والتبعية الحضارية بين هذه الاقطار . وقد برهن الواقع الحي على أن التبعية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية للاستعمار والصهيونية ، هي الوجه الملازم للاقليمية . هكذا أصبح الكيان الصهيوني تعبيراً ميدانياً عن مصالح الاستراتيجية الامبريالية في المنطقة ، وهكذا أصبح هذا الكيان طرفاً علنياً في حرب لبنان . وهكذا أيضاً أصبحت معه في ظل نظامها المستسلم للعدو ، خطاً دفاعياً خطيراً عن

مصالح الامبريالية العالمية . .

إن العلاقة بين الايديولوجية الاقليمية من جهة ، والتفريط في الأرض وقهر الحريات والتخلف الاجتماعي أي التبعية من جهة أخرى ، هي علاقة حتمية .

لذلك كانت بطولة الشعب العربي في فلسطين ومصر ولبنان في مقاومة الغزو الامبريالي الصهيوني هي مقاومة للاقليمية والدفاع عن الحرية والنضال من اجل التقدم في وقت واحد . ولكن الردة الخطيرة التي احدثها النظام المصري بانقلاب السادات وزيارته للقدس المحتلة وتوقيعه على معاهدة الصلح الاستسلامية ، يستوجب نقلة نوعية في مواجهة الغزو الشامل للامبريالية والصهيونية وبالذات الغزو الثقافي المستمر والذي يزداد تعاظماً .

إن هذا المؤتمر للفكر العربي المعاصر الذي يحمل تراث مقاومة الغزو الثقافي على مر العصور والذي يستخلص من ملحمة الصراع ان أهم الأهداف للغرب والصهيونية هو محو الشخصية العربية والقضاء عليها ، يؤكد على :

١) اخفاق الاقليمية ايديولوجياً وممارسة في اعادة صياغة الحياة في الوطن العربي بعد اجلاء الاستعمار المباشر ، بل أضحت الاقليمية ركيزة اساسية للاستعمار الجديد على كافة الاصعدة الاقتصادية والاستراتيجية ، وما تزال نافذة رئيسية للغزو الثقافي . ولذلك فان الوحدة القومية للعرب تبقى - اضافة إلى أنها التعبير الطبيعي عن الأمة الواحدة - هي العنصر الرئيسي الحاسم في منهجنا لاستعادة الاستقلال الحقيقي والقدرة على صنع التقدم .

٢) إن الانسان العربي هو هدف واداة هذا المنهج ، فليست الاساليب التقنية المتطورة ولا الموازنات الدولية الا عوامل مساعدة ، ولا سبيل للاستحواذ عليها بغير الاعتماد أولاً وأخيراً على الانسان العربي هدف التقدم والقادر على صنعه .

٣) لقد تلازمت دائماً مع الاقليمية والتبعية ظاهرة القمع والاستبداد واهدار الحقوق الاساسية للانسان العربي ، فمورست ضده أبشع أساليب القهر والطغيان . لذلك كانت الديمقراطية وستظل عنصراً رئيسياً في بناء المنهج القومي المضاد للاقليمية والتبعية والتخلف ووسيلة لتحرر الانسان وانعتاقه .

٤) وفي غياب الرؤية القومية وسيادة التبعية والديكتاتورية ، كانت قوى الاستغلال الاجتماعية من عملاء الاحتكارات الأجنبية والطبقات التي تستنزف ثروات الوطن ودماء رجاله ونسائه من القوى المنتجة ، هي ركيزة الأنظمة الاقليمية التابعة غير الديمقراطية اداة الغزو الثقافي ولذلك كانت الاشتراكية وستظل هي العنصر الرئيسي الثاني في بناء المنهج المضاد للاقليمية والتبعية والتخلف .

٥) اذا كانت الوحدة القومية والديمقراطية والاشتراكية هي أداة الانسان العربي في تحرير الأرض والثقافة والمجتمع والاقتصاد ، فان تحقيق التقدم الحضاري الذي لا تتناقض فيه الوطنية مع القومية ولا القومية مع الدين ولا الاشتراكية مع الديمقراطية يتم وفق رؤية عربية للعصر لا تفقد ذاتيتها بالانغلاق أو الذوبان ، وانما تواكب العصر وتشارك في عطائه من موقعه القومي والحضاري المستقل والمتصل في آن بركب الحضارة الانسانية .

٦) إن للمفكرين والمثقفين والمبدعين دوراً طليعياً في تثوير الطريق النضالي للجماهير باعتبار الوعي أولى مراحل المقاومة لمنهج الاقليمية والتبعية والتخلف والقهر والاستغلال ولأنهم الورثة الشرعيون لأعظم تقاليد الفكر العربي في ذروة ازدهاره إبّان الحضارة العربية الاسلامية ، وهم الامتداد القادر على تسويد المنهج القومي التقدمي الديمقراطي لاستئناف مسيرة العطاء الحضاري لانساننا . . وللعالم . .

لذلك فان المثقفين والمفكرين والكتّاب العرب المجتمعين في مؤتمر مواجهة الغزو الثقافي الامبريالي الصهيوني للوطن العربي يؤكدون التزامهم الفكري النضالي من اجل ترسيخ القيم الاساسية للشخصية الحضارية للأمة العربية وأصالتها في اللغة والفكر والثقافة والعمل كل في موقعه على تسويد هذه القيم على برامج الاعلام والتعليم والتربية والثقافة.

وفي الوقت نفسه ، فانهم يؤكدون التزامهم بمواصلة البحث الخلّاق عن سبل التواصل بين ثقافة الأمة وتراثها من ناحية ، وتراث الانسانية وثقافة العصر من ناحية أخرى . .

وهم بهذا الالتزام النضالي انما يعبرون عن رسالتهم الثابتة نحو الانسان العربي والعالم .

كلمـة الختـام

وألقى الاستاذ عمر الحامدي الأمين العام للأمانة الدائمة لمؤتمر الشعب العربي في ختام مؤتمر مواجهة الغزو الثقافي الامبريالي الصهيوني للأمة العربية الكلمة التالية :

الاخوة أعضاء مؤتمر مواجهة الغزو الثقافي الامبريالي الصهيوني للأمة العربية .

في اختتام أعمال هذا المؤتمر ، يسرني أن أحييكم مهنئاً على نجاح الجهود التي بذلت والتي تضافرت في توفير ظرف هام وجاد للغاية مثل فرصة هذا اللقاء القومي الفكري الذي عبر بوضوح عن حيوية هذه الأمة ودلل بجلاء على أن الأمة العربية رغم كل المحن تزخر بالطاقات والامكانيات الهامة والفاعلة والقادرة على احداث التحول المنشود .

لقد كان مؤتمرنا ، رغم أي قصور أو سلبيات ، حدثاً تاريخياً ذا دلالة على أنه رغم الهزيمة المنكرة فان الشعب يزخر بطاقات داخل حدوده الاقليمية سرعان ما يكشف العمل القومي عن أهميتها وفاعليتها .

ولقد كان المفكرون والمثقفون العرب عند مسؤولياتهم بتصديهم لهذا المشكل الخطير بكل علمية وموضوعية حيث شخصت الظاهرة وتم تتبع أسبابها ومعرفة خلفياتها ، وبالتالي تم وبشكل اجماعي معرفة الحلول .

أيها الاخوة :

لقد أمكن توصيف الظروف وتحليل أبعادها والتي يمكن بايجاز أن نلخصها في هذه العبارات . .

عدوان مستمر قواه الامبريالية والصهيونية والرجعية ضد أمة مجزأة مقموعة جماهيرها ، منهوبة خيراتها ، وبالتالي مهدد مصيرها . وان الحل هو في اعتماد العمل القومي الشعبي لتعبئة الجماهير بالفكر القومي التقدمي وتسليحها بالوعي الثوري والقيام بالهجوم المضاد على أولئك الاعداء .

ولما كان الفكر والثقافة هما الطريق لتجذير وعي الجماهير وانارة درب المستقبل ، فانه لا مناص لكل الوطنيين والقوميين التقدميين وكل القوى الشريفة من توحيد صفوفها لأن الخطر يهددها جميعاً ولأن مستقبلها مرتبط بمدى تضافر جهودها ووحدة نضالها اذ لا نجاة لفريق دون فريق لأن اعداءنا يستهدفوننا جميعاً .

إن أولى مراحل الصمود القومي هي في بناء جبهة داخلية قوية تعي فيها كل القوى الوطنية والقومية التقدمية مسؤولياتها ولا يمكن بحال للعدوان أن ينفذ من خلال بعض التناقضات الثانوية بين التيارات الوطنية والقومية والدينية متى كانت جميعاً ترفض العمالة للأجنبي وترتبط بمصالح الجماهير :

وبطبيعة الحال فان العمل القومي سيتجذر ويتطور عندما تتلاحم القوى الوطنية على صعيد كل قطر عربي ويكون بناء الجبهة الشعبية القومية التقدمية شعار المرحلة وأداة الجماهير العربية المناضلة من اجل التحرير وصنع التقدم وتحقيق الوحدة العربية .

واسمحوا لي أن أقول إن مؤتمر الشعب العربي من خلال اتصال المنظمات الشعبية القومية من نقابية وثقافية وسياسية أخذ على عاتقه بكل الوعي والتصميم العمل على حشد الطاقات العربية على كل صعيد ثقافياً ونقابياً وسياسياً من اجل معركتنا الفاصلة ضد الامبريالية والصهيونية والرجعية ومن اجل التحولات الحضارية التي ينبغي أن تكرسها معركة التحرير القومية .

إن الأمانة الدائمة لمؤتمر الشعب العربي على الرغم من أنها تعمل في ظروف بالغة السوء ، أمكن التقدم بهذه المؤسسة الشعبية على طريق توحيد العمل الشعبي العربي .

ولأول مرة في تاريخ العرب الحديث تعيش مؤسسة قومية شعبية لها نسقها ونظمها ومسؤلياتها ، وهي في موقع المعارضة العلنية للأوضاع القائمة في الوطن العربي وبعد أن نظمت المؤتمرات السياسية حول معسكر داوود ودعم النضال الفلسطيني واللبناني حملت القضية العربية إلى الصعيد الدولي حيث عقد مؤتمر البرتغال عام ١٩٧٩ والذي بالاضافة إلى نجاح الارادة الشعبية العربية في الحصول على دعم أكثر من (٣٠٠) منظمة من جميع انحاء العالم في ادانة سياسة معسكر داوود ، فقد انشأت الامانة الدولية للتضامن مع الشعب العربي وقضيته المركزية فلسطين التي تضم قوى سياسية وشعبية من افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية وأوروبا لدعم النضال العربي وفق رؤية

الجماهير لا الحكام .

وعلى صعيد العلاقات العربية - الافريقية أمكن بعد عمل استمر لأكثر من سنتين عقد المؤتمر العربي - الافريقي في انجولا ديسمبر ١٩٨١ والذي سيكون له تأثير كبير على مستقبل العلاقات العربية - الافريقية في المدة القادمة وسيستدعي اللجنة المكلفة بتنفيذ مقرراته للانعقاد قريباً .

كما تعد الأمانة الدائمة لمؤتمر الشعب العربي الآن لمؤتمر العلاقات العربية مع شعوب أمريكا اللاتينية ، وكذلك هناك العديد من النشاطات التي ستنظمها مثل ندوة « نحو تصور عملي لتحقيق الوحدة العربية » و « رؤية عربية للنظام الاقتصادي العالمي الجديد » وندوة حول « الحريات وحقوق الانسان العربي في الوطن العربي » .

أيها الاخوة :

ما قصدته من هذه الاشارات هو أن عملاً قومياً شعبياً بدأ يشق طريقه رغم الالغام والهجومات المضادة على أرض تحكمها الرجعية وتسجن الجماهير في سجنها الكبير .

ولذلك فان الجماهير العربية مدعوة لأن تمد يدها لهذا العمل لانقاذه من الحصار المفروض عليه وذلك باحتضان أعماله والمساهمة في نشاطاته .

وأود أن ألفت نظركم اننا بدأنا في انشاء مؤسسة قومية شعبية لتمويل العمل القومي اسمها « صندوق النضال الشعبي » ، وذلك حتى تحرير العمل الشعبي من أي تحكم أو تسلط والأمل يحدونا أن تحتضن جماهير أمتنا العربية هذه المؤسسة حتى يمكن لنا أن ننطلق في تنفيذ مشاريعنا وبرامجنا .

وفي ضوء هذا السياق استطيع أن أؤكد لكم أن مؤتمر مواجهة الغزو الثقافي الامبريالي الصهيوني للأمة العربية جاء كثمرة لوحدة نضال الجماهير القومية واصرارها العنيد على مواجهة مخططات الامبريالية والصهيونية والرجعية . وأن مقرراته سوف تكون دليلاً جديداً يضاف إلى جدية نضالنا القومي لانتزاع زمام المبادرة على كل الاصعدة :

وفي اختتام أعمال هذا المؤتمر أريد أن أسجل هذه النقاط :

١) إن المعركة المحتدمة خطيرة ولا يمكن لنا أن نكسبها اذا لم نستنهض الجماهير ونوظف طاقاتها وذلك من خلال تفاعل المفكرين بجماهيرهم .

٢) اننا لا بد من العمل ليل نهار من اجل كشف القوى المعادية من امبريالية وصهيونية ورجعية لأنها في كثير من الأحيان تتغطى ببراقع ومساحيق قد تخفي خطورتها وبشاعتها .

٣) إن أمتنا تزخر بالطاقات والامكانات والارادة الحضارية المقاومة ولكن كل ذلك رهين بالقدرة على الاستخدام وأن الخصم ينازعنا ويتحدانا في قدرته على استخدام قدراتنا ضدنا من خلال الأنظمة العميلة .

٤) حتى لا نغرق في الوهم لا يمكن لأمتنا أن تنتصر في معاركها وخاصة في فلسطين بدون الوحدة العربية واطلاق حريات الجماهير .

٥) لا يمكن التعويل على الطبقة الحاكمة في الوطن العربي التي تختلف مصالحها وتتناقض جذرياً مع مصالح الجماهير ويجب أن يفرض عليها العمل الشعبي القومي أو أن تقبل البديل وهو الثورة العارمة التي لا تبقى ولا تذر .

٦) ليس أمام العرب في معركتهم من خيار سوى القتال والنصر فلتحزموا أمركم وأمر الجماهير على القتال من اجل التحرر السياسي والاجتماعي وتحقيق الوحدة العربية .

أشكر الجمعي وأحييكم على درب الكلمة المسؤولة والنضال القومي التقدمي من اجل مستقبل عربي جديد نثق في قدرتنا على ولادته وعصر عربي جماهيري جديد تكون فيه الحرية والكرامة للانسان ليست موضع مطالبة أو مصادرة .

مواجهة الغزو الثقافي في الوطن العربي

مساهمة في التمهيد لوضع مشروع استراتيجية ثقافية

محمود امين العالم

منذ ما يقرب من عامين ، انعقد في دمشق في الفترة من ٢٨ إلى ٣٠ حزيران (يونية) ١٩٨٠ ، مؤتمر للوزراء العرب المسؤولين عن الشؤون الثقافية ، وذلك لمواجهة الغزو الصهيوني بعد توقيع اتفاقيتي كامب دافيد بين مصر واسرائيل والأخذ في تطبيع العلاقات بينهما ، بما في ذلك العلاقات الثقافية .

على أن مناقشات المؤتمر التي انعكست ـ الى حد ما ـ في بيانه الأخير ومقرراته ، لم تقصر مفهوم هذا الغزو الثقافي على الغزو من الخارج فحسب ، ولم تنسبه إلى الصهيونية وحدها ، ولم تحصر خطره على مصر ، وانما أبرزت ـ إلى حد ما ـ أن هذا الغزو هو جزء من مخطط صهيوني امبريالي عام .

ولقد غلب على قرارات ذلك المؤتمر الطابع الاجرائي العملي ، الذي يحدد أهدافاً معينة ، ويعدد خطوات لتنفيذها ويشكل لجنة لمتابعة هذا التنفيذ ، فضلاً عن اقرار ميزانية خاصة لتمويل خطوات التنفيذ .

على أنه برغم الجهود الكبيرة الرصينة التي بذلتها الدكتورة نجاح العطار وزير الثقافة في سوريا ، والتي عينت رئيساً للجنة المتابعة ، فلم يتحقق شيء من أهداف المؤتمر ، فما اجتمعت لجنة المتابعة ، وما توفرت الميزانية ـ وما اتخذت خطوة من خطوات التنفيذ . وأصبح البيان الختامي للمؤتمر لا ختاماً للمؤتمر بل ختاماً للقضية التي انعقد من اجلها المؤتمر .

وأتساءل اليوم بعد مرور عامين : لماذا ؟ لقد انعقد المؤتمر بمشاركة أهل الحل والعقد في الشؤون الثقافية العربية ، فلماذا لم يتم لا حل ولا عقد لهذه القضية الثقافية ؟ ولقد انتهى المؤتمر إلى قرارات اجرائية محددة ، ممكنة التنفيذ عملياً ، لا إلى مجرد شعارات عامة مجردة ، فلماذا لم تتخذ خطوات لتنفيذها ؟ هل الطابع الرسمي للمؤتمر هو الذي عاقه عن تنفيذ قراراته ؟ وعندما أذكر الطابع الرسمي ، فلست أقصد البيروقراطية ـ هذا المفهوم الذي يستخدم كثيراً لطمس وتغييب ما وراءه من دلالة اجتماعية ـ . وانما أقصد بالرسمية ، الحكومة ، وأقصد بالحكومة تعدد الحكومات وأقصد بتعدد الحكومات تعدد السياسات وأقصد بتعدد السياسات تعدد المواقف الفكرية والايديولوجية من الامبريالية والصهيونية . وعندما استخدم كلمة تعدد فانما أقصد التنوع بل الاختلاف بل التعارض والتناقض في السياسات والمواقف . فكيف كان من الممكن أن تتم وحدة عمل اجرائي مع تنوع واختلاف وتعارض السياسات والمواقف ازاء الامبريالية والصهيونية ، وخاصة اذا كان هذا العمل الاجرائي يتعلق بالثقافة ، أي بالموقف الفكري والايديولوجي ؟ واليوم أدرك تماماً أن رذيلة ذلك المؤتمر كانت في فضيلته . فالطابع الاجرائي العملي لقرارات المؤتمر هو تلك الفضيلة التي عرقلت تحقيق هذه القرارات . فلو أن المؤتمر انتهى إلى قرارات عامة مجردة ، طنانة رنانة ، تسبّ الثقافة الصهيونية ، وتلعن متعاطيها ، وتتغنى بالمتصدّين لها ، وتدعو إلى الجهاد المقدس ضدها ، حماية ودعماً للشخصية العربية الأصيلة ، لاستطاع المؤتمر أن يصل إلى تحقيق أهدافه تحقيقاً « رسمياً » كاملاً ، ولاختفت الاختلافات والخلافات ، ولتحققت وحدة الكلمة العربية على مستوى رفيع يؤكد ـ كما تأكد دائماً ـ عمق وأصالة الوحدة القومية . أما ان تؤكد قرارات ذلك المؤتمر على الدعوة إلى « التعاون مع الثقافات والجمعيات والهيئات والشخصيات الثقافية المصرية التي تنهج خطاً وطنياً معادياً للصهيونية ونظام السادات وتقديم كل دعم ممكن لها » وان تؤكد هذه القرارات على ضرورة « دعم مؤسسات النشرة الوطنية في فلسطين المحتلة والى اعادة نشر وتوزيع ما يصدر عنها من كتب ثقافية وأدبية وتنظيم أسابيع للثقافة الفلسطينية في البلدان العربية » وأن تؤكد هذه القرارات على مطالبة « وزارات التربية العربية على أن تدخل في برامج التربية تدريس أخطار كامب دافيد في مختلف مجالات الحياة العربية الثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية » وأن تؤكد هذه القرارات على « مسألة الديمقراطية في

الثقافة العربية وحرية الأديب والمفكر العربي واعتبار ذلك هو القاعدة الاساسية التي تقف عليها الثقافة العربية في مواجهة الغزو الثقافي الامبريالي والصهيوني » أما أن تؤكـد قرارات المؤتمر تلكم الأمور وأموراً أخرى ليست أقل أهمية ، فكيف نتوقع من مؤتمر وزارات الثقافة « الرسمية » رغم تصديق ممثلي هذه الوزارات على تلك القرارات ، أن تتوفر له النية والحماس لتنفيذها ؟ والحق أننا في السياسة قد نستطيع أن نصل إلى وحدة عمل عربي حول ما يسمى ببرنامج الحد الأدنى ، وقد نستطيع في الاقتصاد أن نجد نقاط عمل مشترك بين الأنظمة العربية المختلفة والمتعارضة ،وقد نستطيع في الأمور العسكرية أن نقدم معونات مالية أو نبعث بفرق صغيرة رمزية تعبيراً عن التضامن العربي ، أما في الشؤون الثقافية في الفكر ، فان الأمر يمس جوهر وجذر الموقف السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، جوهر وجذر الخلافات والاختلافات بين الأنظمة العربية فيما بينها ، ومن هذه الاختلافات الحركات والتنظيمات الوطنية والتقدمية في عالمنا العربي . ولهذا قد يكون من العسير للغاية الاتفاق حول مستوى الحد الأدنى الثقافي أو الفكري . واذا كان من الجائز أن يتم هذا الاتفاق اعلاناً وبياناً ، تأكيداً لوعي زائف بتضامن عربي غير موجود ، فلا سبيل إلى أن تصبح عناصر هذا الاعلام والبيان ، وقائع حية عينية ملموسة .

وهكذا كان بالدقة مصير قرارات مؤتمر دمشق لمواجهة الغزو الثقافي الصهيوني : مجرد سان بغير تبيين .

على أنه من الواجب أن أشير ـ من ناحية أخرى ـ الى أنه برغم ما اشتملت عليه قرارات ذلك المؤتمر من بنود عملية جيدة ، إلا أنها في الحقيقة ، نتيجة لطابعها العملي الخالص قد تورطت في موقف اجرائي عام يكاد يصدر عن رؤية تجزيئية للمعركة ضد الامبريالية والصهيونية . فنلاحظ مثلاً في تلك القرارات أن أغلب بنودها تكاد تقتصر على الحركة الثقافية في مصر وفي فلسطين المحتلة كأنما خطر الثقافة الامبريالية والصهيونية كامن في مصر وفي فلسطين المحتلة وحدهما دون سائر البلاد العربية ، رغم الاشارة إلى ذلك في ديباجة البيان الختامي للمؤتمر . ونلاحظ كذلك أنه لا اشارة واضحة إلى الفكر الرجعي العربي أو إلى طبيعة العلاقة بينه وبين الفكر الامبريالي الصهيوني ، فضلاً عن أن الاشارة إلى الامبريالية جاءت في البيان الختامي وفي القرارات على نحو عرضي وهامشي ، ولهذا لم تتضح الرؤية الكافية في النسيج العام للبيان وللقرارات ، بان النضال ضد الامبريالية حتى في الحدود الثقافية ، انما يتمثل أساساً في النضال من اجل تحرير البلاد العربية من التبعية السياسية والاقتصادية للامبريالية عامة وللامبريالية الأمريكية بوجه خاص .

على أنه برغم هذه النواقص المهمة التي جاءت نتيجة لما تميزت به قرارات مؤتمر دمشق من فضيلة هي غلبة الطابع الاجرائي العملي على قراراته فلا شيء تحقق من هذه القرارات

واذا كان هذا هو مستوى ومصير قرارات المؤتمر الرسمي ، فاننا نأمل أن يكون مستوى ومصير قرارات مؤتمرنا الشعبي أفضل ، سواء من حيث الوضوح والحسم والشمول الفكري ، أو من حيث التحقق العملي ، وخاصة ان التصدي للثقافة الصهيونية والامبريالية فضلاً عن الرجعية ، لا تقوم به وزارات الثقافة ، وان أمكن أن توفر له الاحتياجات العملية ان كان من مصلحتها وفي توجهها الفكري ذلك ، وانما الذي يقوم به وسيقوم به المثقفون أنفسهم . على أن القضية ليست تمييزاً شكلياً بين مؤتمر رسمي ومؤتمر شعبي ، فالمعيار الحقيقي هو الموقف الفكري والمنهج الموضوعي العملي لكليهما . فلسنا ننكر أنه في المستوى الرسمي لبعض البلاد العربية هناك توجهات ايجابية واعية ضد الثقافة الامبريالية والصهيونية والرجعية ، كما أننا نجد بين المثقفين العرب من جعلوا أنفسهم أبواقاً للفكر الرجعي ، بل الصهيوني الامبريالي ، بعضهم يعبر عن هذا بوعي جهير ، وبعضهم ـ بوعي أو بغير وعي ـ يحقق الأمر نفسه .

إن هذا الفكر وتلك الثقافة هي جزء من اجهزة القمع والتسلط والاستغلال والعدوان والجمود والعنصرية والتضليل والتزييف التي يحققون بها أهدافهم المعادية لانسانية الانسان .

على أن هذا الفكر وتلك الثقافة ، تتخذ أشكالاً وأساليب ومناهج واضحة متنوعة متلونة ، تخفي بها حقيقة أهدافها وحقيقة انتسابها الامبريالي الصهيوني .

ولهذا فالمعركة ضد الثقافة الامبريالية والصهيونية والرجعية ، ليست بالمعركة السهلة أو المباشرة . انها ليست مجرد مواجهة صدامية مع رأي أو فكرة أو كتاب أو فيلم أو مسرحية ، انما هي معركة شاملة مع رؤية شاملة تتجسد ، نعم تتجسد في مختلف المفاهيم والعلاقات والممارسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية فضلاً عن الثقافية . وبدون هذا الفهم الشامل لن نستطيع أن نواجه تلك الثقافة مواجهة موضوعية حقيقية ، ولن نستطيع هزيمتها .

إن البدء بتحديد الاسس المبدئية العامة لطبيعة وحدود معركتنا ضد تلك الثقافة هي ضرورة منهجية وفكرية ينبغي الاتفاق عليها منذ البداية حتى لا تستنفدنا وتشتتنا في النهاية قرارات اجرائية خالصة ، تفتقر الى الرؤية المبدئية الشاملة .

واسمحوا لي أن أكرر نفسي ، فأضمن كلمتي هذه بعض فقرات من الكلمة التي ألقيتها في افتتاح المؤتمر الرسمي لوزراء الثقافة في دمشق منذ عامين ، الذي تشرفت بالمشاركة فيه باسم الجبهة الوطنية المصرية في الخارج ، فما تزال تلك الفقرات القديمة صالحة كمدخل ابتدائي ومبدئي لما أريد أن استخلصه من مقترحات عملية لمواجهة الثقافة الامبرياليه الصهيونية الرجعية .

إن الانتكاس السياسي والاقتصادي في مصر قد بدأ التمهيد له ثقافياً وايديولوجياً قبل أن تبرز بشكل واضح مظاهره السياسية والاقتصادية ، لقد بدأ بتلك الحملة الخسيسة الشرسة ضد المفاهيم والقيم التي أضاءت وجه « مصر جمال عبد الناصر » مصر العداء

للامبريالية وانصهيونية ، مصر الثقافة الوطنية والتقدم الاجتماعي ، مصر الوحدة القومية العربية . وبدأ الانتكاس بالاجهاز على عشرات المنابر الثقافية والاعلامية المستنيرة ، كالكاتب والطليعة والفكر المعاصر ، وتراث الانسانية ومجلات الشعر والقصة والمسرح والسينما إلى غير ذلك . وبدأ بطرد المثقفين المصريين المستنيرين من مختلف مراكز الثقافة ووسائل الاتصال الجماهيري وبتشريدهم أو سجنهم وبدأ بمحاولة تشويه الوجه المشرق لنضالات الثورة الفلسطينية وقيادتها المتمثلة في منظمة التحرير الفلسطينية . بدأ باهدار قيم الصداقة والتحالف النضالي مع القوى الوطنية والتقدمية في العالم وفي مقدمتها الاتحاد السوفياتي ، بدأ بتبييض صفحة أعدى أعداء أمتنا العربية : الولايات المتحدة الأمريكية ووضع أوراق الثقة السياسية الكاملة في يدها ، وبدأ بتزييف مفاهيم السلام والرخاء والاستعمار والصهيونية والتقدم والحضارة وافراغها من دلالاتها الحقيقية ، بدأ باشاعة روح التسطح والابتذال والتضليل والتعصب والطائفية في مختلف اجهزة الثقافة والاعلام ، بدأ بالقهر والقمع للحوار الفكري الديمقراطي ، والابداع الثقافي الجاد ، مستغلاً بغير شك الأمية التي ما تزال مستشرية في مجتمعاتنا ، سواء كانت أمية أبجدية أو فكرية . . .

نعم كانت الثقافة والايديولوجية هي المدخل للانتكاس ، المدخل الذي وظفته الأجهزة الساداتية منذ البداية تمهيداً لتمرير الأهداف السياسية والاقتصادية للمخطط الامبريالي الصهيوني بعد ذلك . على أن هذا المدخل ، ما لبث أن أخذ يسعى كي يصبح ركيزة للمخطط نفسه في مرحلة تنفيذه ، تبريراً له وترسيخاً .

إن الأنظمة الرجعية تحكم وتقمع بالايديولوجية التضليلية ، بقدر ما تحكم بأشكال القمع المباشرة .

والحق ، أنني أردت أن أقول ببساطة وصراحة ، أن المحنة الثقافية التي نشهدها اليوم في مصر ، ليست مجرد غزوة صهيونية ثقافية وافدة من الخارج فحسب بل هي بنية ثقافية ، ايديولوجية داخلية ، أفرزتها وتفرزها الهياكل السياسية والاقتصادية الرجعية التابعة السائدة في مصر اليوم ، تكريساً واعادة انتاج لهذه الهياكل نفسها . وهذه البنية الثقافية والايديولوجية المهيمنة هي التي تمهد السبيل لاستقبال الثقافة الامبريالية والصهيونية بل واستنباتها . والحق ، مرة ثانية أنني أردت بهذا أن أقول ببساطة وصراحة كذلك ، إن الخطر الذي يهدد قيم الثقافة العربية ، التي هي تعبير عن قيم الثورة العربية ، لا يكمن فحسب في هذه الغزوة الامبريالية الصهيونية لمصر ، وانما يكمن هذا الخطر كذلك في كثير من الأوضاع العربية عامة بما تشكله من هياكل وأبنية سياسية واقتصادية وثقافية وايديولوجية تعد صالحة لافراز واستقبال واستنبات قيم ومفاهيم هذه الغزوة الثقافية الامبريالية الصهيونية الخارجية ـ الداخلية ، ان الثقافة ـ كما تعرفون ـ ليست قيماً ومفاهيم وأذواقاً وأساليب حياة معلقة في فراغ ، بل هي تعبير حي عن أوضاع وهياكل سياسية واقتصادية واجتماعية ، فضلاً عن أنها قوة فاعلة دافعة ومؤكدة ومجددة لهذه الأوضاع والهياكل نفسها .

وليست هناك ثقافة تُفرض فرضاً من الخارج ، ان لم تجد الأرضية المواتية لها بل المستنبتة لها كذلك . والثقافة هي أداة الوعي بالواقع وأداة السيطرة عليه وتوجيهه . ولكن أي وعي ؟ وأي واقع ؟ ولمصلحة من تتم السيطرة ويتم التوجيه ؟ هذه هي القضية .

والقضية هي أننا لن نواجه الثقافة الامبريالية والصهيونية ، بثقافة تنطق باللغة العربية وتخولنا في الوقت نفسه تراث هذه اللغة مضموناً ، وفكراً ، بثقافة تتشدق بشعارات قومية وتقدمية طنانة رنانة تتناقض مع ممارسات الواقعية ، وانما نواجه الثقافة الامبريالية والصهيونية بثقافة تنطق بلغة الممارسة الوطنية الديمقراطية الصادقة الحية ، بثقافة تنطق بلغة التراث العربي الاسلامي الأصيل العظيم . وبكل ما يحتشد به من قيم العقلانية والاستنارة والابداع والخلق وروح النقد والاجتهاد والتجدد ، بثقافة تنطق بلغة التحرر والعدالة والتقدم الاجتماعي والتفتح الانساني والديمقراطية في العلاقات والأنظمة والمؤسسات العربية ، بثقافة عربية هي وعي بضرورة الوحدة القومية العربية على أساس من الديمقراطية والتقدم الاجتماعي والعداء الحاسم للامبريالية والصهيونية فكراً وقيماً وأساليب حياة ونظم حكم .

هكذا ينبغي أن نواجه الثقافة الامبريالية والصهيونية ، ثقافة التعصب واللاعقلانية ، والفاشية والاستغلال والقهر والعنصرية والطائفية وروح الانانية الفردية والاستهلاكية والاستعلاء والعدوانية . .

نواجه الثقافة الامبريالية والصهيونية لا بمفاهيمها وقيمها كما تُمارس أحياناً وانما بنقيض هذه المفاهيم والقيم . فثقافتنا العربية المعبرة بحق عن أصالتنا القومية وعن ضرورات تحررنا وتجددنا وتقدمنا هي بالضرورة النقيض المباشر لهذه الثقافة الامبريالية والصهيونية . ولهذا فثقافتنا العربية لا يمكن ولا ينبغي أن تكون ثقافة التعصب والجمود واللاعقلانية والطائفية والقمع والاستبداد والاقليمية والعنصرية والاستغلال وخلق روح الابداع والتجدد والديمقراطية . ولا يمكن ولا ينبغي أن تكون ثقافة التسطح والتعتيم والتنميط والتبسيط والابتذال واشاعة روح الاستهلاك والمتع الرخيصة فضلاً عن روح الاستهتار والتخلي واليأس والاستلاب .

إن ثقافتنا العربية التي ينبغي أن نناضل من أجل اشاعتها وتنميتها وتعميقها : هي النقيض المباشر لهذه المفاهيم والقيم التي نراها للأسف تبرز وتمارس هنا وهناك في أوضاع وجوانب مختلفة من أمتنا العربية ، وتكاد أن تصبح الممر والمعبر فالمبرر بعد ذلك للثقافة الامبريالية والصهيونية بشكل سافر أو مستتر . إن الظاهرة الساداتية مستويات وأشكال متنوعة ومتلونة ، فاليقظة اليقظة لها ، والحذر منها . . والمواجهة الصارمة الواعية لهزيمتها . . لا في مصر وحدها بل

في كل وضع عزل يمهد لافرازها ، كيف نواجه هذه الظاهرة الثقافية الساداتية في الوطن العربي . . وكيف نستأصلها وكيف نسعى لحماية وتأصيل وتنمية عروبتنا الثقافية الحقيقية ؟ الحق أنه لا حماية لعروبتنا الثقافية ، بل لعروبة الانسان العربي عامة إلا بحماية انسانية الانسان العربي أولاً وأساساً . . وذلك بوقف مختلف أساليب الامتهان الجسدي والمعنوي ، فضلاً عن مختلف أشكال القمع والقهر الفكري واحترام روح الاجتهاد والنقد والابداع والعقلانية ، وتوفير وحماية الحوار الديمقراطي البناء بين مختلف القوى والتيارات والاجتهادات السياسية والاجتماعية والثقافية ، الوطنية والتقدمية .

فالقضية المطروحة أمام مؤتمرنا هذا ، أن تكن قضية ثقافية ، فانها كذلك كما ذكرت في البداية ، غير منفصلة عن الأوضاع السياسية والاقتصادية والعسكرية عامة أي عن المخطط الامبريالي الصهيوني الشامل ضد الثورة العربية عامة والفلسطينية بوجه خاص . ولهذا ، فليس يكفي أن نقول لا . . للسادات فالذي يقول لا . . للسادات ويقول نعم لأمريكا ، انما يقول ألف نعم للسادات وألف نعم للصهيونية . والأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية هي حقل استنبات للقيم والمفاهيم الثقافية . نعم . . . ما أحوج الأمة العربية ، الى استراتيجية سياسية شاملة ، توحد موقفها الاستقلالي الوطني فكرياً وعملياً في مواجهة الامبريالية والصهيونية ، وما أحوج الأمة العربية إلى استراتيجية اقتصادية تحقق تكاملاً اقتصادياً بين ثروة أراضيها وانتاجية ابنائها ، ودفعاً لتطورها المستقل التوحيدي ، وقهراً للتخلف وتصدياً للاستغلال والنهب الامبريالي وشركائه المتعددي الجنسية ، وما أحوج الأمة العربية أخيراً إلى استراتيجية ثقافية دعماً لهذه الجوانب الاستراتيجية السياسية والاقتصادية والعسكرية وتصدياً فعّالاً ايجابياً للثقافة والايديولوجية الامبريالية الصهيونية الرجعية . وما أحوجنا إلى التصدي بحسم للأمية ، هذا العار على جبين الثقافة العربية والمثقفين العرب ، وما أحوجنا إلى تعميق وعينا النقدي . بالتراث العربي الاسلامي العظيم وما أحوجنا إلى تنسيق الجهود الثقافية العربية على المستوى القومي العام تنمية وتعميقاً للابداع الثقافي عامة على أساس من احترام الاجتهادات المختلفة ، وتوفيراً لروح الموضوعية والعقلانية والديمقراطية .

في ضوء هذه الكلمات القديمة وفي ضوء خبرة مؤتمر دمشق اسمحوا لي أن أستخلص وأن أوضح بعض المبادىء التي يمكن أن تكون قاعدة لما نقترحه من سياسات ومواقف واجراءات أو استراتيجية ثقافية عربية في مواجهة الثقافة الامبريالية الصهيونية الرجعية .

أولاً : ليست هناك ثقافة يمكن فرضها من الخارج فرضاً ، اذا لم تجد في البنية السياسية والاقتصادية والايديولوجية الداخلية ما يتيح استقبالها وتقبلها بل واستنباتها وتوظيفها اجتماعياً . فأثر الثقافة الخارجية لا يثمر الا عبر الحقل الايديولوجي السائد المعبر عن البنية السياسية الاقتصادية السائدة . فما كان للفكر الامبريالي الصهيوني أن يكون له صدى مؤثر في مصر خلال المرحلة الناصرية لا للمواقف السياسية المعادية للامبريالية والصهيونية خلال هذه المرحلة ، وانما ـ أساساً ـ لطبيعة البنية السياسية ـ الاقتصادية ـ الاجتماعية التي كانت تنمو وتتجذّر شيئاً فشيئاً ، وكانت تنمو معها وتتجذر كذلك ثقافة وطنية ديمقراطية معادية للامبريالية والصهيونية والرجعية عامة . ومع الانقلاب والانتكاس على هذه البنية خلال المرحلة الساداتية أخذت تنمو بنية سياسية واقتصادية تابعة للامبريالية ، وتنتعش معها أيديولوجية رجعية دعماً للبنية السياسية ـ الاقتصادية الجديدة ، وحقلاً لاستقبال واستنبات مفاهيم وقيم الثقافة الصهيونية والامبريالية . وعلى طول البلاد العربية وعرضها سنجد تلك القيم والمفاهيم منتعشة رائجة حيث يسود الفكر الرجعي الجامد المتخلف .

وما أسهل أن تتقلص القضية أو تتضخم حول « القدس » رمز الطابع الديني الذي يتخذه الصراع كما تتخذه المسألة كذلك ، أما العدوان فما أسهل ما تتكشف له تسويات سلمية تفضي بالضرورة الى تنازلات ، ثم إلى تبادل الاعتراف . والحق أننا لو تأملنا الخطوات التي خطاها السادات منذ زيارة القدس حتى اتفاقيات كامب دافيد ، لوجدنا وراءها هذه الخطوات الفكرية الايديولوجية التي تتضمن في جوهرها تغييب الايديولوجية الصهيونية ، هذا التغييب الذي نتبيّنه في خطاب السادات في الكنيست وفي دعوته إلى لقاء الاديان الثلاثة في بقعة مقدسة من سيناء ، ويكون الرموز الثلاثة لها هم السادات وكارتر وبيغين ، كما نتبينه في كلمات السادات وتوفيق الحكيم حول « المتحضرين » ويقصد بهم الاسرائيليين ، كما نتبينه في اقتراح الملك الحسن حول اللقاء المثمر بين العبقرية اليهودية والأموال العربية ، إلى غير ذلك . إن الخطر الأساسي على ثقافتنا وايديولوجيتنا هو في تغييب حقيقة الايديولوجية الصهيونية لا في تبنيها ، والحق أن الذي يقوم بهذا التغييب ليس الصهاينة ، فما أكثر ما يتباهون ويتغنون في صهيونتهم ، انما الذي يفعل ذلك هي الأنظمة العربية الرجعية عبر صحافتها وايديولوجييها ومثقفيها وممارساتها السياسية العملية ، على أني اذا كنت أحدد أن الخطر الأساسي على ثقافتنا هو تغييب الحقيقة الصهيونية ، فليس معنى هذا أنه ليست هناك أخطار أخرى على ثقافتنا من الثقافة الصهيونية . على أنها في معظمها تصدر عن هذا الخطر الاساسي ، سلباً أو ايجاباً ، كانبهار ، أو كتيئيس أو

كرد فعل معاكس في شكل تعصب ديني أو تعصب قومي ، أو عنصرية أو طائفية أي صهيونية معكوسية ، الى غير ذلك ، فضلاً عن محاولات طمس الوعي التاريخي العربي وتشويهه .

ولهذا فان فضح الحقيقة الصهيونية في غير هوادة ، وفضح محاولات تغييبها من جانب القوى الرجعية العربية ، قضية بالغة الأهمية في التصدي للثقافة والايديولوجية الصهيونية ، وما يصدر عنها من آثار وأخطار أخرى نتيجة لتغييب حقيقتها .

ثانياً : ونتساءل كذلك حول الثقافة الامبريالية ، ما حقيقة الخطورة التي تمثلها والتي ينبغي أن نتصدى لها ؟ طبعاً ان الثقافة الامبريالية لا تريد أن تجعل منا امبرياليين كما أن الثقافة الصهيونية لا تريد أن تجعل منا صهيونيين . كلاهما يريد أن يجعل من الثقافة العربية ، ومن الفكر العربي ، ومن الإيديولوجية العربية ، فكراً وثقافة وايديولوجية تابعة للفكر الامبريالي الصهيوني ، وذلك باشاعة مفاهيم وقيم وأذواق وتصورات تحرمه العقلانية ، والاستقلالية والابداعية والذاتية والحس التاريخي والقدرة على السيطرة على واقعه الوطني ، وتحقيق ثورته الديمقراطية ووحدته القومية . والامبريالية ، وخاصة الامبريالية الامريكية ـ تحقق هذا عبر الحقل الايديولوجي للفئات والطبقات العشائرية والاقطاعية والبورجوازية المسيطرة في العالم العربي . إن اشاعة وتعميم الرؤية الامريكية للحياة هي جزء أساسي من برنامج المعونات السياسية والاقتصادية للبلدان النامية ، فيها تتحقق التبعية الفكرية والثقافية ، دعماً وتكريساً للتبعية السياسية والاقتصادية . إن سيادة روح الفردية والمغامرة والعصامية ، والنخبوية ، والبرهانية ، والنظرة التجزيئية ، واللاعقلانية والوضعية واللاتاريخية ، فضلاً عن النزعة الاستهلاكية والانبهار بالمظاهر ، والسطحية والعدوانية هي بعض القيم والمفاهيم التي تقدمها ترسانة الرؤية الأمريكية للحياة عبر افلامها واعلامها وكتبها بل عبر نظرياتها السيكلوجية والاجتماعية . على أنها ـ كما ذكرت في البند الأول ـ لا تُفرض فرضاً من الخارج ، وانما تستجيب للاحتياجات الايديولوجية للابنية السياسية والاقتصادية السائدة في البلاد العربية ، بل هي في كثير من الاحيان تستنبت استنباتاً محلياً ، أو تدعم الاستنبات المحلي عن طريق اعداد اطارات عربية ثقافية مشحونة بالمنهجية الأمريكية ، وذلك عن طريق البعثات والمعاهد الأمريكية المحلية . وبرغم خطورة هذه القيم والمفاهيم والمناهج المعبرة عن الرؤية الأمريكية للحياة وعن الأبنية العربية الرجعية ، فان الخطر الاساسي على ثقافتنا وايديولوجيتنا العربية لا ينبع منها في المحل الأول ، وانما من تغييب حقيقة الامبريالية عامة ، والامبريالية الامريكية خاصة عن الوجدان العربي ، عن الفكر العربي ، عن السياسات والممارسات العربية .

فالولايات المتحدة الأمريكية لم تعد ، في الكتابات والممارسات السياسية لأغلب البلاد العربية ، هي رأس الامبريالية العالمية ، رأس الاحتكارات وشركات السلاح والاستغلال والعدوان ودفع العالم إلى حافة هاوية الحرب ، بل هي مجرد الدولة العظمى ، الولايات المتحدة الأمريكية ، التي في يدها ٩٩ ٪ من أوراق مشكلة العدوان والتوسع الاسرائيلي . فلماذا اذن لا نتحالف معها تحالفاً استراتيجياً يحقق لنا أهدافنا الوطنية ، ولماذا ـ كدولة عظمى حليفة ـ لا تقدم لها مصر والسعودية وعمان والصومال والسودان وغيرها قواعد عسكرية أو تسهيلات عسكرية ، ولماذا لا تُسلِّح جيوشنا بأسلحتها ، ولماذا لا نستفيد بخبراتها السياسية والاقتصادية والتعليمية والثقافية فضلاً عن النفطية والعسكرية . انها ليست أسلحة أو خبرات أو قواعد للامبريالية الأمريكية ، لا ، وانما لدولة الولايات المتحدة الأمريكية ، الدولة العظمى . . ثم لماذا لا نسعى لتحييد هذه الدولة العظمى في صراعنا ضد اسرائيل ولماذا لا نتنافس على صداقتها ونكسب ودها أكثر مما تفعل اسرائيل مع هذه الدولة العظمى ، وبهذا لا نسعى إلى تحييدها فحسب بل إلى اتخاذ وسيلة للضغط على اسرائيل بها ؟ وهكذا بتغييب الحقيقة الامبريالية للولايات المتحدة ، فضلاً عن بعض البلدان الرأسمالية الأخرى ، كفرنسا والمانيا الغربية واليابان ، ينفتح باب التبعية الكاملة السياسية والاقتصادية والثقافية للامبريالية العالمية والأمريكية خاصة ، بل تبرر مواقف التواطؤ التي تقفها الامبريالية العالمية والامريكية مع اسرائيل . فهذا المنطق الذي يغيب الحقيقة الامبريالية كما يغيب الحقيقة الصهيونية ، يسعى لبذر الأوهام حول استقلال اسرائيل عن الولايات المتحدة الأمريكية ، بل حول الضغوط التي تعانيها الولايات المتحدة الأمريكية من « اللوبي » اليهودي الأمريكي الموالي لاسرائيل . فلا تكون اسرائيل أداة امبريالية ، بل تصبح الامبريالية الامريكية أداة لاسرائيل . . ومن تغييب الحقيقة الامبريالية والحقيقة الصهيونية ، يتم تغييب العلاقة العضوية الحميمة الوطيدة بين الصهيونية العالمية والامبريالية العالمية ، أو بين الرأسمالية اليهودية الكبيرة والاحتكارات العالمية تحت قيادة الولايات المتحدة الأمريكية . حقاً ، هناك تمايز هامشي وجزئي بين اسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية ، ولكن في اطار تلك العلاقة العضوية الامبريالية العالمية ، وخلق قيادة وسيطرة الاحتكارات الامريكية .

إن تغييب الحقيقة الامبريالية للولايات المتحدة الأمريكية أساساً

هو الخطر الاساسي الذي تتعرض له ثقافتنا وايديولوجيتنا ، ومن هذا التغييب يسهل استنبات أو استقدام أو تبني مختلف المفاهيم والقيم والمناهج الأخرى التي تشكل الرؤية والمنهجية الامريكية للحياة . فهي ليست رؤية الامبريالية الامريكية بل رؤية الحضارة الامريكية المزدهرة الناجحة !

ولهذا فان فضح الحقيقة الامبريالية ، والامريكية خاصة ، وفضح محاولات تغييبها والكشف الدائم عن وجهها القبيح قضية بالغة الأهمية بل حاسمة في التصدي للثقافة الامبريالية والصهيونية على السواء وما يصدر عنها من آثار وأخطار .

ثالثاً : ذكرنا من قبل أن الثقافة الامبريالية الصهيونية لا تفرض فرضاً من الخارج وانما تقبل بل تستنبت في حقل الايديولوجية العربية الرجعية المعبرة عن الابنية السياسية والاقتصادية والاجتماعية الرجعية ، وان هذا يتم أساساً لا بتبني الثقافة الامبريالية والصهيونية ، وانما بتغييب الحقيقة الامبريالية والصهيونية ، واذا كنا نتبين التبعية السياسية والاقتصادية للامبريالية والصهيونية بشكل مباشر ، فانه من الصعب أن نتبين التبعية الثقافية والايديولوجية بشكل مباشر كذلك . والحقيقة انها ليست تبعية ثقافية وايديولوجية مباشرة ، بقدر ما هي تعبير عن الأبنية السياسية والاقتصادية السائدة بها يكرسها ويدعمها ويعيد انتاجها باستمرار ، محتفظاً بخصوصية توهم استقلالها وتميزها الايديولوجي عن الصهيونية والامبريالية والفكر الغربي عامة . والرجعية العربية ليست فئة متجانسة ، بل تتراوح بين فئات عشائرية قبلية ، وبقايا اقطاعية ، ورأسمالية رجعية ، وبورجوازية طفيلية ، وبورجوازية زراعية ، وبورجوازية كبيرة محلية إلى غير ذلك . ولهذا تتراوح وتختلف كذلك التوجهات الفكرية والايديولوجية عامة ، من حيث المستوى والدلالة وبحسب الملابسات البنيوية الخاصة في هذا البلد العربي أو ذاك . على أنه اذا كانت البورجوازيات الأوروبية الكبيرة تلعب لعبة الليبرالية والديمقراطية الشكلية ـ التي انتزعت منها عبر نضال ديمقراطي طويل وشاق اخفاء لحقيقة النظام الاستعماري والاستقلالي والتسلط الطبقي التي تستند اليه ، فان الرجيعة العربية على اختلاف وتنوع أشكالها ومستوياتها تلعب أساساً لعبة التعصب الديني ، والتعصب القومي والطائفية ، أو بها جميعاً في كثير من الاحيان ، لاخفاء التسلط الطبقي ، والقمع والاستبداد والتبعية ، ولتمييع الصراعات الاجتماعية والوطنية . فمن المنطلق الديني يصبح العدو الرئيسي ليس هو المستغل ، وليس هو المستعمر الامبريالي وليس هو الصهيونية ، وليس هو العنصرية بل هو الملحد ، الكافر ، الزنديق . وهكذا تنقسم خريطة المجتمع وخريطة العالم إلى مؤمنين وكفار ، ويصبح الاتحاد السوفياتي أخطر علينا وعلى ثقافتنا من الولايات المتحدة الأمريكية واسرائيل الصهيونية . ويصبح الماركسيون العرب أخطر عليهم من الذين يتاجرون بأقوات الشعوب العربية ويبددون ثرواتها ويبيعون استقلالها بأبخس الأثمان . لست هنا أتحدث عن الدين في ذاته ، وانما عن الدين موظفاً توظيفاً ايديولوجياً لتكريس أوضاع التخلف والاستقلال وعلاقات التبعية . لعلنا لا ننسى رسالة الملك عبد العزيز آل سعود إلى الأمير عبد الله لمحاولة اجهاض ثورة ١٩٣٦ في فلسطين باسم الاتصال بالانجليز بحثاً عن تسوية . ولعلنا لا ننسى أن الرجعية العربية هي التي ساعدت ، بما أثارته وغذّته من قلاقل طائفية ، على اقامة اسرائيل بما دفعت اليها من اليهود العرب الذين يشكلون ما يقرب من ٦٠ ٪ من سكانها . ولنترك هذ التاريخ القديم المرير ، ولنقرأ بضع صفحات من التاريخ المعاصر ، نقرأها في هذه الجريدة اليومية العالمية السعودية التي تصدر في لندن باسم « الشرق الأوسط » .

ففي صدر عدد الجمعة ١٩ مارس ١٩٨٢ نقرأ البيان الذي أصدره مجلس هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية والذي يعتبر فيه القذافي كافراً وضالاً ومضلاً . انهم لا يتهمون القذافي في عقيدته فحسب ، بل يدينون كل « أقواله وأفعاله وتقلباته في جميع ميادين عمله داخل بلاده وخارجها » انهم اذن يحكمون الدين ويتخذونه سنداً لادانة السياسة الداخلية والخارجية . وهم في الحقيقة لا يفعلون ذلك وانما هم يطمسون أساساً حقيقة الكفر الوطني بل والديني للسياسة السعودية الداخلية والخارجية .

واسمحوا لي أن أعود مرة أخرى الى عدد آخر من اعداد الشرق الأوسط هو عدد الثلاثاء ٢٣ مارس ١٩٨٢ . ففي الصفحة الثانية وفي برواز تحت عنوان « شيخ الأزهر : مساع للتوفيق بين مصر والعرب » تنقل الجريدة عن مجلة « مايو » المصرية حديثاً مع الشيخ جاد الحق شيخ الأزهر الجديد . وتورد من الحديث الفقرة التالية بسؤاله عما اذا كانت معاهدة السلام المصرية ـ الاسرائيلية قد أتت بثمارها المرجوة في مجال السلم ، من وجهة نظر الأزهر البحتة أجاب : « لا شك في أننا قد جنينا اثار هذه المعاهدة . فسيناء العربية المسلمة قد آلت إلى مصر فبعد أيام قليلة تعود الينا وهذا كسب عظيم بلا شك ما كان يمكن أن يحصل إلا بالسلام الذي سلكته مصر مؤيداً بها سلوك الدولة في ذلك » ان شيخ الأزهر الجديد يتغافل عن أن سيناء العربية المسلمة لن تعود إلى مصر بعد أيام قليلة ، بل ستحتلها بل أخذت تحتلها قوات الانتشار السريع الامريكية فضلاً عن قوات غريبة أخرى ، وينسى أو يتناسى شيخ الأزهر الجديد أن مشايخ الأزهر أيام جمال عبد الناصر كانوا قد

أصدروا فتوى اعتبروا فيها الصلح مع اسرائيل خروجاً على الدين . على أن هذا ليس هو ما أردنا بيانه ، وانما أردنا أن نبين كيف أن هذه الجريدة السعودية عندما تنقل هذا الحديث الذي يبارك اتفاقية كامب دافيد ، فانها لا تفعل ذلك من قبيل نشر خبر ، وانما من قبيل الترويج لرأي وان اتخذ هذا الترويج طابعاً حيادياً في ظاهره . كنت أتمنى لولا ضيق المجال ، أن أقف طويلاً مع هذه الجريدة السعودية اليومية التي تتصدرها عبارة « بسم الله الرحمن الرحيم » والتي تعبر تعبيراً بالغ الذكاء والحنكة عن توظيف الدين توظيفاً تطمس به كل معالم صراعاتنا الاجتماعية والوطنية والقومية : عداء ثابت للاتحاد السوفياتي والبلاد الاشتراكية ، تبييض متصل بل تلميع لوجه الامبريالية الامريكية ، تمييع لصراعنا ضد الصهيونية ، دفاع عن الرجعية العربية ، وتهجم على القوى الوطنية والتقدمية العربية .

إنها نموذج فذ لتوظيف الدين لخدمة الفكر الرجعي وتزويق التبعية للامبريالية والصهيونية . اليس الذين يمولون هذه الجريدة هم أنفسهم الذين يحلون أزمات البلاد الرأسمالية بترك أرصدتهم في بنوكها ، ويعاقبون البلاد الوطنية النامية المنتجة للنفط ، باغراق الاسواق بالنفط وخفض ثمنه ، ويقيمون حلفاً عسكرياً استراتيجياً مع الامبريالية الامريكية ، ويجعلون من بلادهم « المقدسة » قاعدة عسكرية عدوانية أمريكية ضد حركات التحرر الوطني العربية والافريقية ؟

ومن منطلق التعصب القومي تُضرب الديمقراطية وتضطهد الاقليات وتصفى النضالات الطبقية والوطنية أو تحرف عن اتجاهاتها الموضوعية ، وتسود المثالية اللاعقلانية والرطانات المجردة المنبعجة الخالية من الحقائق العينية الملموسة ، وتفرض أشكال مثيرة علوية من الوحدات القومية التي سرعان ما تنتكس وينتعش العداء للماركسية ولأحزابها الشيوعية ، باسم الخصوصية القومية ، وتوضع البلاد الاشتراكية والبلاد الرأسمالية على مستوى واحد من حيث التقييم الفكري والسياسي . على أن هذا لا يكون الا في الايديولوجية المعلنة ، أما في الايديولوجية العملية فالتعامل أساساً مع البلاد الرأسمالية ، والممارسات السياسية تخدم موضوعياً في النهاية المخططات الامبريالية والصهيونية .

ويندمج التعصب الديني والتعصب القومي لتشكيل ظاهرة الطائفية ، وهي عنصرية في حقيقتها ، تسعى بمظهرها الديني والقومي إلى اخفاء حقيقتها العنصرية بل الفاشية والى محاولة اخفاء علاقاتها الحميمة بالأنظمة العربية ذات التوجهات الدينية المتعصبة ، أو القومية المتعصبة ، فضلاً عن محاولة اخفاء علاقاتها العضوية مع الصهيونية والامبريالية .

وهكذا يتبينّ لنا انه من منطلق التعصب الديني ، والتعصب القومي والطائفية ، تحقق الصهيونية والامبريالية أهدافها السياسية والاقتصادية بل والثقافية كذلك . فليست أهدافها الثقافية هي أن تتبنى شعوب الأمة العربية الايديولوجية الصهيونية والامبريالية ، وانما أن تنتعش ايديولوجية ذات خصوصية محلية مظهرية يتحقق بها تكريس واعادة انتاج التبعية البنيوية للامبريالية الصهيونية على المستوى الايديولوجي بما يكرس ويعيد انتاج الاالتبعيةالبنيويةعلى المستوى السياسي والاقتصادي والاجتماعي .

ولهذا فان النضال الفكري ضد التعصب الديني والتعصب القومي والطائفية ، وضد الفكر الرجعي عامة ضرورة حاسمة كذلك في التصدي للثقافة الامبريالية والصهيونية . ان الاستنارة والعقلانية الدينية ، والنهج الديمقراطي الذي يحترم التنوع والاختلاف في اطار الوحدة القومية ، هما سلاحان بغير شك من أسلحة النضال ضد تلك الثقافة الامبريالية الصهيونية .

رابعاً : إن المعركة الثقافية والفكرية عامة ليست معركة بين أفكار وقيم مجردة ، أي ليست مجرد معركة نظرية بين ايديولوجيتين متعارضتين معلقتين في الهواء ، وانما هي معركة تتم وينبغي أن تتم في حقل التجسيد العيني الملموس للايديولوجية ، أي في اشكال السياسات والممارسات القانونية والاقتصادية والديمقراطية والتعليمية والفكرية والسياسية فضلاً عن الثقافية . ان كل معركة ضد فكر متخلف جامد غير ديمقراطي ، ضد فكر اقتصادي ، ضد فكر سياسي يسوي بين الحلفاء والاعداء هي جزء من المعركة ضد الثقافة الامبريالية الصهيونية .

على أن الفكر والثقافة لا تتجسد في سياسات وممارسات فحسب ، بل في أجهزة وأبنية سياسية كذلك . فالفكر الامبريالي يتجسد في مؤسسات وجامعات وشركات وقواعد عسكرية ومشروعات اقتصادية وبنوك . والصهيونية لا تتجسد فحسب في مختلف مؤسسات الاقتصاد والثقافة والاعلام على المستوى العالمي ، بل تتجسد كذلك في دولة سياسية هي اسرائيل . والفكر الرجعي يتجسد كذلك في سلطة سياسية لدول عربية بعينها ، تستخدم كل أجهزتها الايديولوجية لدعم وتكريس سلطتها . ولهذا فان الصراع ضد الثقافة المعادية لثقافتنا الوطنية والديمقراطية العربية يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالصراع السياسي ضد الامبريالية والصهيونية والرجعية العربية .

ولن تكتمل مواجهتنا للثقافة الامبريالية الصهيونية الرجعية الا عبر النضال السياسي ضد الاشكال التجسيدية للسلطة الصهيونية والسلطات الرجعية العربية ، والمراكز والقواعد والهيئات المعبرة عن المصالح الامبريالية في بلادنا العربية . ان المعركة الثقافية ليست مجرد معركة ثقافية نظرية ، وليست مجرد مواكبة أو موازنة للمعركة السياسية ، وانما هي في الجوهر معركة سياسة تستهدف اسقاط الانظمة الرجعية التي هي حصون دفاع وحقول استنبات

للكفر الرجعي الخادم .

إن ثقافتنا ينبغي أن تكون سلاحاً ثورياً في يد النضال السياسي تحقيقاً لأهدافه في اسقاط النظم العربية الرجعية ، واقامة النظم الوطنية الديمقراطية كشرط لتحقيق ثورة ثقافية نقتلع بها جذور الهياكل والأبنية الثقافية الرجعية التابعة للامبريالية والصهيونية .

خامساً : إن المعركة الثقافية الفعالة ، ليست مجرد معركة نخبة متعالية ، بل هي معركة كل الجماهير الشعبية ولن يتوفر لها النجاح إلا بمقدار اتساعها وتعمقها الجماهيريين ومشاركة الجماهير فيها مشاركة وعي وأخذ وعطاء . ولا شك أن الحرص على البعد السياسي للمعركة الثقافية كفيل بتحقيق ذلك .

سادساً : إن الفكر الصهيوني في الممارسة لا يقتصر على العداء لثورتنا العربية كجزء من المخطط الامبريالي العالمي ، وانما يشارك هذا المخطط في محاولة ضرب وتخريب الحركات الوطنية والتحريرية في العالم ، فضلاً عن محاولة تخريب الأنظمة الاشتراكية من الداخل ، وتشويه تجاربها في الخارج . ولست مغالياً ان قلت إن الفكرة الصهيونية تدرك أن النقيض المباشر والعدو الاساسي لها ، هو الفكر الاشتراكي العلمي ، هو الماركسية وهو المجتمعات الاشتراكية التي تزداد تعمقاً . فالفكر الاشتراكي العلمي أي الماركسيةتحديداً لا يرى حلاً لقضيةاليهود واليهودية الا في الاندماج في مجتمعاتهم ، فضلا عن أنه النقيض المباشر للرأسماليةالاحتكاريةوالامبرياليةالتي هي الجذر الطبقي والسند العالمي للصهيونية . والصهيونية تدرك أن الهزيمة العالمية للامبريالية ، والانتصار العالمي للاشتراكية هو مقبرتها النهائية .

وهذا مما يفرض أن تكون معركتنا ضد الصهيونية فضلاً عن الامبريالية جزءاً عضوياً من المعركة العالمية التي تخوضها البلاد الوطنية المتحررة والطبقات العاملة في البلاد الرأسمالية والمنظومة الاشتراكية ضد عدونا المشترك .

سابعاً : النقطة الأخيرة التي نستخلصها من كل ما سبق ، هي أنه لا سبيل إلى مواجهة حقيقية حاسمة للفكر الامبريالي الصهيوني الرجعي ، بالاقتصار على برنامج اجرائي ، رغم أهمية وضع برنامج اجرائي ، وأهمية خلق الأدوات التنفيذية للمقاومة . وانما المهم بل الضروري أن يتم ذلك استخلاصاً من استراتيجية ثقافية ذات رؤية شاملة ، مستندة إلى استراتيجية سياسية شاملة بكل ما يعنيه هذا الشمول من أبعاد اقتصادية وعسكرية واجتماعية وتعليمية واعلامية وعلمية وتكنولوجية .

قد تكون السطور السابقة صالحة لوضع بعض الاسس المبدئية لهذه الاستراتيجية الثقافية ، وان كان من الأفضل منهجياً ، أن تنبثق من استراتيجية سياسية أشمل . ولكن يبقى كذلك أن تترجم هذه الاسس المبدئية إلى أهداف وواجبات محددة تمهد للوصول إلى برنامج عمل وأدوات تنفيذ وخطة زمنية ذات مراحل . ولا شك أن مهمة كهذه لا تقع على عاتق فرد ، أو جماعة بل تستوجب التحديد والتخطيط والتنسيق والتنفيذ عبر هيئات ومؤسسات واتحادات ودور نشر . ولكن حسبي أن اكتفي باقتراح بعض المؤشرات العامة .

على أنني أحب أن أقول في البداية أننا ينبغي أن نعترف بموضوعية وأمانة وتواضع أننا لا نبدأ من نقطة الصفر ، لا نبدأ من فراغ ، لا نبدأ أمراً غير مسبوق . فما أكثر ما في وطننا العربي في مشرقه ومغربه من جهود جادة ، لامعة ، في مختلف الجوانب الثقافية ، تأكيداً للابداع الفكري العربي الوطني الديمقراطي التقدمي العقلاني ، وتصدياً للفكر الصهيوني الامبريالي الرجعي . بل ما أجدرنا أن نحيي مراكز ودور وأجهزة نشر عربية عامة وفلسطينية خاصة ، ما أجمل ما تقدمه من خدمات ثقافية تنويرية . بل ما أجدرنا ان ندرك بعمق أن كل نضال سياسي ، أو اقتصادي أو اجتماعي أو عسكري ، وان كل استشهاد في المعركة بيننا وبين الرجعية العربية ، والاحتلال الصهيوني ، والتبعية الامبريالية واشكالها المختلفة ، انما هو في الوقت نفسه نضال أعمق ، يكوّن النضال ضد الثقافة التي تفرزها وتستنبتها وتسعى لغرضها هذه الأفعى ذات الرؤوس الثلاثة .

وأعود إلى الاقتراح ببعض المؤشرات لوضع استراتيجية ثقافية في ضوء الاسس المبدئية التي ذكرتها من قبل يمكن أن تترجم بعد ذلك إلى برنامج عمل تفصيلي .

أولاً : العمل على تشكيل جبهة عربية للدفاع عن الثقافة القومية العربية ، تضم دور النشر العربية ، واتحاد الأدباء العرب ، واتحاد الصفحيين العرب واتحاد الجامعيين والمدرسين والاقتصاديين والاعلاميين والفنانين العرب ومختلف الاتحادات العربيةالمماثلةالقطرية ، فضلاً عن لجنة الدفاع عن الثقافة القومية في مصر ، على أن تحرص هذه الجبهة على :

أ ـ أن تضع ميثاقاً ثقافياً وطنياً ديمقراطياً لمواجهة الثقافة الرجعية والامبريالية والصهيونية ، يلتزم به المثقفون العرب التزاماً عملياً في كل مجالات عملهم وأنشطتهم وابداعهم .

ب ـ ان تنسق الجهود الثقافية وتنميها في مواجهة مختلف المواقف والسياسات والممارسات الرجعية والامبريالية والصهيونية على المستوى القومي والمحلي .

ج ـ ان تقوم بمشروعات انتاجية مشتركة عامة أو متخصصة في مختلف مجالات الابداع الثقافي كاصدار كتب أو

مجلات أو انتاج أفلام أو انشاء فرق مسرحية أو تنظيم مهرجانات ثقافية أو حفلات موسيقية أو معارض فنية إبرازاً للابداع العربي الوطني الديمقراطي لا في البلاد العربية وحدها بل في العالم أجمع .

د ـ أن تقوم بتنظيم مؤتمرات متخصصة لوضع خطط نوعية للتصدي للفكر الرجعي الامبريالي الصهيوني في مجال :
- التعليم العام والتعليم الجامعي .
- الاذاعة الصوتية والمرئية .
- الفنون التشكيلية والفنون الأخرى .
- الاقتصاد الصناعي والزراعي .
- الفكر النظري . . . إلى غير ذلك .

ثانياً : المشاركة باسم هذه الجبهة بعد تشكيلها (أو باسم هذه الندوة إذا تأخر تشكيل هذه الجبهة) في مؤتمر المتابعة العالمية المعادية للامبريالية والصهيونية والعنصرية والرجعية الذي سينعقد في الجماهيرية الليبية في ١٥ مايو القادم ، وذلك لتنسيق الجهود بين جبهةالمثقفين العرب ومختلف المنظمات العالمية الوطنية والديمقراطية والاشتراكية لفضح ومواجهة الثقافة الامبريالية والصهيونية على المستوى العالمي .

ثالثاً : الاعداد لمؤتمر عربي أو عالمي حول « الدين والثورة الاجتماعية » لمواجهة السياسات والمؤتمرات وأشكال العمل التي تستخدم الاسلام والمسيحية استخداماً لخدمة الأهداف الرجعية والطائفية والامبريالية والصهيونية .

رابعاً : الاعداد لمؤتمر عربي لفتح ملف قضية الوحدة العربية ، بهدف مراجعة مفاهيمها المختلفة مراجعة نقدية في ضوء خبرة السنوات الثلاثين الماضية، ومساهمة في انضاج مفهوم للقومية العربية انضاجاً موضوعياً ، بعيداً عن المثالية والتعصب العرقي ، وتحديد أشكال جديدة للنضال القومي التوحيدي على أساس من الديمقراطية واحترام الاجتهادات الفكرية المختلفة والحرص على وحدة العمل بين هذه الاجتهادات في طريق الهدف المشترك .

خامساً : تشكيل لجنة عربية على المستوى القومي للنضال ضد القمع وللدفاع عن الحقوق الديمقراطية تكون تتويجاً للجان قطرية للهدف نفسه في كل بلد عربي ما أمكن ذلك ، وذلك للنضال الموحد من اجل الافراج عن المسجونين والمعتقلين السياسيين العرب ، والغاء مختلف التشريعات المقيدة للحريات .

سادساً : تشكيل لجنة عالمية للدفاع عن المسجونين الفلسطينيين في السجون الاسرائيلية ولفضح السياسات الاسرائيلية النازية العنصرية ضد الفلسطينيين أصحاب الأرض المغتصبة .

سابعاً : العمل على انهاء مقاطعة المؤسسات الثقافية والاتحادات المهنية المصرية كاتحاد الصفحيين واتحاد العمال والطلبة والاطباء الى غير ذلك دعماً للصراع الذي يتم داخل مصر ، وفي قلب هذه المؤسسات والاتحادات ضد اتفاقيات كامب دافيد وسياسة التطبيع .

ثامناً : تشجيع ونشر وتوزيع كافة أنواع انتاج الكتاب والمثقفين والفنانين المصريين المتعلق بمقاومة الثقافة الرجعية والصهيونية والامبريالية ، وخاصة ما يصدر منها عن لجنة الدفاع عن الثقافة القومية في مصر .

تاسعاً : تشجيع ونشر وتوزيع والاهتمام الجاد بكافة انواع انتاج الكتاب والمثقفين والفنانين الفلسطينيين في فلسطين المحتلة خاصة .

عاشراً : العمل على اصدار مجلة عربية سياسية ونظرية تتصدى أساساً للفكر الرجعي الصهيوني الامبريالي ، تصدياً على مستوى رفيع من العمق والجدية والموضوعية.

أحد عشر : اصدار مجلة أو أكثر للأطفال لمواجهة مجلات الاطفال التي تشيع القيم الرجعية والرؤية الامريكية للحياة ، فضلاً عن الاهتمام بكتاب الطفل العربي ، موضوعاً ومنهجاً واخراجاً فنياً .

ثاني عشر : العمل على اصدار مجلة علمية أو أكثر لاقامة منهج التفكير العلمي الموضوعي في مختلف نواحي الحياة .

ثالث عشر : التصدي وفضح الدور الذي تلعبه الجامعات والمراكز والمؤسسات ودور النشر الثقافية الأمريكية في مختلف البلاد العربية .

رابع عشر : التصدي النقدي للجرائد والمجلات العربية النفطية الرجعية وفضح ما تتضمنه وتشيعه من ايديولوجية تكرس التخلف وروح الاستهلاك واللاعقلانية والوعي الزائف ، وتبيض من صفحة الامبريالية الامريكية وتروج لمخططاتها فضلاً عن شرائها لأقلام بعض الكتاب والصحفيين العرب الذين لا تكتفي بمنحهم مرتبات عالية ، بل تحاول أن تكسب إلى صفحاتها بعض الاقلام المعروفة بوطنيتها وتقدميتها ، تغطية لايديولوجيتها المعادية للوطنية والتقدمية . . وما اجدر المثقفين والصحفيين العرب بمقاطعة العمل والكتابة في أمثال هذه الصحف والمجلات ، التي تنفث السموم وتحقق الغزو الثقافي الامبريالي الصهيوني بحروف عربية وبأقلام عربية .

على أنني قد أستبيح لنفسي في النهاية أن أقترح كذلك أن يختتم مؤتمرنا هذا أعماله باصدار نداء الى المثقفين العرب للاهابة بهم

للانخراط كل في حدود امكانيته وقدرته في النضال السياسي والاجتماعي والفكري والفدائي انخراطاً جاداً عملياً منظماً في مواجهة الرجعية والامبريالية والصهيونية والتصدي لمخططاتها ومشروعاتها المشبوهة ، وذلك بنشر الوعي الصحيح بحقيقة هذه الرجعية وهذه الصهيونية وهذه الامبريالية عامة والامريكية بوجه خاص للاهابة بالمثقفين العرب بالوقوف بيقظة وحسم ضد الساداتية التي لم تمت باعدام السادات . بل تنتعش في أكثر من بلد عربي تحت صيغ ومشروعات مختلفة ، وبالنضال ضد القواعد العسكرية الأمريكية في مصر ، في السعودية ، في عُمان ، في الصومال ، في السودان ، هذه القواعد العسكرية التي تشكل احتلالاً مباشراً جديداً لأجزاء من وطننا العربي ، للاهابة بالمثقفين العرب بشجب سياسات بعض الدول العربية التي تشكل تواطؤاً بل خدمة مباشرة للامبريالية الامريكية والصهيونية كسياسة الحكومة السعودية في مجال النفط والارصدة والتعاون العسكري مع الامبريالية الأمريكية للاهابة بالمثقفين العرب بالمشاركة في النضال الحاسم الحازم من اجل اسقاط نظم العمالة والرجعية وتحرير البلاد العربية تحريراً جذرياً من التبعية السياسية والاقتصادية والثقافية للامبريالية والصهيونية ، واقامة نظم وطنية ديمقراطية تكون قواعد لوحدة عربية ديمقراطية تقدمية ، يتحقق بها انتصار الثورة العربية، واسهامها الحضاري الخلاق في النضال العالمي من اجل استكمال هزيمة الامبريالية والصهيونية على المستوى العالمي والغاء كافة أشكال الاستغلال والقهر والقمع والحروب العدائية ، وبناء عالم جديد متحرر متقدم ، تتحقق فيه وبه انسانية الانسان .

الغزو الثقافي في الوطن العربي
وخلق ادوات المقاومة .

الياس مرقص

الانسان هو الانسان الصانع والعاقل ، الفاعل والعارف ، انسان العمل والوعي والاجتماع والانتاج ، انسان الحضارة والثقافة ، ولنقل بمطلع خلدوني : انسان العمران .

كل البشر الحاليين ينتمون إلى نوع بشري واحد ، يدعى « الانسان العاقل » يملك ، منذ ظهوره ، خصائص نفسية واحدة وامكانات ذهنية واحدة . وما التاريخ ، سوى بسط متنوع لهذه الخصائص وهذه الامكانات . فالبشر منذ أقدم الأزمنة ، جماعات مختلفة تعيش في مناطق مختلفة ، تحت سماوات مختلفة ، تتكلم لغات مختلفة ، وتدخل فيما بينها في تبادلات مختلفة .

غير أن هذا الاختلاف في الزمان ـ تقدم ، وأيضاً تقهقر ـ وهذا الاختلاف في المكان ـ قبائل وشعوب وقوميات مختلفة ـ لا يجوز أن يحجب الهوية الانسانية . اجل ، وان ادراك هذه الهوية الواحدة المساواتية يفترض درجة عالية من التجريد ، لكن هذا التجريد للكلية انما يحمله الاختلاف والتنوع ، ولا يقوم علم حقيقي بدون ذلك . فلا علم الا بالكليات كما يقول الاقدمون ، وغني عن التذكير بأن هذا المستوى المساواتي مؤيد وباصرار في الدين التوحيدي :

البشرية ذرية آدم ، هذا ما رفضه هتلر ، مثلاً ، النازية ، المذهب العرقي ، ان حرب النازية ضد الدين التوحيدي يجب أن تفهم ، ويجب أن توعى ابعادها ، هذه قضية راهنة . « خصائص نفسية واحدة » ، أقصد ، على سبيل المثال ، اننا نخطىء خطأ قاتلاً ، وقاتلاً لأنفسنا أولاً ، اذا ما تصورنا ان الشر أو القهر أو الاستغلال أو الانانية أو الوثنية وغير ذلك من الشرور وقف على غيرنا ، على جميع البشر فيما عدانا ، أو على الغرب حصراً . «ان النفس لأمارة بالسوء » وليس احد من طينة أخرى .

الدنيا ليست الجنة ، التاريخ ليس فردوساً ، التاريخ دراما ومأساة ، فيه دائماً وجه من دراما ومن مأساة ، حسبه أن يكون تقدماً ، لم يكن كذلك دائماً . والتقدم يستحق دائماً أن ينقد ، ان يمثل أمام محكمة الوجدان والوعي . يمكن ويجب أن تعمل البشرية من اجل تاريخ وتقدم من نوع جديد ، أي أقل مأساوية ، بدون دعوى فردوسية على الأرض . يمكن للشعوب أن تقاتل من اجل غد أفضل بدون أن يكون الجنة ، وبدون أن يقال لها انه الجنة .

- ٢ -

الجماعات البشرية المختلفة في تبادل دائم

إن ظاهرة النقل أو الانتقال قديمة قدم التاريخ وما قبله . لولاها يكون التقدم الحاصل فعلياً غير مفهوم . واقعياً ، ان التطور الذي حققته البشرية خلال عشرة آلاف سنة ونيف ، لم يتم بآلية فعل وردّ فعل بين أدوات انتاج وعلاقات انتاج وبين فوقية في اطار مجتمع مجرد ، معزول ، وهمي ، بل أيضاً وبالضبط بفضل العلاقات الأممية ، اقصد العالمية ، أي العلاقات بين قبائل وشعوب ، بين مناطق صغيرة وكبيرة مختلفة في الدنيا المسكونة .

هكذا فالثورة النيوليتية وقعت في بلاد الشام بفضل التقاء روافد متنوعة نشأت في المنطقة أو أتت من الجوار القريب أو البعيد ، ثم انطلقت منها إلى شتى مناطق العالم القديم ، عالم القارات الثلاث ، كذلك الحضارات النهرية الكبرى وعصر البرونز . والحديد والحصان حملتها إلى الشرق الأدنى شعوب وافدة ، وبعد ذلك ، يصير البحر الأبيض المتوسط بؤرة عالية التوتر . هناك الاستعمار الفينيقي ، الاستعمار اليوناني ، الفتح الاسكندري ، الحضارة الهلينسْتية ، الامبراطورية الرومانية ، الرق والتجارة ، المسيحية ، الاسلام والفتوحات العربية .

بوجه الاجمال ، ليس التاريخ فقط بل أيضاً ما قبل التاريخ ، ابتداء من نقطة ما ، انما تملؤه عمليات النقل ، الانتقال ، الهجرة ، والتبادل بشتى المعاني .

إن مذهب الجواهر يجب أن يدان ، كل الجواهر نسبية في منطق هيغل ، فكرة الجوهر الصحيحة خاضعة لفكرة العلاقة . إن هوية الأشياء ليست جوهراً ماهوياً . بالأحرى هوية الثقافات ، الحضارات ، الشعوب ، الأمم .

تعدد ثقافات ، اجل ، لكن لعل الافضل أن نقول : ثقافة متعددة .

- ٣ -

لقد تكونت الثقافة العربية الاسلامية في العصور الوسطى بالأخذ ، أخذت ، بروح مبدئية وبتصميم ، عن ثقافات سبقتها في المنطقة وخارجها ، وكانت ثقافة أصيلة ، كليةأي كونية ، وذات ديمومة .

قبلها ، تكونت الثقافة اليونانية بالأخذ ، أخذت المواد من الشرق الأدنى القديم ، وصنعت بهذه المواد شكلاً جديداً ، انتقل في وقت لاحق إلى أوروبا وقبلها إلى العرب أيضاً . هذا ما يسمى « بالمعجزة اليونانية » .

هناك ، « معجزة عربية » . . . كان العرب أسياداً ومنتصرين ، كان لهم هوية ، ولم يكن عندهم عقدة هوية . اخذوا موارد من اليونان ومن الشرق . وشكلوا ثقافة كبيرة جداً . ليس فقط تقنيات انتاج وطرق حياة ، بل فلسفة وعلوم وفنون وآداب . إن سلسلة من الفلاسفة ـ العلماء العرب دخلوا كرافد كبير في نهوض أوروبا الحديثة بدأ في أواسط العصور الوسطى . لقد بسط العرب العقل ، اكتشفوه واخترعوه في العالم ، أنموا العقل الانساني ، ثم ، في ظروف تاريخية معينة ومتلاقية ، خرجوا من مسار التقدم . لكن الثقافة العربية هي الثقافة العربية ، ابنة هذه المنطقة ، وهي مرتبطة بها ، وهي ثقافتنا لها خصوصية ، بل أقول : لها مفردية ، لكن المفردية هي حاصل جمع كليات ، ليست الثقافة العربية هي نوع ، والثقافة الانسانية هي نوع آخر . ولا أعتقد أن الثقافة العربية الاسلامية أقرب إلى الثقافة الهندية ، أو الصينية ، منها إلى الثقافة الأوروبية ، وليس من الصحيح أن نعتبر اننا نحن الشرق ازاء الغرب . هناك شرق آخر ، كبير وعظيم واكبر منا بكثير ، ما يجمعنا معه في شرق واحد ازاء الغرب هو العصر الحديث ، الاستعمار ، النظام الاقتصادي وغير الاقتصادي الذي نتج عنه .

- ٤ -

يمكن القول أن الاستعمار بالمعنى الأصلي والحرفي للكلمة هو العمران . بهذا المعنى ، التاريخ كله هو استعمار . وهذا المعنى راهن ، ثمة الآن زحف من الصحراء على الأرض المزروعة والمعمورة في بعض أقطار الوطن العربي، وثمة امتصاص للأرياف في العواصم والمدن المتضخمنة الاستعمار العربي لأرض الوطن متراجع في الآونة الأخيرة .

غير أن فكرة الاستعمار في تاريخ النوع البشري لم تكن فقط هي استعمار البشر للأرض ، بل استعمار البشر للبشر أيضاً .

والاستعمار الأوروبي الحديث حقبة جديدة نوعياً في تاريخ البشرية ، كان عدواناً واسعاً شاملاً ، ومن طرف واحد . النظام الرأسمالي البادىء في القرن السادس عشر بعث الرق ، اباد الملايين من الهنود الحمر ومن الزنوج الافريقيين ، ثم ، في وقت لاحق ، بشكل خاص في عصر الرأسمالية الصناعية ثم الاحتكارية والمالية ، استطاع الاستعمار متمثلاً بدول معينة عديدة ، معظمها أوروبية ، مضافاً اليها الولايات المتحدة واليابان ، أن يفرض تسلطه على ثلاث قارات ، ان يسخّر خيراتها لصالحه ولتصوراته وأهدافه ، أن يغير بناها ، وان يدخلها في تاريخ جديد ، عالمي ، يكون هو مركزه وذاته وصانعه وتكون هي موضوعه ومادته .

ولقد ناضلت الشعوب المستعمرة نضالاً طويلاً وشاقاً ضد الاستعمار ، وأسفر هذا النضال أخيراً عن جلاء قوات الاحتلال الأجنبي ، وانتزاع الاستقلال الوطني ، ودخول جميع البلدان المستعمَرة سابقاً إلى منظمة الأمم المتحدة .

من جهة ، باتت كل الاقطار دولاً مستقلة ، من جهة أخرى ، ثمة انطباع بأن الأمر ليس كذلك ، عملياً ، التبعية باقية .

شروط التبادل مجحفة ، النفط العربي يغذي تقدم الغرب ، وانتاج هذا النفط ينمو بوتيرة مذهلة ، لا سيما منذ حرب حزيران ١٩٦٧ وحتى الآن ، وذلك رغم التوسع الاسرائيلي وارتباط اسرائيل بالولايات المتحدة وبالغرب ، العالم العربي يعاني أزمة متنوعة ، ثمة في معظم المجتمعات العربية ، عملية إغناء وإفقار لم يكن احد منا يتوقعها قبل خمسة عشر عاماً ، لعل نصف سكان الوطن العربي هم على حافة الجوع ، الاقطار العربية تفقد الاستقلال الغذائي ، ثمة تراجع للحريات الديمقراطية ، ثمة نوع من حرب أهلية كامنة أو فعلية داخل الأمة العربية ، الوحدة العربية في تراجع ، ثمة نزيف بشري

كبير ، هجرة عربية الى أوروبا الغربية بشكل خاص .

تجري الأمور أمامنا وكأن العالم الاستعماري أو الاستعماري سابقاً يجني فوائد من العرب ، وبترول العرب ، لكن من العرب بشكل خاص ، لم يكن يجنيها حين كانت له جيوش غزو واحتلال تقاتل في بلادنا ضد المناضلين الوطنيين وضد الشعوب ، وحين كان بالتالي يضحي بشباب من أممه من اجل الاستغلال والهيمنة .

إذ ان هناك فرقاً لا يمكن محوه بين الحالة الحاضرة والحالة قبل ربع قرن أو نصف قرن : في الوقت الحاضر لا يوجد على أرضيتنا وفوق شعوبنا جحافل أو جيوش فرنسية ، انكليزية ، ايطالية ، كما كان الحال قبل حين من الزمن ، ولا أمريكية . ومع ذلك هناك تبعية رغم الاستقلال . هل يجب أن نسميها تبعية طوعية ؟ أم نسميها تبعية بالوساطة ؟ هل بنينا الاستقلال ، تقرير المصير ، المستقبل ؟ هل أدركنا أن الاستقلال بناء للمجتمع ؟

الفقر لم يكن أكبر ، ولا فيض الثروة والرشوة والفساد . كذلك القهر الانساني، وكذلك التجزؤ العربي. لا يوجد أمن قومي عربي مع أن المشروع الصهيوني يتقدم عاماً بعد عام ومع أن الشعب الفلسطيني يعلن رفضه ، يثبت وجوده وحضوره الفعلي وكيانه كشعب .

لئن كنت أطرح هذه الأمور ، فلأنه في اعتقادي لا يجوز أن تكون مقاومة الغزو الثقافي مهرباً وتعويضاً عاجزاً عن حقائق سياسية وتاريخية تنتصب امامنا كالجبال .

لا مقاومة لغزو ثقافي اجنبي ولا حفظ أو بناء لهوية ثقافية قومية إذا كان عشرات الملايين من العرب يعيشون ليومهم ، لا يعرفون غدهم ، ولا يسيطرون على شيء من مصيرهم . حين يزحف البشر على بطونهم ، فهم ليسوا بحاجة الى أية ثقافة لا غازية ولا أصيلة .

باختصار ، ان ما يجابهنا بالتلازم هو : افقار الجماهير الواسعة ، تراجع الديمقراطية وفكرة الدولة كدولة حق وقانون ، تراجع الوحدة العربية أو تراجع الأمة العربية ككيان حقيقي ، كاستقلال ومستقبل . اذا استمرت هذه الحال ، تكون قضية الهوية الثقافية العربية ، كمشروع عمل ، معلقة في الهواء .

بتعبير آخر : إن قضية الغزو الثقافي تأخذ مكانها في اطار تاريخي وسياسي راهن ومحدد .

- ٥ -

ما الذي يغزونا فعلاً في الوقت الحاضر ؟

الذي يغزونا ليس ديكارت ولا ارسطو وفرنسيس بيكن أو هيغل . ولا أعتقد أن هؤلاء يؤلفون عالماً فكرياً بذاته ، وان المعري والحسن بن الهيثم وابن رشد وابن خلدون والخوارزمي يؤلفون عالماً فكرياً آخر .

الذي يغزونا هو الويسكي والسيارات وأفلام الفيديو الخلاعية . هذه قضية سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية .

الذي يغزونا هو عالم حضاري حديث جداً في الغرب نفسه .

الذي يغزونا هو مجتمع الاستهلاك والانحلال أو التغرب . ثمة فرق كبير بين الغرب في النصف الثاني من القرن العشرين وأوروبا في عصر صعودها الاساسي . . والتغرب ليس مفهوماً تابعاً للغرب بل للغربة . حضارة السيادة في الغرب في ربع القرن الأخير تابعة لانتاج النفط ، وبالتالي والى حد لا بأس به ، للأوضاع العربية وانتكاس المشروع العربي القومي الشامل . الذي يغزونا هو تذرر المجتمع ، ضياع الانسان كجملة علاقات اجتماعية .

بشكل رئيسي ، ان الاجتياح الثقافي أو الحضاري الذي يأخذنا تابع لنظام اجتماعي - اقتصادي - سياسي تكوّن ويتكوّن عندنا بخطى سريعة . من المحال مقاومته جدياً بدون تغيير النظام .

الذي يتراجع هو ، في المقام الأول ، فكرة العمل أو الشغل ، كينونة الانسان الاساسية . وبالتالي ، مع فكرة العمل ، فكرة التعامل ، الاجتماع ، فكرة الوعي والوجدان والاخلاق والحق ، فكرة الانسان والمواطن . اقصد انها تتراجع في الواقع وفي الفكر . فهي مقولات والمقولات تعبير عن علاقات كينونية . وهي تتراجع . مفهوم القيمة ، المفهوم المساواتي ، الهوية الكبيرة ، يتراجع .

النظام الرأسمالي العالمي يشهد ، في الآونة الأخيرة ، في مرحلته الأكثر تقدماً ، تباعداً كبيراً ومتزايداً بين العمل والكسب . الوطن العربي يضاعف هذه الحالة العامة ، ان الشعور العام باستفحال اللاعدل شعور مطابق للواقع .

من الخطأ الاعتقاد بأنه من الممكن وقف الغزو الثقافي أو الحضاري بدون تغيير النظام القائم من أساسه ، بدون تغيير المسيرة العربية الأخيرة ، بدون رجوع قضية العرب الكبرى ،

التي حملناها قبل ربع قرن . ليس ثمة مشروع عربي مستقبلي اذا لم يكن في أساسه مفهوم العمل والاجتماع الانساني . بدون ذلك ، الاشتراكية نفسها تكون غطاء لشيء آخر ، معاكس ، وتنتكس الروح العربية كلها الى المركانتيلية والوثنية . وقد يلبس هذا الانتكاس كله لباس الاصالة أيضاً :

ينبغي أن نجيب على سؤال : هل نحن مؤمنون بتاريخ العالم ، بمصير عالمي للانسان اليوم أم لا ؟ هل نحن نريد ، كعرب ، رجوعاً إلى ماض قومي خاص بنا ، أم نريد ، كعرب ، مشاركة مستقلة وجادة في حسم حاضر عالمي احتمالي ومتفارق ؟

إن احوال العالم اليوم - وليس فقط احوال العرب - ليست بخير . تاريخ البشرية واصل الآن إلى نهاية . إما ان تكون نهاية نظام بالكامل ، أو أن تكون نهاية النوع نفسه . الثورة المطلوبة هي أهم انعطاف في تاريخ النوع منذ ظهوره . أقول « ثورة » ، و « الثورة » أكبر من « الاصلاح » ، بطبيعة الحال ، لكنها أكبر بكثير من « انتفاضة » من « اشتعال ثوري » . انها جهد طويل جداً . هل نعتبر انفسنا خارج هذه القضية ؟ هل نعود إلى سلف صالح ، الى مجد قومي ، الى تراث نؤسطره ، عودة مستحيلة عدا ذلك ؟ أم نعود ، في الروح والوعي ، الى مبدأ الانسان وعالمه من اجل مشروع ومستقبلي ؟ ألسنا جزءاً من البشرية ، اليست البشرية جزءاً من تضمّننا ، بل أول تعيّناتنا ؟ قبل عشرين سنة ، كان عبد الناصر لا يرفع فقط ألوية الوحدة الوطنية والوحدة القومية واستقلال الشعوب ، بل أيضاً لواء السلام العالمي والانفراج الدولي .

هل نحن نعتبر الانطواء على الذات رداً ناجعاً على غزو ثقافي ؟ أم نؤمن بأن العالم معقول أي موصول وان الضروري والممكن أن نتملك هذا العالم بالروح ، وعياً وعملاً ؟

- ٦ -

في الواقع ، اننا لم نتملك هذا العالم ، بل ان هذا العالم في وجهه السلبي هو الذي يتملكنا .

ليس فقط أشياء الاستهلاك الغازية التي ذكرت بعض نماذجها الشهيرة ، بل أيضاً الأفكار والثقافة بالمعنى العالي ، ميدان العلوم والآداب والفنون .

لقد ترجمنا مئات أو آلاف الكتب في الآونة الأخيرة ، نقلنا مئات الأفكار ، تكلمنا عن احدث العلوم والبحوث العلمية ، حاولنا اللحاق بمسيرة التقدم المفهومة كمسيرة على خط يتقدم إلى ما لا نهاية . هذه اللانهاية ، حسب هيغل وماركس ، هي اللانهاية السيئة ، الخط المستقيم المتتالي أو لنقل : إنها المحال والعبث . انتقلنا باسم الأحدث ، من موضة إلى موضة : الوجودية ، الماركسية ، ماركسية آخر طراز ، البنيوية ، الانتروبولوجيا الثقافية الخ . المفقود هو الاساس ، والمفقود هو الروح النقدية ، والمفقود هو المشروع القومي والانساني ، القضية الحقيقية .

إن الفكر العربي اليوم ، في معظمه ، مفتقد بآن معاً إلى الفلسفة والى الشعب والى الواقعية . وهو لا يعي ان هذه النقاط الثلاث هي ثلاثة وجوه لموقف واحد . وهذا الموقف الواحد هو أحد أهم وجوه الغزو الثقافي الغربي الأحدث ، سواء أريد لهذا الموقف أن يتراكب مع موقف تقليدي وماضوي وان يمده ببعض المعطيات « العلمية » أو « العلموية » أو أريد له أن يكون رداً على الماضوية والسلفية وما شابه ، ان قسماً من الفكر العربي الحالي يقيم وثنية أصالة ، وقسماً يقيم وثنية حداثة . كلاهما وثنية ، وكلاهما نفي للانسان .

إن الرد على الغزو الثقافي الغربي والصهيوني يتطلب من جانب الفكر العربي موقفاً كلياً من الانسان وتاريخه ومصائره . هذا الموقف الكلي الاساسي هو البديل الحقيقي عن فكرة اللحاق بالغرب ، وعن فكرة تمثل آخر منجزات التقدم . هناك تقدم وتقدم . هناك تقدّم الى الهاوية .

ما نحتاج فعلاً إلى تمثله هو تاريخ الانسان والثقافة الانسانية . هذا التاريخ ليس « آخر منجزات الغرب » .

وان تمثل الجوانب أو العناصر الايجابية في آخر منجزات الغرب يرتكز على الوعي الاساسي الآنف . إن تمثل افلاطون وأرسطو والربيين والرواقيين وأوروبا القرن الثالث عشر والسادس عشر والثامن عشر ، أهم بالنسبة لنا وللبشرية عموماً من السعي الى آخر ابتكارات وفنون العلم الغربي .

وما نحتاج فعلاً إلى تمثله هو تاريخ وطننا وفكرنا وثقافتنا . هذا التاريخ الوطني قديم ، وله من البداية ابعاد كلية ، كونية .

١ - على سبيل المثال ، كما ذكرت آنفاً ، ان بلاد الشام وما حولها كانت هي بؤرة الثورة النيولوتية : هنا، الانسان انتقل من الصيد والأخذ والاتلاف إلى الرعاية والزراعة والمكاثرة ، فصل المنفعة الى مباشرة وغير مباشرة ، فصل فكرة الواقع إلى مباشر وغير مباشر ، هنا جرّد وتجرّد ، استوعى وتوجدن ، عقل وحسب وهندس وجبر . . . غير أن هذا الأمر الخطير الأهمية ابعاده الكلية والراهنة خارج التعليم والثقافة العامة .

٢ - كذلك قضية الدين التوحيدي وموقعه في التاريخ

الانساني وراهنيته والخيارات التي يطرحها في المستوى الروحي والثقافي اليوم ، فهي ليست موضع فهم أو اعتبار . كثيرون يرفعون لواء الدين التوحيدي ، كغطاء لطوطمية اجتماعية ثقافية ، لعرقية مذهبية أو دينية ، لمشروع سياسي حزبي ، اقصد حكومي أو حكومي ـ مضاد .

٣ ـ والتاريخ القومي كله صار موضوعاً لتبرير وتمجيد ودفاع وهجوم متنوع .

٤ ـ المفكرون الكبار في تاريخنا ، من فلاسفة وعلماء وأدباء ، لا يسهمون في تكوين وعينا الراهن ، وعلى هذا ، يجب أن لا نلوم سوى أنفسنا ، وليس التراث نفسه من جهة ولا الغرب من جهة أخرى .

إن مقاومة الغزو الثقافي والاستلاب الروحي تتطلب بعثاً صحيحاً وموضوعياً للتراث الفكري العربي ، من اجل المثقفين ومن اجل الشعب عامة . من العبث أن نرتد على أوروبا الحديثة وان ندعي في الوقت نفسه أن فلاناً أو فلاناً أو فلاناً من أعلام العرب القدامى سبقوا الأوروبيين . هذا الموقف خاطىء في شطرية ، وغير مقنع . هناك دائماً من يسبق السابق . هناك دائماً بداية قبل البداية . كل شيء مهم في التاريخ بدايات ، يُخترع عدة مرات . اذا حللنا الواقع الى عناصر ، الى مادة ، عندئذ يجب القول إنه ليس هناك جديد في التاريخ وليس هناك تاريخ .

المقنع هو أن نبين البذور الكونية الايجابية في تراثنا الماضي وانها بذور لم تنبسط أكثر الى الامام عندنا ، نظراً لانتكاس تاريخنا العربي المستقل ولانطوائنا المتواقت مع انعطاف كبير جداً في تاريخ الانسان ، تحقق في أوروبا ، وسدّ علينا باشكال مختلفة .

التاريخ كله تناقض . والاستقلال ليس رد فعل . لن نبني هوية ثقافية عربية بما قد يتصور البعض أنه رد شامل على الغرب . الذي أسميه الغرب هو مرحلة بل لحظة بالمعنى الفلسفي ، المنطقي التاريخي ، وليس الزمني التعاقبي المجرد والطيراني ، لحظة هامة جداً ، راهنة جداً ، وازدواجية بطبيعة الحال ، في تاريخ البشرية . والثقافة العربية التاريخية الكبرى ليست على طرفي نقيض مع هذه اللحظة . ويجب أن لا ننسى أن الدين التوحيدي ليس البوذية أو ديانات الشرق الأقصى . .

ـ ٧ ـ

أخيراً ، أتقدم بأربعة اقتراحات للتفكير والنقاش .

١ ـ مبدئياً ، فصل الثقافة عن السياسة وعن هذا الذي يسميه الكثيرون الايديولوجية . خلق تواصل ثقافي واع بين أقطار العرب ، بين المشرق والمغرب ، مثلاً ، نقل الفولكلور الشعبي المغربي إلى المشرق ، السعي إلى خلق أغنية للطفل العربي ، الخ يجب انماء الهوية الثقافية العربية عن هذا الطريق المتنوع . يجب عدم التسليم أو الركون لوحدة اللغة أو لوحدة الدين ، كعوامل ضامنة لوحدة الأمة ثقافياً . انها بذاتها ولحالها ، لا تضمن شيئاً .

يجب الانتهاء من خلط الثقافة واللغة ، لصالح الاثنين ، يجب الانتهاء من خلط الثقافة والدين ، لصالح الاثنين .

في الذهن العربي الحالي ، العلاقات والروابط والتداخل وما شابه هي باب للخلط الذي قد يسمي نفسه علاقة جدلية وتفاعلاً ديالكتياً . أريد أن أقول إذاً ان الجدل هو طريقة عمل واعية بالمفاهيم ، والمفاهيم تعني أولاً : الفصل ، الحد ، من لا يريد فصلاً لا يريد معرفة ، يبقى دون المعرفة ، يدور إلى ما لا نهاية في بديهيات مكرورة ، أو بالاصح في أشباه بديهيات باطلة إلى حد لا بأس به .

الثقافة ليست تابعة ملحقة باللغة . والثقافة كما هي ، بتنوعها وثروتها واختلافها ، بين الخليج والمحيط ، يمكن ويجب أن تكون عامل توحيد كبيراً .

٢ ـ ايجاد هيئة عربية مستقلة وذات كيان على نطاق مجموع الأمة تتولى بعث ما يجب بعثه من التراث الفكري ، واصدار ذلك في سلاسل من كتب صغيرة تحوي مختارات أو مقتطفات مع مقدمة وشروح . هذا يتطلب برنامجاً .

ليس من الممكن ولا من الضروري أو المفيد ان يقرأ عشرات الألوف من الناس كذا مجلداً من تاريخ ابن الأثير مثلاً ، لكن من الممكن والضروري أن يقرأ عشرات أو مئات الألوف من الناس كتاب مختارات من هذا التاريخ ، وهكذا الأمر بالنسبة لعشرات ومئات آخرين .

ولا يسعني الا أن أبدي احترامي وتقديري لكل المجهودات الخاصة أو الرسمية التي بذلت في هذا الاتجاه . لكن الأمر يستحق التطوير . يجب أن يتكون محور فكري ثقافي للأمة العربية . هذا المحور لا ينفي التناقضات والاختلافات لكنه أيضاً محور مسائل. والتناقضات يمكن أن تخدمه .

بوجه عام ، يجب ملء الفراغ الروحي والفكري حتى لا يملأه غزو ثقافي لا نريده ، وحتى لا تملأه أشباح ، أشباح الماضي أو هواماته .

٣ ـ ايجاد هيئة عربية « للسيطرة » على عملية الترجمة ، اخراج هذه العملية من التلقائية والعشوائية والتجارة

والسياسات الآنية . أقول « سيطرة » بمعنى اشراف ، لا أقصد إذاً اجراءات منع حكومية . ان اجراءات المنع يمكن أن تؤدي إلى عكس المطلوب . الافكار لا تعامل بالمنع . المنع ليس مجابهة . « السيطرة » التي قصدت خطة توجيه .

العالم ، خارج الوطن العربي ، ليس محصوراً في الغرب . هناك الاتحاد السوفياتي ، الصين ، الهند ، آسيا . لكن هنا أيضاً يجب أن تضطلع بالقضية ، قضية النقل ، هيئة فكرية مسؤولة . ليس الآخرون هم الذين يلامون اذا لم يكن ما يأتينا من عندهم أفضل انتاجهم الفكري أو ما نحتاج اليه فعلاً . المطلوب هو الذهاب والأخذ ، بدلاً من الاستقبال والتلقي . الأخذ مسؤولية تاريخية .

٤ ـ السعي الى حماية وانهاء الهوية الثقافية لملايين المهاجرين العرب ، خارج الوطن . هذا يفترض ايجاد مؤسسات في تلك البلدان لتعليم اللغة العربية ، والاستفادة من مناخ الديموقراطية والاعتراف بالتعددية الثقافية لاحياء الثقافة العربية بين المهاجرين العرب . ومآله انشاء هوية ثقافية قوميةعربية للعرب المجتمعين في فرنسا على سبيل المثال ، أو السعي إلى جمع هؤلاء العرب الآتين من أقطار عربية مختلفة في بوتقة ثقافية واحدة في فرنسا وفي غيرها من البلدان .

هذه ليست عملية سياسية بالمعنى المألوف ، لكن أبعادها السياسية بمعنى آخر واضحة على ما أعتقد .

هذا لا يعني السعي إلى فصل العرب المستوطنين أو المقيمين عن البلدان والمجتمعات التي هم فيها . بل الأمر بالعكس . في الوقت الحاضر يوجد في فرنسا بعض العمال وغير العمال العرب الذين هم في عزلة وغربة عن المجتمع المحيط بهم وهم في الوقت نفسه بلا لغة عربية ولا ثقافة عربية .

ليس اذاً المطلوب ، حسب تصوري ، شن حرب هويات ثقافية ، بل الاستفادة من التعددية المعترف بها في بلدان الغرب لصون أو انشاء أو انماء هوية ثقافية عربية للعرب ، مما يساعد على تلاؤمهم وحياتهم حيث اختاروا أو اضطروا أن يعيشوا ويعملوا . من المؤسف والمؤلم أن يكون لليهود هذا الحضور وهذا النفوذ المعلومان في فرنسا ، وان لا يكون ثمة شيء يشبه ذلك للعرب في فرنسا ، رغم عددهم ورغم كل المزايا العربية الموضوعية التي يجب أن تحول من الموضوعية المجردة ومن الشيئية الميتة إلى الواقعية الفعلية .

لكن هذه القضية تعيدني إلى القاعدة العامة : في الموضوعية المجردة ، العرب كم كبير ، بشراً ومساحة ونفطاً ومالاً وربما اسلحة أيضاً . في الواقعية الفعلية ، الأمر غير ذلك . الواقعية الفعلية ليست « مادة » بل هي معقولية كونية . ان نضع أنفسنا خارجها ، وفي الربع الأخير من القرن العشرين ، هذا هلاكنا .

مواجهة الغزو الثقافي
اطلاق الحريات

منح الصلح

يكفي أن نستعرض بعض الحقوق المعترف دولياً بأنها حقوق الانسان المدنية والسياسية حتى نعرف طبيعة المرحلة التاريخية التي نعيشها كعرب. فحق الشعوب في تقرير المصير مقدس ، وعن هذا الحق ينتج حقها في الاختيار الحر لقياداتها ومؤسساتها السياسية ، وكذلك في السعي إلى تحقيق نموها الاقتصادي والاجتماعي والثقافي .

وللشعوب جميعاً أن تتصرف بثروتها ومرافقها الطبيعية وفي أي حال لا يجوز حرمان شعب من مقومات وجوده وعيشه .

ويقع على عاتق أي دولة أن تلتزم وتضمن حقوق الانسان في أراضيها وتنشىء الأوضاع الدستورية وتتخذ الخطوات القانونية على هذا الأساس ، وعليها أن تعوض على كل من يمس في حقوقه أو حرياته كائنة ما كانت الجهة التي باشرت هذا المساس .

والمرأة والرجل متساويان في الحقوق السياسية والمدنيّة .

ولكلّ انسان الحق في الحياة ، وفي البلدان التي ما لا يزال فيها الاعدام مشروعاً ، ينحصر حق الحرمان من الحياة في الجرائم الكبرى ، وهو يعود للمحاكم وحدها .

ولا يجوز اخضاع أحد للتعذيب أو المعاملة اللاإنسانية ، أو التشغيل بالسخرة ، عقاباً أو استغلالاً .

ولكل فرد الحق في الحرية والأمن ، ومن يتعرض للتوقيف غير القانوني يملك حق التعويض عليه .

والأشخاص المحرومون من حقهم بسبب مشروع يعاملون بانسانية وكرامة .

والغاية من أي نظام جزائي هي اصلاح المجتمع وتأهيل المحكومين لمعاودة الحياة الاجتماعية .

ولكل شخص حرية اختيار اقامته ، وله حرية ترك وطنه ، اذا لم يتعارض ذلك مع الأمن القومي أو القيم الوطنيّة .

ولا تملك السلطة حق نفي شخص أو تجريده من جنسيته ، إلا في حالات مخصوصة ومحصورة .

والأشخاص جميعاً متساوون أمام المحاكم .

ولا يجوز اعتبار فرد ما ، مذنباً اذا هو قام بعمل لم يكن يعتبر ذنباً قانونياً عند القيام به .

والمفروض الا يجري أن تدحل في حياة أي فرد الداخلية أو عائلته أو مراسلاته ومخابراته ، أو التشهير به .

وكل شخص يملك حق الحرية في الفكر والعقيدة والدين وله أن يعتنق ويغير فكره وعقيدته .

ولكل فرد حرية التعبير عن فكره ، وحرية الوصول إلى الاخبار والمعلومات وتوزيعها ، دون اعتبار للحدود الجغرافية ، وبكل الوسائل .

وحق الالتقاء يجب أن يكون مصوناً ، ومرخصاً ، بالقانون .

وكذلك حق الانتظام مع الآخرين في هيئات ، بما في ذلك حق اقامة النقابات .

ولكل فرد ، بقطع النظر عن معتقده ، الحق في أخذ قسطه في ادارة الشؤون العامة ، وفي أن ينتخب ويجري انتخابه .

وفي حالة وجود أقليات عنصريّة دينية أو لغويّة لا ينتقص ذلك من حق أي فرد من أفرادها .

تلك هي بعض الحقوق المدنية والسياسية المعرّفة دولياً بأنها جزء من حقوق الانسان .

ونجد ما هو أكثر منها في شريعة حقوق الانسان وملاحقها المختلفة ، وقد صدرت مراجعها من عام ١٩٤٨ الى عام ١٩٧٨ .

ونجد في الفصل العاشر من القانون الأساسي لجمهوريات الاتحاد السوفياتي الاشتراكية الذي عقد في عام ١٩٦٦ مادة تقول (وهي المادة ١٢٥) انه انسجاماً مع مصالح الشعب العامل ورغبة في تدعيم النظام الاشتراكي ، يضمن القانون للمواطنين أولاً: حرية القول. وثانياً: حرية النشر. وثالثاً: حرية التجمع بما في ذلك حرية الاجتماعات الجماهيرية ورابعاً : حرية المواكب والمسيرات الشعبية .

وقد جاءت هذه المادة بعد مواد أخرى تقول بحق العامل في العمل وفي الأجر حسب الكمية والنوع ، كما تقول بحق العامل في الراحة والاستمتاع وبحق التعليم وبحق مساواة المرأة للرجل وبالحقوق المتساوية للمواطنين ، بقطع النظر عن عنصرهم وقوميتهم ، وبضمان حرية المعتقد للمواطن عن طريق فصل الكنيسة عن الدولة ، وفصل المدرسة عن الكنيسة .

وواضح من كل ما تقدم أن مفاهيم حقوق الانسان والحريات وان كانت قد ولدت في الأصل في البيئات الليبراليّة الغربية الا أنها تطورت مع الزمن .

ففي البدء كان مفهوم الحرية مطبوعاً بالتشديد على وجوب عدم تدخل الدولة ، فالذي يحكم أقل هو الذي يحكم أفضل .

أما حالياً فالنظرة مختلفة إلى موضوع الحرية . والتركيز منصب على واجب الدولة في أن تجعل من الحرية فرصة وقدرة في يد المواطن . وذلك لا يأتي الا بخلق الشروط السياسية والاجتماعية والاقتصادية الملائمة لممارسة الفرد لحقوقه .

والمهم ، من زاوية الحقوق المدنية والسياسية للمواطن ، ان يبقى في يده حق تغيير أشخاص الحاكمين من خلال انتخابات نزيهة ، وان يكون الحكم للأكثرية الانتخابية ، مع ضمان حق الأقلية في أن تصبح أكثرية من خلال ممارسة الحقوق المدنية والسياسية ، وان تتعدد الأحزاب ليكون الخيار مضموناً .

واذا نظرنا إلى وطننا العربي من زاوية مفهوم الحريات الأصلي والمتطور نرى أن الصورة غير مشرقة عموماً .

ويكاد يصح القول ان الأنظمة العربية هي نظام عربي واحد من هذه الزاوية ، وان تفاوتت في حسّها القومي وتحرّكها الوطني .

فقد نجح المستعمر ثم الامبريالية في أن يصعبّا مهمة الطبقات التي جاءت الى الحكم مع الاستقلال بشتى الطرق ، أهمها السهر على تفوق اسرائيل ، وتوظيف هذا التفوق في المجالات السياسية والعسكرية والاجتماع والاقتصاد والثقافة معاً .

إن التفوق الاسرائيلي المحروس من الولايات المتحدة الأمريكية هو حجر الزاوية في أزمة الحريات في البلاد العربية .

والشاهد الأوضح على ذلك هو سقوط محاولة السادات لجعل الديموقراطية غطاء لسياسة التسليم بالتفوق الاسرائيلي .

فالفرضية التي قام عليها حكم السادات هي انه بالامكان صنع نوع من الديموقراطية قابلة الاستخدام لتمرير اتفاقية كامب دايفد .

ولكن سرعان ما تبين أن الديموقراطية والمهادنة مع اسرائيل هما ضدان لا يجتمعان ، وقد اضطر السادات الذي كان يتباهى في أول عهده ببعض المظاهر الليبرالية لأن ينتهي إلى سياسة قمع للحريات من أسوأ ما عرف التاريخ المصري المعاصر .

فسياسة التسليم بأبدية التفوق الاسرائيلي التي أطلقها السادات ليست سياسة دفاعية بنظر الصهيونية والولايات المتحدة ، وانما هي سياسة هجومية تعني أن تكون اسرائيل في موقع ممتاز يسمح لها بمراقبة النمو القومي في شتى نواحي الحياة والاشراف عليه والتحكم به والسهر على استمرار البلاد العربية إلى الأبد في وضع المتخلف المُسْتَغَل مع كل ما ينطوي عليه ذلك من العداء الخاص لكل تحرك سياسي ذي طابع ديموقراطي حقيقي ، وعلى الأخص حركة الوحدة العربية .

ومن الطبيعي أن تكون هذه المراقبة وهذا العداء موجهين إلى جميع أقطار العربية بدون استثناء ولكن من الطبيعي كذلك أن يكونا موجهين إلى مصر بالدرجة الأولى لا لوزن مصر وامكاناتها البشرية والمادية والحالية فحسب بل لأن مصر بحكم مشاكلها الاجتماعية وقوة توجهها العربي وبحكم تراثها الوطني مهيأة لأن تكون عاجلاً أم آجلاً الخزان الثوري الأول في المنطقة العربية ومركز الخطر الرئيسي على اسرائيل .

والطموح الاسرائيلي الى صدّ النمو العربي لا يقف عند حدّ ، فالمشروع الأساسي الذي لا يطمئن الاستعمار والصهيونية الا بقيامه هو مشروع تحول المنطقة العربية بأسرها إلى منطقة كيانات فاقدةالنزوع لا الى الوحدة العربية فحسب بل إلى الحياة الوطنية بمفاهيمها البسيطة أيضاً .

وفي وجه الوطن الذي يطمح العرب الى استكمال مقوماته في كل قطر من أقطارهم ان لم يطمحوا الى امتداده على طول الأرض العربية في صورة وطن عربي واحد وكبير ، يطرح الاستعمار والصهيونية نموذج الكيان .

والظاهر أن القوى المعادية قد أدركت أنه لا سبيل إلى لجم هذه المنطقة العربية بحجم امكانياتها غير المحدودة ، ووزن

طاقاتها وعراقة انتمائها إلى صلب التاريخ الانساني ، الا بتقديم (الكيانية) إلى الشعب وطنية مزورة تحل محل الوطنية .

إن تجزئة البلدان العربية إلى دول لا تستطيع بذاتها أن تحطم أشواق الشعب إلى بناء أوطان تتحسس بالكرامة والتجزئة بذاتها لا تستطيع أن تصرف الشعب نهائياً عن الالتزام القومي وعلى الأخص الفلسطيني ، فلم يكن بدّ من تجاوز التجزئة الى ما هو أبعد وأعمق منها ، أي إلى تزييف المفهوم الوطني عند المواطنين وجعل عصبيّة الكيان هي العصبيّة البديلة لعصبية الوطن عن طريق الايحاء بأن الكيان هو الوطن نفسه ، مع أن الكيان هو في الحقيقة شيء والوطن شيء آخر . فالكيان هو مشروع دولة مفرّقة ترفض أن تجعل من الالتزام الوطني أساساً لها وترفض النتائج المنطقية للانتماء الى وطن وتسعى لأن تقيم العلاقات بين المواطنين على أساس المصالح الفردية والفئوية المجردة عن المصالح القوميّة أو على أساس الأوهام والعصبيات والعنصريات ذات الطابع الانقسامي والنموذج للكيان يتضمن ملامح تكاد تكون ثابتة .

فالكيان يتعلّق برموز السياسة والسلطة وأشكالها لا بالسيادة ولا بالسلطة ، والكيان يعتمد بالضرورة في حماية نفسه على ضمانة أجنبية .

والكيان يحتفظ أو يتجنب نهائياً اقامة قوة ذاتية على أي صعيد ، وعلى الصعيد العسكري بنوع خاص .

والكيان يقوم على دستور غير مكتوب قوامه حلف عشائري أو عنصري أو ما يشبه الحلف العشائري والعنصري من طائفي وغيره .

والكيان اعتذاري بطبيعته أمام كل دعوة له بالتزام قومي وحدوي أو تقدمي مستنداً في اعتذاره الى وضع خاص .

والكيان في النهاية استقالة من الانتماء الفعلي والحار إلى أية قضية ، وانضمام كامل وغير مشروط إلى عالم المصالح وقوى النفوذ والعنعنات الطاغية .

والكيان حساس إزاء « الخطر العربي » أو « الخطر الجماهيري » وواثق بالأجنبي المستغل والرأسمالي .

إن القوى المعادية للأمة العربية تريد أن تجعل سياسة الالتحاق بسياسة اسرائيل خطوة حاسمة في تحقيق انتصارها الكامل ، وهي اليوم تبدو أشد تعسّفاً وتصلّباً منها في أي وقت مضى ، ولم يعد يرضيها ما كان يرضيها بالأمس .

إنها تلاحق اليوم مشروع منطقة الكيانات بكل ما أوتيت من قوة .

اذاً ففي سيادة المنطق الكياني والأوضاع الكيانية لا يموت فحسب عصب المقاومة في البلاد العربية ، وينضب محرك التنمية السليمة ، ويشل الطموح القومي والوطني بكل أبعاده ، بل يتحقق ما هو أخطر من ذلك : مساواة أخلاقية وحضارية في حق الوجود بين اسرائيل والعروبة . فاسرائيل المقدر لها ان تبقى إلى الابد في مستوى كيان تشعر بأنها لا تستطيع الصمود إلى آخر المطاف في وجه المنطق الوطني والقومي للشعب العربي ، لذلك تحرص ومن ورائها الاستعمار على اقامة (منطقة الكيانات) التي يزول فيها الفرق النوعي بين الوجود الاسرائيلي والوجود العربي ويسقط معه التفوق الأخلاقي والحضاري للجانب العربي ولا يبقى اعتبار الا لعامل التفوّق المادّي والتقني والسلطوي البحت .

هذه غاية ما يسمّى بسياسة الحل السلمي ، ومعنى ذلك ان معاداة هذه السياسة لا بد أن تكون في مستوى التحدّي ، اذا ما هي أرادت أن تخرج منتصرة .

وهي لا تكون في هذا المستوى الا اذا نفذت إلى جوهر هذا الحل ولم تفهمه على أنه ورقة تأتي من موسكو وواشنطن أو لا تأتي أو مفاوضات تجري بين حكومة أمريكية وروسية وحكومة عربيّة .

فالحل السلمي هو عملية تكريس لمعادلة قوة والمعادلة هي : دولة صهيونيّة أقوى من الأنظمة العربية وأنظمة متفوقة على الحركات الشعبيّة .

والمصير اليوم هو احد المصيرين لا ثالث لهما : إما حركة تحرير عربي بضمير فلسطيني حاد يرفعها إلى مستوى الثورة الكاملة ، وبالتالي إلى مستوى القدرة على التحرير ، واما استمرار الوضع « السلمي » على حاله : أنظمة يتحكم بها تفوق اسرائيلي وحركة شعبية تتحكم بها الأنظمة ، وبالتالي تتاح أمام الصهيونية والاستعمار فرصة لانجاح مشروع « منطقة الكيانات » .

إن الطمع غير المشروع عند بعض الأنظمة في الفصل بين العمل الفدائي وحركة التحرر العربي انما المقصود به لا مجرد التخلص من العمل الفدائي أو تصغير حجمه المادي والمعنوي ، على أقل تقدير ، بل المقصود به العودة إلى تلك الفترة المريحة قبل بزوغ العمل الفدائي ، حين كانت سياسة الاستعمار وسياسة الأنظمة تلتقيان ، على بعدهما الواحدة عن الأخرى ، عند شيء أساسي هو المحافظة على فارق القوة القائم بين اسرائيل والأنظمة العربية أولاً ، وبين الأنظمة العربية والحركة الشعبية ثانياً .

والمحافظة على فارق القوة (الاسرائيلي ـ العربي في الخارج ، والحكومي ـ الشعبي في الداخل) هي الوسيلة بل هي الصورة المجسدة لبقاء حركة التحرر العربي في وضع « الثورة القزمة » المحرم عليها أن تنمو الا بمقدار .

لقد كانت سياسة الاستعمار في المنطقة العربية ، منذ أن وجدت اسرائيل بل قبل أن توجد ، هي سياسة المحافظة على فارق القوة هذا . وعلى الرغم من انها متضمنة في جميع تصرفات الاستعمار نحو المنطقة ، فأبرز مثل مادي عليها موقف الغرب في موضوعي التسلّح والقروض ، هذا الموقف الذي لم تلجأ الدول الغربية فيه إلى التستر ، فكانت تعلن أنها تتشبث بميزان قوة محدد بين اسرائيل والعرب ، وان كل شيء في سياستها يمكن أن يتغير ما عدا تشبثها هذا . وعندما كانت تريد أن تراعي الشعور وتتلطف في عرض موقفها كانت تقول إنها انما تفعل لأنها تخشى على اسرائيل من عدوان عربي عليها ، ولكن مثل هذا التبرير لم تكن تتلفظ به في أغلب الأحيان .

وكان تجنب معظم الأنظمة اتخاذ تحرير فلسطين مبدأ لها ضرباً من الاعراب عن عدم الرغبة في الوصول بحركة التحرير العربي إلى مستوى معين من الجذرية في السعي لقلب ميزان القوة في المنطقة .

وما كان يبدو في الظاهر أنه مجرّد تأجيل للمعركة مع اسرائيل كان في حقيقته مهادنة وتسوية مع الاستعمار والرجعيّة ، قوامها طمأنتها على أن التغييرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تقوم بها الأنظمة لن تصل إلى حدّ التهديد الفعلي لفارق القوة ، أي انها في جوهرها ستبقى دفاعية وليس للاستعمار والرجعية ان يتعسفا فينظرا الى الاستقلالات العربية التي تتم ، والاصلاحات التي تجري ، والتنمية والتسلح ، على أنها أكثر من مشروع للعيش الكريم تطالب به بحق أمة مجيدة مظلومة .

وبشكل عام ، وبدرجات متفاوتة ، كان هناك قبول عربي رسمي للعمل من ضمن اطار فارق القوة هذا ، أي تقيّد بمنطق الحل السلمي ، فباستثناء بعض الأعمال التاريخية الباهرة كفكّ حصار الأسلحة الغربي عن سوريا ومصر وتأميم القناة ، وكالوحدة السورية ـ المصرية ، لم تظهر ظواهر تمرد عربي رسمي حقيقي على هذا المنطق . واذا كانت السياسة الخارجية للدول العربية التقدمية قد اتسمت بنوع من التحررية الدفاعية ، فان سياستها الداخلية على الصعيد الشعبي وعلى الصعيد العسكري لم تكن سياسة من يضع اسرائيل نصب عينيه ، ولم تتحرك من منطق ردم فارق القوة بين العرب واسرائيل ، وكان يرضيها أن تقارن بين نفسها وبين الرجعيّة وان تنال انحياز الجماهير اليها على هذا الاساس ، بدلاً من أن تقارن نفسها بالعدوّ أيضاً .

إن المطلوب الآن هو التمرد على فارق القوة ، أي على جوهر الحل السلمي عن طريق عمل تتوفر فيه شروط التماسك القومي ، والتعبئة الديموقراطيّة الشعبية وتوضع فيه مجموع طاقات الجماهير والاقطار في مواجهة اسرائيل .

وهنا تأتي الوظيفة القومية للحريات في الوطن العربي ، فبدون هذه الحريات لا إمكان لضرب المعادلة التي تحكم حالياً الواقع العربي . كما أنه بمهادنة هذه المعادلة لا امكان لوجود الحريات بالمعنى الصحيح .

إن جوهر القضية العربية في الوقت الحاضر هو قضيّة فلسطين .

فالتوجه اليها هو شرط التحرر السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، وهو طريق السلطة الشعبيّة الحقيقيّة .

وقد وصلت ديموقراطية الانفراج التي نادى بها السادات في أول عهده الى طريق مسدود ، لأن المطلوب تاريخياً وقومياً هو ديموقراطية التعبئة لا ديموقراطية الانفراج .

واذا كنا نريد أن نكون واقعيين في فهم شعبنا ، فعلينا أن نعترف بأن حديث الحريات ، على قدمه في وطننا العربي ، لم يخلق قناعة ديموقراطية حقيقية على المستوى الشعبي الواسع إلا عندما اقترن بالمعركة القومية .

ولدت الديموقراطية في وطننا ولادة شعبية حقيقية ، أي ولادة في الجماهير ، عندما شعرت هذه ، والأنظمة العربية تعلن الحرب ثم توقفها ، بأنها مبعدة ، فاقدة القدرة على التأثير .

منذ ذلك الوقت ، انغرست الديموقراطية في عواطف الجماهير وقناعتها ، لأنها أطلت عليها من جانبها الأرقى وطنياً وانسانياً ، جانبها كصيغة عطاء وتضحية ومواجهة مسؤولة للمصير . وفي الدقيقة التي انحجب عن أعين الجماهير كل الحقوق والنعم المرافقة عادة للفطنة الديموقراطية ، وأصبحت المطالبة بحق الموت هي كل شيء ، ورفضت الأنظمة اعطاء الشعب هذا الحق ، تجاوزت الديموقراطية مرحلة الخطر الكياني على وجودها ، وتحوّل كل مقاوم لها إلى دفاعي قد ينجح في تأجيل قيامها أو تزييفها ، لكن يستحيل عليه أن ينتصر عليها ، لأن الجماهير لن تفهم هذا الانتصار بعد اليوم على أنه انتصار على مصالحها وحقوقها فقط ، بل على أنه انتصار على القيم نفسها أيضاً .

لقد طلبت الجماهير الموت فلم تعطه . لكن كسبها العظيم كان انها عبر هذا الطلب اتصلت للمرة الأولى بروح الديموقراطية وضمنت هذه الروح رفيقاً لها في التاريخ .

لقد كان سقوط الانظمة ، في أعين الجماهير ، بعد تكرار الهزائم العربية ، سقوطاً ديموقراطياً قبل أن يكون سقوطاً عسكرياً أو تقنياً أو أي شيء آخر .

فقد اسقطت الجماهير أدبياً أنظمتها لا لأنها لم تربح المعركة ، بل لأنها لم تدخلها في المعركة ، وكان شعور الجماهير بفقدان الدور في معركة المصير هو الهوة الأساسية التي انفتحت بين الاثنين والتي يستحيل أن تردم بعد اليوم ما دامت الأنظمة غير قادرة على تعبئة الجماهير في الحرب ضد اسرائيل .

وقد تغفر الشعوب لمن يبعدها عن صناديق الاقتراع ، لكنها لا تغفر لمن يبعدها عن ساحة الموت في الدفاع عن وطنها .

وهي تتساءل ، وقد اكتسبت وعياً جديداً : كيف يعقل أن تسلمها الأنظمة السلاح لتقاتل العدو بينما هي تخاف من أن تسلم لها بالحق في الكلام ، في التعبير عن الرأي ؟

وقد وصلت إلى قناعة تحميها في آن معاً ممن يعدونها بالسلاح ولكن يطالبونها بالتنازل عن حقوقها الأخرى . وممن يلوحون لها بالحقوق ، ولكن يطالبونها بالقاء السلاح ، وهذه القناعة هي أن المطالبين كل لا يتجزأ .

لقد كان من الصعب جداً أن يكون التبشير بهذا المفهوم للديموقراطية مسموعاً لدى الجماهير لولا ممارستها الفعلية لتجربة البعد بينها وبين السلطة أثناء المعركة .

بل لظلّ أثر هذا التبشير ضعيفاً لو بقيت الجماهير لا تتعرف من الديموقراطية الا على وجوهها المادية المربحة .

ولكن الهزيمة وما رافقها أزالت كثيراً من الحواجز من وجه المفهوم الحقيقي للديموقراطية وجعلته حقيقة قريبة التصور .

إن من أبرز وجوه كمال المعركة العربية ضد اسرائيل أنها تخيّر العرب بين ضرورتين لا ثالث لهما : إما السلم ، الاستسلام للعدو ولكل القوى والعوامل السلبية في الواقع العربي . واما الثورة ، أي استخراج طاقات الأمة العربية وانمائها من خلال مواجهة مسلحة للعدو . وليس يكفي في ذلك حتى الحرب لأن الحرب هي جزء من الثورة والثورة هي الكل .

لا تعبئة سليمة ضد اسرائيل وضد أي مؤامرة الا عن طريق الديموقراطية .

ولا ديموقراطية حقة الا تلك التي تجعل التعبئة محركها ومحتواها .

والفرق بين اليوم والأمس هو أن الجماهير أصبحت تعرف بالاختبار والمعاناة معنى شعبية نظام ما أو منظمة ، وهي في حالة استعداد للاستجابة للأصوات الصادقة .

لقد اتخذ البعض من مظهر اللامبالاة الذي ظهرت به الجماهير العربية في بعض الحالات مبرراً لاتهام هذه الجماهير باليأس أو التشاؤم .

والحقيقة أن هذه اللامبالاة هي في أعماقها دليل نضج .

إن الجماهير العربية ـ وخصوصاً من عدم انقيادها الكامل لقياداتها الطبيعية ، وحتى لقياداتها الوطنية ـ تعبر لا عن مجرّد شعور بأن الجديد يجب أن يكون جديداً بالفعل كي تعطيه قلبها الكامل بل عن تشبثها بصفات معينة تريدها في قيادة المرحلة الجديدة . والمؤمنون بضرورة دخول هذه المرحلة يعيشون وحدة فكرية قاسية تتمثل في كونهم يشعرون بأن عليهم وحدهم أن يجدوا طريقهم ، وفي كونهم لا يستطيعون أن يقوّموا خطاهم عن غير طريق عقلهم الخاص ، لأن أكثر القوى والمؤسسات والمنظمات الموجودة في الوطن العربي تعيش هموم وترسبات وحزازات مرحلة سابقة وترسباتها وحزازاتها ، ولأنها اذا امتدحت كفاح غزة والعمل الفدائي أو القوى الجديدة فعن تزلف وتقرب وتطهر ، واذا انتقدت فعن مزايدة وتنصل من مباشرة العمل .

ولا يمكن أن يولد هذا الشيء الايجابي إلا من مؤمنين صادقين بأنه في ظل التراجع لا يمكن بناء التقدم ، وبأن الجرأة في مواجهة أعداء الأمة هي التي تخلق الوحدة في الأمة ، ولا معنى في النهاية لأي ديموقراطية ولا دليل على سلامتها الا فيما توجده من مناخ ووسائل لتكوين وحدة جماهيرية متماسكة تعيش حياة النضال وتستلهم منه القدرة على الصمود والتجدد والانتصار وصنع الحرية .

أما اليوم فالديموقراطية وتوأمها الحرية هي مطلب الجماهير العربية الأشد الحاحاً وهي مسؤولية الحكام العرب في كل مكان .

منح الصلح

بيروت

أبناء النار وأبناء الماء

ملاحظات حول قضية التواصل الثقافي بين العرب والغرب

احمد ابراهيم الضفيخ

تشير ورقة العمل الفكرية التي أعدتها اللجنة التحضيرية لهذا المؤتمر الى جوهر القضية التي نعالجها اليوم وهي أن « الأمة العربية في أمجد لحظات القوة الحضارية لم تتوقف قط عن التفاعل الخصب الخلّاق مع الحضارات والأفكار الأخرى » ، هذه حقيقة « ولكن التفاعل من موقف القوة » تضيف ورقة العمل مشيرة إلى واقع الحياة الثقافية اليوم « تختلف نتائجه جذرياً عن التفاعل من موقف الضعف ، حيث لا يكون هناك تفاعل حقيقي بل نصبح في حالة استقبال سلبي ومجرد صدى بلا صوت أصيل يتبادل الأخذ والرد »[1] ، هذه هي القضيّة المطروحة أمامنا اليوم ، والسؤال الآن هو : إلى أي مدى نحن قادرون على خلق مناخ يسمح باعادة هذا التفاعل الحقيقي بيننا وبين ثقافات الأمم الأخرى ، وبالذات مع الثقافة التي أنتجتها حضارة الغرب والتي أعطت هذا العصر طابعه والتي سوف نعتني بتناولها في هذه الملاحظات ؟ ثم هل في ظروفنا (وبالذات واقع التجزئة الذي تعيشه أمتنا) ما يسمح بأن نمدّ الجسور ونبني علاقة جديدة قوامها الاحترام المتبادل والمنفعة المتبادلة ومن موقع الفاعلين أخذاً وعطاءلا المستقبلين سلباً واستلاباً ؟

ثم ما هي الخصائص ـ ونحن نسعى لتقديم وجهنا الفكري والثقافي والحضاري الى الشعوب الأخرى ـ ما هي الخصائص في ثقافتنا المعاصرة التي يمكن أن تكون اضافة للفكر الانساني في عالم اليوم يجد فيها أبناء الشعوب الأخرى شيئاً يرضي حاجتهم ويكمل شيئاً ينقصهم ويثري مسيرة الفكر والثقافة لديهم ، ليتحقق بذلك شرط التكافؤ والمنفعة المتبادلة بين ثقافتنا وثقافة الآخرين ؟

واذا كان بالامكان خلق ذلك المناخ الصحي للتفاعل الثقافي ، واذا كان بالامكان أيضاً وبرغم واقع التجزئة السياسي ، أن نقف كثقافة عربيّة ذلك الموقف ، واذا اهتدينا الى العناصر المجيدة في ثقافتنا التي يمكن أن تكون اسهاماً واثراءً لحضارة اليوم ، واهتدينا أيضاً الى العناصر التي لا نتناقض معها في ثقافة الغرب التي يمكن أن ننشىء معها حواراً ونبني معها علاقة تواصل وتعاون ، فكيف السبيل بعد ذلك إلى خلق الوسائل والأدوات التي تصل بنا إلى تحقيق هذه النتيجة وتوصيل هذه الرسالة وخلق هذه العلاقة الجديدة الكريمة التي تقوم على انقاض علاقة قديمة ظالمة ؟

ولنبدأ القول بأن ضرورة انشاء هذه العلاقة وبناء جسور هذا الحوار تأتي من أنه ضرورة لحياة أية أمة ووجودها ، فلا حياة لأمة تعزل نفسها وتبني أسواراً حولها ، لأن معنى ذلك انسحابها من العصر بدلاً من تأكيد انتمائها اليه . ان هذا الحوار الذي يقوم بين الثقافات هو الذي يعمل على تعزيز التفاهم بين الشعوب وارساء روح الإخاء والصداقة بينها وتأكيد فرص السلام وابعاد كوارث الحرب والغاء أسباب العداء التي غالباً ما تخلقها روح الجفاء والعزلة والانكفاء على الذات والانانية والتظاهر بالاستغناء عن الآخرين . وتأتي ضرورة هذا الحوار أيضاً من كونه قيمة من القيم الاساسية التي نشأت عليها ثقافتنا ﴿ وخلقناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا﴾ الآية . وتأتي ضرورته مرة أخرى من كونه أحد الجوانب الأساسية لاثراء ثقافتنا ذاتها واغنائها ، فهو عامل مهم من العوامل التي نحتاجها لتحقيق النهضة التي ننشدها لأمتنا ، بل ان الحضارة الانسانية ذاتها ما كان لها أن تتواصل وان تنمو وان تصل إلى ما حققته من انجازات لولا هذا التفاعل الحضاري وهذا الحوار المتواصل بين الثقافات وهذا التبادل النافع لثمرات العقل الانساني بين شعوب الأرض الذي يحقق لعملية التدرج الحضاري ما تحتاجه من تمازج وتزاوج وتلاقح واخصاب ،

فالحضارة بحسب ما يقول ارنولد توينبي « انما هي حركة وليست حالة ، انها رحلة بحرية وليست ميناء »[٢] . إننا بهذا الحوار وحده يمكن أن نتعلم جميعاً كأعضاء في الاسرة الانسانية وكرفاق في رحلة واحدة ما يسميه برتراند رسل « الشعور بالمصلحة العامة للجنس البشري »[٣] .

ثم لنبادر بالقول ان هذا التواصل هو أصلاً موجود ، وهو شئنا أم أبينا سيظل موجوداً ، لأنه لا يمكن لشعب من الشعوب أو وطن من الأوطان أن يستغني عن حاجته لبقية زملائه في الاسرة الدولية ، فنحن لا نطالب باستحداث شيء هو أصلاً موجود وقائم ومتمثل في مختلف مظاهر الحياة من حولنا ، ان ما نريده اليوم هو وضع قاعدة لهذا الحوار بحيث نجعله قائماً على مبدأ التكافؤ ، على مبدأ الانداد ، وليس علاقة الأقوى بالاضعف كما أشرنا سابقاً ، ومن اجل تحقيق هذه الغاية فانه لا بد من البحث بجد ومثابرة عن كل عناصر القوة في ثقافتنا العربية القادرة على تحقيق هذا التوازن في حوارنا مع الثقافات الأخرى ، لكي نأتي إلى هذا التواصل ونحن مسلّحون بأمجد ما في تراثنا الحضاري من قيم ، ان في الثقافة كما في الحياة عناصر تبقى وتنمو وعناصر تذوي وتموت ، ونحن لا بد أن نكون مسلحين بهذه العناصر المجيدة الباقية لتأكيد هويتنا الحضارية من جهة ومن جهة أخرى لكي لا يبقى دور هذه الثقافة معطلاً كما ارادت له قوى الغزو الامبريالي والصهيوني أن يكون . اننا على ثقة من أن شيئاً من هذه الثقافة ما زال مشعّاً ومتوهّجاً وقادراً على أن ينير دروباً جديدة أمام انسان هذا العصر ويشارك في انقاذه من المأزق الحضاري الذي أسهمت جوانب سلبية من الثقافة الغربية (سنأتي على ذكرها فيما بعد) في أن تسوقه اليه .

إن شيئاً من ثقافات الشعوب الأخرى التي تشاركنا الحياة فوق هذا الكوكب له حضوره في ثقافتنا ، فبرغم أن لكل أمة خصائصها الثقافية التي صنعتها عوامل تاريخية وبيئية واقتصادية واجتماعية وجيوبوليتيكية فانها أيضاً جزء من هذا الهضم والتمثل لعناصر جاءتها من ثقافات أخرى ، وان شيئاً من ثقافتنا ، باعتبارنا أمة لها اسهامها في الحضارة الانسانية ، له وجوده المستمر في ثقافات تلك الشعوب . ان نظرة سريعة إلى تاريخ هذا التفاعل الثقافي بيننا وبين الأمم الأخرى تجعلنا ندرك الى أي مدى كان هذا التلقيح الثقافي صاحب الفضل الأول في التمهيد لحضارة العصر الحديث . فمن واقع القوة ذهبت الحضارة العربية لاستقطاب واستيعاب عصارة الحضارة اليونانية السابقة لها ، وباشر العرب فور تأسيس دولتهم الى ترجمة الكتب الفكرية والفلسفية التي ألّفها افلاطون وارسطو وكتب الطب وفروعه لأبوقراط وجالينوس وكتب الرياضيات والفلك والعلوم الأخرى لاقليدس وارخميدس وابولونيوس وبطليموس وغيرهم من علماء ومفكرين وفلاسفة وموسيقيين ، وبلغت حركة النقل والترجمة أوجها عندما تأسس في بغداد وتحت اشراف الخليفة المأمون بيت الحكمة (عام ٢١٧ هـ ٨٣٠ م) وتم اختيار العلماء والباحثين ممن لهم خبرة بالترجمة عن تلك اللغات وتم جلب الكتب من مختلف اركان الأرض « وكان من آثار هذه الترجمة أن بدا الفكر العربي الاسلامي يطرق موضوعات جديدة ويجوب ميادين لم يطفها من قبل »[٤] . ولم يقتصر النقل على التراث اليوناني (وان كانت اليونانية هي أهم اللغات التي تم عن طريقها النقل) وانما نقل العرب جوانب من تراث الهند عن طريق اللغة السنسكريتية وترجمت كتب في الطب والفلك والرياضيات والتاريخ والأدب كما انهم لهم الفضل في نقل تراث من لغات اندثرت مثل اللغة النبطية التي تذكر المراجع أن أكثر من ١٥ كتاباً قد ترجمت عنها[٥] ، وكان لحضارة الفرس وآدابها ممثلوها في الحضارة العربية الذين نقلوا كتباً لاثراء الثقافة العربية وقد قام عبد الله بن المقفع بالدور الريادي في ترجمة أشهر ما في التراث الفارسي من أعمال مثل « كليلة ودمنة » وكتاب « الأدب الكبير» وكتاب « الأدب الصغير» وكتب أخرى عن تاريخ الفرس[٦] ، وقد تم في مرحلة متأخرة عن تلك الفترة ترجمة كتاب الشهنامه التي نظمها الفردوسي[٧] على نسق الياذة هوميروس وتذكر المراجع استفادة العرب من النصوص العبرانية واللاتينية والقبطية . وهكذا فقد نقل العرب إلى لسانهم « معظم ما كان معروفاً من العلم والفلسفة والطب والنجوم والرياضيات والأدبيات عند سائر الأمم المتمدنة في ذلك العهد ولم يغادروا لساناً من ألسن الأمم المعروفة اذ ذاك لم ينقلوا عنه شيئاً »[٨] فكأنهم على رأي مؤلف « التمدن الاسلامي » : « ورثوا أهم علوم الأشوريين والبابليين والمصريين والفرس والهنود واليونان وقد مزجوا هذا كله وعجنوه واستخرجوا منه علوم التمدن الاسلامي »[٩] . أضف إلى النقل والترجمة اختلاط العرب في حياتهم اليومية بهذا الخليط من الأمم والاجناس بمختلف عاداتهم وتقاليدهم وتنوع أساليب معيشتهم وانماط سلوكهم . وكان طبيعياً أن تنصهر كل تلك العناصر في بوتقة الحضارة الجديدة وان تصبح اللغة العربية هي لغة العلم والثقافة والمعرفة وبدأت عملية التمثّل والهضم والاستيعاب لكل تلك الموروثات الحضارية تأتي بنتائجها وظهرت فلسفة عربية اسلامية لها خصوصيتها وتفردها واضافتها الخاصة للتراث الفلسفي الانساني وصار للعرب مدارسهم الفكرية الخاصة بهم وعرفت الدنيا نتاجات الفارابي والغزالي

وابن رشد وابن طفيل والكندي وابن مسكويه وابن باجه وابن حزم وغيرهم من أساطين الفكر والفلسفة ، وفي مجال الطب بدأت تظهر للعالم اضافاتهم بعد أن طوروا ما درسوه ونقلوه من الثقافات الأخرى وظهرت هذه الرموز الخالدة في تاريخ البشرية أمثال الرّازي وابن سينا وابن النفيس وغيرهم وانشغلوا بالقضايا العلمية مثل الرياضيات والفلك وعرف تاريخ الحضارة الانسانية ابن الهيثم وجابر بن حيّان والخوارزمي والبيروني والبتاني والطوسي وغيرهم ولقد كان تفاعلاً مع الثقافات الأخرى من موقع القوة ولذلك فقد سرى تأثيرها كالنسغ في أغصان الشجرة التي كانت ثمارها للانسانية احدى أنبل وأرقى الحضارات التي أسدت أياديها البيضاء لكل شعوب الأرض . وعندما كان ظلام العصور الوسطى يغمر بلدان الشمال كانت مشاعل الحضارة العربية هي وحدها التي ترسل نورها واشعاعها الى الحد الذي يجعل كاتباً فرنسياً كبيراً ينتمي إلى الحضارة الغربية الحديثة هو أناتول فرانس يقول « ان أشأم يوم في تاريخ الانسانية هو اليوم الذي صدّ فيه شارل مارتل الفتح العربي عن فرنسا » وكان لا بد أن تمر سنوات طويلة حتى يأتي كاتب اسباني آخر مثل بلاسكوا ابانيز لكي يصف الفتح العربي لاسبانيا بأنه « لم يكن في الواقع فتحاً فرض على الناس برهبة السلاح بل حضارة جديدة بسطت شعابها على جميع مرافق الحياة ولم يتخل أبناء تلك الحضارة زمناً عن فضيلة حرية الضمير »[١٠] . ويقول « ونمت على هذا ، ما بين القرن الثامن والقرن الخامس عشر اجمل الحضارات وأغناها في القرون الوسطى ، وفي الزمن الذي كانت فيه أمم الشمال فريسة للفتنة الدينية والمعارك الهمجية يعيشون عيشة القبائل المتوحشة في بلادهم المتخلفة كان عدد سكان اسبانيا يزداد فيزدادون على ثلاثين مليوناً تنسجم بينهم جميع عناصر البشرية والعقائد الدينية وخفق قلب الحياة الاجتماعية بأقوى نبضاته التي عرفها تاريخ الجماعات البشرية »[١١] .

وبدأت دورة جديدة عندما انتبهت شعوب الغرب الأوروبي الى عناصر القوة في هذه الحضارة التي أسست احدى أكبر الممالك في التاريخ ، وجاء ملوكهم يستجدون المعرفة « وارسل الملك فيليب البافاري إلى الخليفة هشام الأول يسأله السماح له بايفاد هيئة تشرف على أحوال الاندلس ودراسة نظمها وثقافتها حتى يتمكنوا من اقتباس ما يفيد بلادهم »[١٢]، وحذا حذوه ملك انجلترا جورج الثاني ثم تلت هذه البعثات وفود أخرى «قدمت من فرنسا وايطاليا والبلاد المنخفضة ملأت معاهد غرناطة واشبيلية واقتبست من الحضارة الاندلسية كثيراً من العلوم والآداب والفنون ، ولم تكتف أوروبا بارسال مثل هذه البعثات العلمية بل قامت بعض الدول الأوروبية في أواسط القرن التاسع الميلادي وما يليه تستأجر الاساتذة والخبراء العرب لتأسيس المدارس والمعامل واحياء الصناعات العديدة ونشر لواء العمران والتنظيم في بلدانها »[١٣] .

ويعتبر فريدريك الثاني (١١٩٤ - ١٢٥٠) الذي نصب امبراطوراً عام ١٢١٢ وأعاد تنظيم مملكة صقلية أول من مهد لعصر النهضة في أوروبا وكان شديد الاعجاب بالفلاسفة العرب وكان يجيد القراءة باللغة العربية وقام في عام ١٢٢٤ بتأسيس جامعة نابل التي جعل منها«اكاديمية لادخال العلوم العربية إلى العالم الغربي »[١٤] .

وقد كان لأفكار ابن رشد أكبر تأثير على هذا القيصر الذي ساعد على نقلها وانتشارها كما تذكر مصادر غربية وان مدارس في باريس عرفت تعاليم ابن رشد « وتأثرت بالفلسفة العربية وطريقة البحث العلمي ومهدت بذلك لازدهار الثقافة الغربية »[١٥] .

وتذكر المصادر التي تهتم ببداية حركة الترجمة ان اهتمام الأوروبيين بالمؤلفات العربية يعود إلى القرن العاشر الميلادي ، فجمعوا ما ألّفه العرب في الطب والفلسفة والرياضيات والطبيعيات والكيمياء والأدب واللغة وغيرها وازداد اهتمامهم بالمؤلفات العربية اثر احتكاكهم بالمسلمين أثناء الحروب الصليبية (١٠٩٦ - ١٢١٩) فاقتنوا الكثير منها ونقلوها الى بلادهم[١٦] .

وبرغم روح العداء التي يحملونها للعرب خاصة في تلك الفترة المتوترة من تاريخ العلاقات بين العرب والغرب فان ذلك كله لم يمنعهم من نقل المعرفة من اعدائهم لأنهم أدركوا « ان مستوى التمدن لدى المسلمين كان أعلى بكثير من المستوى الموجود عندهم آنذاك ولم يترددوا في الاعتراف بتفوق الحضارة الاسلامية عليهم وأخذوا يقتبسون منهم معالم الحضارة والمدنية »[١٧] .

وقد تأسست في طليطلة في تلك الفترة كلية لترجمة الكتب العربية الى اللاتينية وكان لهذه المدرسة ولحركة النقل النشطة هذه نفوذها على عقول وافكار جيل من المفكرين لعل أهمهم جميعاً هو روجر بيكون الذي يعتبر مؤسس المنهج العلمي الحديث في أوروبا ، ويتحدث عن كتاب « بناء الانسانية » لبيريفولت قائلاً « ليس لروجر بيكون ، ولا لسميه الذي جاء من بعده الحق في أن ينسب اليهما الفضل في ابتكار المنهج التجريبي فهو لم يكن الا رسولاً من رسل العلم والمنهج الاسلامي في أوروبا المسيحية وهو لم يمل قط من التصريح بأن

تعلم معاصريه للغة العربية وعلوم العرب هو الطريق الوحيدة للمعرفة الحق» . ويقول روجر بيكون عن نفسه « ان وجود الفكر الأوروبي والعلم الأوروبي كان مستحيلاً لولا وجود المعرفة العربية ، لقد دعيت أوروبا فجأة الى الحياة بعد أن ظلت غارقة في ظلمات الجهل طوال خمسة قرون ، وهي مدينة بكل مقوماتها الى العالم الاسلامي »[١٨] .

ولم يكن الكتاب وحده الذي تولى نقل الثقافة العربية إلى الغرب فقد كانت أوروبا وكما يذكر العقاد في كتابه أثر العرب في الحضارة الأوروبية « تتلقى آثار الثقافة العربية من ثلاث جهات متلاحقة في القرون الوسطى ، أولها جهة القوافل التجارية التي كانت تغدو وتروح بين آسيا وأوروبا الشرقية والشمالية عن طريق بحر الخزر وطريق القسطنطينية، وربما كانت هذه هي الطريق التي وصلت فيها أطراف الأخبار الاسلامية إلى بلاد اسكندناف ، والجهة الثانية هي جهة المواطن التي احتلها الصليبيون وعاشوا فيها زمناً طويلاً بين سورية ومصر وسائر الأقطار الاسلامية . والجهة الثالثة هي جهة الاندلس وصقلية وغيرها من البلاد التي قامت فيها دول المسلمين وانتشر فيها المتكلمون بالعربية »[١٩] .

حتى بعد أن جاءت عصور الهزيمة والانكسار ظل ذلك الميراث الثقافي العربي يمارس نفوذه وتأثيره على الفكر والأدب والفن لدى تلك الشعوب ، لنذكر مثلاً تأثير «ألف ليلةوليلة» التي لم تتم ترجمتها الكاملة إلا عام ١٧٠٤ حيث ترجمها الى الفرنسية الكاتب الفرنسي كالاند وترجمت عن الفرنسية إلى الانجليزية في ذات الوقت . ان هذا العمل الابداعي الخلّاق الذي هو نتاج العبقرية العربية في القص والخيال كان له تأثيره في الأدب القصصي الأوروبي الذي لا يوازيه كتاب قصص آخر ، بل ان تأثيره ليمتد حتى أيامنا الحاضرة كما هو واضح في أشرطة السينما ومسلسلات الرسوم الساخرة وقصص ومجلات الأطفال وصارت شخصيات ألف ليلة مثل السندباد وعلاء الدين وحكايات علي بابا وحلاق بغداد جزءاً من مكونات الوجدان لانسان تلك البلدان ، أما تأثيرها في الأدباء منذ شوسر صاحب « حكايات كانتربري » حسبما لاحظ ذلك الاستاذ هملتون جب (أي قبل ترجمتها بوقت طويل) الى الكتاب مثل تشارلس ديكنز في قصته ديفيد كوبر فيلد وفولتير في رواية كانديد وان كتاباً كباراً آخرون مثل « هملتون ولسينغ وديدرو وبومارشيه وبييرلويس »[٢٠] استفادوا جميعاً كما يقول احد الدارسين لهذا الأثر الأدبي من ألف ليلة وليلة وان بعضهم « بنى على أساس الليالي أعماله واستمد منها الطبيعة والروح وتعلّم الكثير من الأداء والتكنيك »[٢١] .

وللشاعر تينيسون قصيدةبعنوان ذكريات ألف ليلة وليلة ويرى العقاد ان بوكاشيو في حكايات الديكامرون التي تعتبر تأسيساً للقصة الأوروبية ما هي إلا أثر من آثار ألف ليلة وليلة .

وكانت « حي بن يقظان » لابن طفيل تأسيساً للرواية الفلسفية والنفسيّة في مراحلها الأولى وقد أرسلت هي أيضاً موجة من أدب الجزيرة التي لا شك أن « روبنسون كروزو » انما هي احدى ثماره .

إن شيلي في قصيدة « عنترة » أو جوته في ديوانه الشرقي أو لوركا الذي يستعمل كلمة قصيدة العربية لاشعاره أو شعراء التروبادرو الذين عرفتهم اسبانيا ناقلين للتراث الشعري والغنائي الاندلسي ، ما هذه جميعاً إلا شواهد حية على مدى هذا التأثير بل ان الدراسات الحديثة ما زالت كل يوم تهتدي إلى جوانب جديدة لهذا التأثير في الأدب مثل الدراسة التي نشرها مؤخراً الدكتور عبد الله الطيب[٢٢] والذي اكتشف أن ما بعثه توماس اليوت من تجديد في حركة الشعر الانجليزي انما اعتمد فيه على اقتباسات من شعر المعلقات . ان هذا مجرد مثل لمدى تغلغل التأثير العربي في الآداب الأوروبية ناهيك بالمعارف والعلوم الأخرى فالرموز الهندية التي جعل منها العرب أرقاماً هي ذاتها الأرقام التي يستعملها الغرب اليوم ، وعلوم الجبر نقلت باسمها باعتبارها علماً عربياً والفلك علماً أرسله اليهم العرب والخوارزمي في الرياضيات والرازي وابن سينا وابن النفيس في الطب مؤسسين للنظرية الطبية الجديدة وابن خلدون مؤسس لعلم الاجتماع وتفسير التاريخ كما كان ابن رشد والفارابي من قبله مؤسسين للفكر الفلسفي[٢٣] ، والمعري في رسالة غفرانه سبق دانتي في كوميديته الإلَهية وابن حزم في طوق الحمامة سبق الحركة الرومانتيكية التي اهتمت بالوجدان ، والاكتشافات الجغرافية الكبرى مثل اكتشاف فاسكو دي غاما لطريق الهند البحري لم يتم الا بالاستعانة بالخبرة العربية في الملاحة ، وما أضاف الفارابي وزرياب لآلات الموسيقى ما زال جزءاً من الأوركسترا الحديثة والاربسك أو فن الزخرفة العربية ما زال مدرسة فنية لا تفقد مع الأيام تجددها وأصالتها ، وفكر الصوفيين العرب أمثال محيي الدين بن عربي والمقري وغيرهما ما زال غذاء روحياً تقام من أجله في أوروبا المعاهد أمس واليوم وغداً[٢٤] ، وهكذا فان الوقت ينتهي ولكن الشواهد التي يمكن أن نسوقها على مدى تأثير الثقافة العربية في ثقافة الغرب تتواصل وتستمر ، وعندما نورد هذه الشواهد والأمثلة في مثل هذا المقام فانما نوردها لمجرد

التذكير بان ما أخذته أوروبا التي تبسط اليوم سلطان ثقافتها وأسلوب معيشتها على أقطار كثيرة من العالم من الثقافة العربية كان يشكل القاعدة الأساسية لانطلاقها وتفوقها ، وكما يقول مالك بن نبي فان احدث اختراعات هذه الحضارة « من القمر الصناعي إلى الصاروخ الموجه قائم على تطور علمي لا يمكن أن نتصوره لولا علم الجبر أو علم المثلثات أو الحساب العشري الذي يقوم على استخدام الصفر كرقم أساسي ، فلولا هذه المقدمات العلمية التي هيأتها الحضارة الاسلامية للحضارة المسيحية لما استطاعت هذه أن تغزو الفضاء اليوم »[٢٥] .

ونتساءل هنا لماذا لم يكن ما أخذته عنا أوروبا استلاباً ثقافياً ؟ لقد نهلت من ينابيع الثقافة العربية فكراً وفناً وعلوم تطبيقية وأروت ظمأ امتد عدداً من القرون للمعرفة التي كانت في حوزة العرب دون أن يكون ذلك من موقع القوة الذي كان للعرب عندما اقتبسوا حضارات الآخرين فلماذا إذاً لم يكن موقف أوروبا تبعية ثقافية ؟ الدارسون لتلك الحقبة يوردون أمثلة كثيرة لأصوات كانت ترتفع تبدي احتجاجها الشديد من هذا الاقتباس وتنذر بالخطر الذي يتهدد الحياة الثقافية لديهم ، مثل آراء الفارو الاسباني الذي أبدى تأسفه لما رآه من ولوع بالأدب العربي قائلاً : « ان أرباب الفطنة والتذوق سحرهم رنين الأدب العربي فاحتقروا اللاتينية وجعلوا يكتبون لغة قاهريهم دون غيرها »[٢٦] ، ومعاصر آخر لنفس الكاتب يقول « وا أسفاه ، ان الجيل الناشىء من المسيحيين الأذكياء لا يحسنون أدباً ولغة غير الأدب العربي واللغة العربية انهم ليلتهمون كتب العرب ويجمعون منها المكتبات الكبيرة بأغلى الاثمان ويترنمون في كل مكان بالثناء على الذخائر العربية في حين يسمعون بالكتب المسيحية فيأنفون من الاصغاء اليها محتجين بأنها شيء لا يستحق منهم مؤونة الالتفات »[٢٧] .

ولعل هذه الأصوات المنذرة والمحذرة من خطر الثقافة العربية لو وجدت في ذلك الوقت اذاناً صاغية لضاعت على الغرب فرصتهم التاريخية في تحقيق عصر النهضة . ان اقتباسهم من العرب لم يكن تبعية ثقافية لأنهم لم يكتفوا بالنقل ، وانما اجتهدوا في تطوير ما نقلوه « انهم » على رأي احد الباحثين الأجانب « لم يقنعوا بعد مرحلة التعرف ، بادراك العلوم المنقولة في الكتب ، بل أقدموا على انتقادها وتنقيحها وتوسيعها والزيادة عليها وبذلك بدأ تطور العلوم في الغرب »[٢٨] ، لقد أثمر هذا الاتصال الغربي ، بالحضارة العربية نتائجه سريعاً ، وتحقق للغربيين الهدف من هذا التلقيح الذي أرادوه لثقافتهم ، ومن بعد بدأ الغرب يوقد مصابيحه ويخرج من كهوف القرون الوسطى التي كانت عهد ظلام بالنسبة اليهم ، بدأت مشاعل العرب تنطفىء واحداً وراء الآخر وبدلاً من أن يحقق العرب اضافة الى انجازاتهم العلمية والفكرية بدأوا يفقدون سيطرتهم وبدأت مرحلة الانحسار الحضاري وبدأ الركود الثقافي يعم الوطن العربي وبدلاً من الانشغال بتطوير الفنون والعلوم انشغل الناس برد أفواج الغزاة والمعتدين ومع سقوط الخلافة في بغداد والتمزق الذي بدأ يطرأ على الحكم العربي في الاندلس ومجيء الغزوات التتارية والغزوات الصليبية منذ ١٠٩٦ الى ١٢٩١ بدأت تدريجياً موجة التقهقر الحضاري ، وبرغم العلامات التي كانت تضيء أثناء ذلك أو بعد ذلك مثل الانتصارات التي حققتها جيوش صلاح الدين الأيوبي ، أو خروج عالم قادر على كشف اسباب انهيار الأمم وسقوطها مثل ابن خلدون ١٣٣٢ - ١٤٠٩ برغم ذلك فقد أخذ التاريخ مساراً مختلفاً بالنسبة للعرب لم يكن في صالح حضارتهم ووجودهم كأمة واحدة ، ومع نهاية الحكم العربي في اسبانيا ١٤٩٢ وبسط الهيمنة العثمانية على سوريا ومصر ١٥١٧ انتهت الدولة التي أقامها العرب ، فقد أعلن السلطان سليم نفسه خليفة على المسلمين وقام العرب بتسليمه مفاتيح الكعبة .

وكانت مرحلة خيم فيها الجمود على العالم الاسلامي كله بما فيه الوطن العربي حيث تسلط على مقدرات شعوب المنطقة ولاة جهلة وحكام مستبدون واختفى الاجتهاد وطمست حرية الفكر والتعبير وانطفأت قوى الخلق والابداع ، وافرخت تلك المرحلة فكراً ضائعاً ذليلاً لا شك أن آثاره ما زالت تعيش معنا حتى اليوم ، وكانت المؤشر الوحيد لذلك العهد أن الأمة العربية احتفظت بأهم مقومات قوميتها ودينها ولغتها .

ومن جديد بدأت حركة الاتصال المباشر بالفكر الأوروبي والغرب الأوروبي عندما أراد محمد علي بناء دولة عصرية في مصر ، وكان ضمن البعثات التي أرسلها لتلقي العلوم من الغرب الشيخ رفاعة الطهطاوي (١٨٠١ - ١٨٧٣) الذي سافر الى باريس عام ١٨٣٦ ليلتقي بالفكر الذي أسهم في الثورة الفرنسية مثل العقد الاجتماعي لجان جاك روسو وقرأ مؤلفات فولتير وراسين وترجم لأدباء فرنسيين وتعرف الى نظريات التربية والعلوم هناك وعاد عام ١٨٣١ لتكون دعوته الرائدة الى التعليم والحاحه على الزاميته في المرحلة الابتدائية برغم ما في نظريته من تأثر سلبي ببعض جوانب المجتمع البرجوازي الفرنسي مثل اقتصار التعليم في رأيه على أصحاب الثروة واليسار . وكان تقدمياً في أفكاره حول المرأة التي طالب بضرورة تعليمها ، وكلفه محمد علي بتأسيس دار الالسن التي تحولت الى

معهد لتعليم اللغات ، جاء الطهطاوي وكان العصر الجديد قد دخل إلى المنطقة العربية بتحولاته الصناعية التي كانت المطبعة احدى أخطر وأهم انجازاتها ، فكان كتابه تخليص الابريز في تلخيص باريز الذي صدر عام ١٨٣٤ علامةعلى طريق هذا الاتصال الجديد بين الثقافتين .

وكانت قولته المعروفة « ليكن الوطن مكان سعادتنا أجمعين نبنيه بالحرية والفكر المصنع » تحمل تأثير شعارات الثورة الفرنسية في الحرية والعدالة والاخاء وكان رفاعة الطهطاوي ومن قبله استاذه حسن العطار ومعاصريه مثل تلميذه محمد عثمان جلال الـذي ترجم موليير ومحمود الفلكي وعبد الله فكري وأقطاب المدرسة السورية من أمثال بطرس البستاني منشىء أول معجم عربي عصري ومخرج أول موسوعة عربية وفق الاساليب المتبعة في الغرب ومؤسس مجلة نفير سوريا وسليم البستاني مترجم الياذة هوميروس شعـراً ثم ناصيف وابنـه ابراهيم اليازجي كمشتغلين بالتأليف والاقتباس والترجمة ثم فارس الشدياق صاحب التآليف المعروفة ، كانوا جميعاً جيل الريادة في هذا اللقاء مع الغرب ابان نهضته وقبيل واثناء ثورته الصناعية ثم صارت بعد ذلك الهجرة اللبنانيـة الى الأمريكيتين حيث صدرت في نيويورك جريدة كوكب الشرق عام ١٨٨٨ ونشأت الرابطة التعليمية ، كان أدب المهجر صورة واضحة لامتزاج الفكر العربي بالمدارس الأدبية الغربية فقد استعار ذلك الأدب التقنية الغربية وبساطة الأسلوب في تقديم مفاهيم انسانية مفعمة بعبير الشرق وصوفيته وتصويره للرابطة الانسانية بين البشر وكانت الصحافة كوسيلة اتصال بين الناس مما نقله الشرق العربي عن الغرب فأثرت في آدابه تأثيراً كبيراً وكما يقول العقاد : « فقد ساعدته على سهولة الكتابة وشيوع الكلمات الفصيحة وتعدد أغراض القول وكانت العلوم الحديثة والكتب المترجمة من الموارد الفكريـة التي وسعت مسارح التـأليف والتصنيف »[٢٩] .

وكان محمد علي قد أصدر في مصر الوقائع المصرية عام ١٨٢٨ وبعد ذلك صدرت في سوريا حديقة الاخبار وفي تونس الرائد وفي لبنان جريدة لبنان وفي ليبيا طرابلس الغرب وفي الجزائر المبشر وكلهاصحـف يملكها الحاكم أو السلطة ولكنه صدرت بعد ذلك أو أثناء ذلك بعض الصحف التي جاءت تحمل صوت المناضلين وتنقل الدعوات الاصلاحية والمطالبة بالحرية مثل تلك الدعوات التي طرحها جمال الدين الافغاني ومن بعده جيل من المفكرين والمناضلين السياسيين .

وكان خير الدين التونسي قد جاءت لينشر دعوة مشابهة لدعوة رفاعة الطهطاوي في الجناح الغربي من الوطن العربي ويعرض فلسفته في الاقتباس من الحضارة الجديدة وألف في ذلك كتابه « أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك » الذي صدر عام ١٨٦٧ وقد « نعى على المسلمين كراهية الأخذ بأساليب المدنية الحديثة في الاصلاح والاعتقاد بأن كل ما يصدر عن أوروبا حرام ، أو مخالف للشريعة الاسلامية ، وقال إن التمسك بالدين لا يمنع من النظر فيما عند الأمم الأخرى والأخذ بأحسنه فيما يتعلق بالمصالح الدنيوية »[٣٠] .

وكان الأعلام العرب الذين دعوا إلى تحرير المرأة من بين أولئك الذين قاموا بمسؤ ولية اللقاء الثقافي بين الغرب والشرق العربي أمثال بطرس البستاني ورفاعة الطهطاوي والذين نادوا بضرورة تعليمها ليكون ذلك تمهيداً لدعوة قاسم أمين في نهاية القرن الماضي بالسفور والغاء الحجاب والطلاق عن طريق المحاكم ومنع تعدد الزوجات . لقد كانوا يواجهون الغرب باتزان وثبات ، يقابلون بين الثقافتين دون اهتزاز أو احساس بالنقص أو الخوف ، وكانوا يدركون ما في تراثهم الثقافي من أوجه العزة والكرامة ولكنهم يدركون أيضاً حاجة مجتمعاتهم - التي انقطعت لفترة طويلة عن عهود ازدهارها الحضاري - الى المعارف والعلوم التي جاءت من الغرب وقد أنشأ بعضهم علاقات مع بعض المفكرين الغربيين المناصرين لقضاياهم وتعرفوا على تيارات انسانية في الثقافة الغربية ذاتها ، وفي حين كان روديارد كبلينج يمجد الحملات الفيكتورية على بلادنا كان الشاعر ويلفرد بلانت صاحب كتاب « التاريخ السري لمصر » يقف موقفاً مدافعاً عن الحرية في مصر ومؤ يداً قوياً لثورة عرابي، وكانت لجمال الدين الافغاني صداقة قوية معه بمثل ما كانت له صداقات مع مفكرين آخرين مثل هربرت سبنسر في بريطانيا ورينان وتيوفيل غوتييه في فرنسا وعرفت تلك الفترة معارك فكرية بين ممثلي الثقافتين ، ولا شك أن المناظرة التي كانت بين الافغاني والفيلسوف الفرنسي ارناست رينان إثر محاضرة الثاني التي ألقاها في السربون في ٢٩ مارس ١٨٨٢ هي احدى حلقات ذلك الحوار الذي غالباً ما يبدأ فيه ممثل الفكر الغربي مهاجماً ثم يقوم ممثل الفكر العربي مدافعاً ، لقد ادعى رينان أن العقل العربي لا يصلح للدراسة والبحث لأنه عقلية مجدبة كالصحراء التي نبتت فيها ، انها عقلية لا تقوى على التحليل والفهم كما هو الحال بالنسبة للعقلية الآرية ، وان الاسلام دين يناهض العلم وانه عجز على التطور وعن قبول أي عنصر من عناصر المدنية[٣١] .

وقد رد جمال الدين الافغاني مفنداً هذه الادعاءات مثبتاً

بالحجة أن عقلية العرب التي استطاعت تحصيل ثقافة الفرس والروم بسرعة لا تعادلها سوى سرعة الفتوحات الاسلامية وارتقت بكل هذه العلوم وبلغت بها مرتبة الكمال لا يمكن أن تكون عقلية جامدة . لقد كان من السهل على الفرنسيين أو الانجليز أو الالمان الذين لا يبعدون عن روما وبيزنطة بعد العرب عنها ان يستغلوا كنوز علوم تلكما المدينتين ولكنهم لم يفعلوا حتى جاء اليوم الذي ظهر فيه منار المدنية العربية على قمم جبال البرانس يرسل ضوءه وبهاءه على الغرب .

أما عن اجحافه بحق الاسلام فان الافغاني يعزوه الى الصورة المشوهة التي نقلت عن الاسلام قائلاً : « ان مناهضة المسلمين للعلوم والفلسفة في بعض عصورهم المتأخرة لا ترجع إلى طبيعة دينهم بل أولى بنا أن ننسبها إلى سوء فهم بعض الشعوب التي اعتنقت الاسلام من غير العرب » .

وقد انتهى رينان من هذه المناقشة بأن أعلن أن رد الافغاني وقع منه موقعاً طيباً وانه سيعاود دراسة الموضوع مضيفاً بأن الاضطهاد بين المسيحيين لا يقل عما هو عليه بين المسلمين وجاليليو لم يلق من الكاثوليك خيراً مما لقي ابن رشد من المسلمين ، ولكن مثل هذه النظرة التي تؤمن بتفوق الجنس الآري هي التي تبنتها السياسات الرسمية لدول الغرب التي بدأت في تنفيذ مخطط الغزو وسلب حرية الشعوب ، وتحققت للمستعمر الغربي السيطرة على مناطق الوطن العربي فبعد أن وقع الاحتلال الفرنسي على الجزائر (١٨٣٠) والانجليزي على الطرف الآخر من خريطة الوطن على الجنوب العربي في ذات العام . بدأت رقعة الاحتلال تتسع اذ سرعان ما استولت فرنسا على تونس ١٨٨١ واستولى الانجليز على مصر عام ١٨٨٢ وتم تمزيق الوطن العربي واحتلاله وسيطرت فرنسا على لبنان وسوريا والمغرب بعد تونس والجزائر وسيطرت بريطانيا بعد مصر والجنوب العربي على العراق والأردن والسودان وفلسطين وسيطرت ايطاليا على ليبيا وارتريا ووقع الوطن العربي في قبضة الاستعمار الغربي المباشر الذي بدأ على الفور جهوده في محو كل المقومات الثقافية وأعلن حربه ضد اللغة العربية ولم تعد المسألة تفاعلاً ثقافياً أو حضارياً وانما هو هجمة ضارية شرسة استهدفت كل مقومات الامة العربية لكي تبقى ذليلة خانعة على مدى الدهر ، وهكذا رافق الغزوة العسكرية غزوة ثقافية للتمكين لذلك الاحتلال الفكري ومحو كل مقومات الحياة لدى شعوب المنطقة ديناً ولغة وتراثاً وكياناً بل ان بعض هذه الغزوات كان استعماراً استيطانياً استهدف اقتلاع شعب وابادته ووضع شعب آخر مكانه مثلما كان الأمر مع ليبيا على أيدي الطليان أو الجزائر على أيدي الفرنسيين أو ما حدث لفلسطين على أيدي قوى الصهيونية العالمية . وقد ركز الاستعمار في غزوته الثقافية على ضرب اللغة باعتبارها العصب الحي الذي يتم بضربه تقويض هذه الأمة ثم سعى هذا المستعمر جاهداً لتكريس مبدأ العزلة بين اجزاء الوطن العربي وتغذيه التيارات الإقليمية والبحث عن أي خصائص جبهوية مميزة لايهام كل قطر انه انما يشكل كياناً خاصاً ، تشكيكاً في عروبته وانتمائه القومي معتمداً على سياسة التجهيل والقمع ، وانتهت أبسط الشروط لاقامة حوار نافع بين الثقافتين ، حتى بواكير ذلك الحوار الثقافي الذي بدأ مع بداية القرن الماضي لم تلبث أن خمدت وانتهت بعد أن استتبت الأوضاع للهيمنة الاستعمارية . وحسب مقولة ابن خلدون الشهيرة « بان المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيّه ونحلته وسائر أحواله وعوائده » فقد ارتأى بعض المفكرين أنه لا خروج من الأزمة الا بالتشبه بهذا المستعمر واستعارة كل وسائله واساليبه لاسترداد المكانة الضائعة وزاد من ذلك الأمر حركة كمال أتاتورك في المنطقة عندما جعل تركيا تنسلخ عن تراثها الاسلامي وعن أساليب معيشتها ولباسها وتتخلى عن الحرف العربي وتقتدي بالغرب في كل شيء ، وخرجت أصوات مفكرين لهم مكانتهم الكبيرة في الفكر العربي مثل طه حسين ترى في أن الحل « هو ان نسير سير الأوروبيين ونسلك طريقهم لنكون لهم انداداً ولنكون لهم شركاء في الحضارة : خيرها وشرها ، حلوها ومرها [٣٢] ، ولنشعر كما يشعر الأوروبي ولنحكم كما يحكم الأوروبي ، ثم لنعمل كما يعمل الأوروبي ، ولنصرف الحياة كما يصرفها »[٣٣] .

كان موقف الانبهار الذي يمثله الدكتور طه حسين في تلك المرحلة من حياته الأدبية موقفاً له ما يقابله في تطرفه ، فثمة تيار آخر كان يرفض كل الوان الثقافة الأوروبية ويطالب بالتقوقع والانكفاء ويقوم على تقديس التراث ويزهو اتباعه بالماضي ويريدون نقله الى عصرنا الحاضر ، واذا كان الموقف الأول استلاباً وتبعية فان الموقف الآخر الذي تحركه عقدة الخوف برغم ما يبدو في ظاهرة من حرص على الانتماء للتراث الثقافي العربي الا انه ينطوي على استهانة بإمكانيات الثقافة العربية وما تحتويه من قوة قادرة على استيعاب العناصر الجديدة وتمثلها وهضمها دون أن تصاب بالاختناق .

ولكن كلا التيارين كان رد فعل طبيعي لظروف الهيمنة والاستلاب والعدوان ولم تكن الأمة في مناخ نفسي يسمح بأن تشارك تلك الطلائع المتعلمة آراءها وأفكارها فقد كانت جموع

الناس مشغولة بدفع الأذى عن نفسها وحمل السلاح لمقارعة هذا المعتدي ونتيجة لتصعيد معارك التحرير ضد قوى الاستعمار في الوطن العربي وما قدمته الشعوب من تضحيات بدأت موجة الاستعمار تنحسر تدريجياً وبدأ المستعمر يعلن تراجعه عن هذه الاقطار ويعترف بهزيمته وينسحب بشكله العسكري وان حاول ـ ونجح في حالات كثيرة ـ أن يبقى بنفوذه السياسي وهيمنته على مقدرات تلك البلاد الاقتصادية والثقافية ، وبرغم المحاولات المستمرة لعودته متنكراً وبأقنعة جديدة فان آفاقاً رحبة للمعركة الثقافية قد فتحت وفرصاً جديدة للحوار قد نشأت على أسس جديدة وبشروط جديدة نتيجة لهذا التبدل الذي طرأ على العلاقة بيننا وبين دول الاستعمار القديم .

ولا بد من الانتباه هنا إلى أن الثقافة العربية قد حققت لنفسها انتصاراً كبيراً ، وفي حين يقدم لنا التاريخ الكثير من الشواهد عن أمم خرجت من تحت كابوس الاستعمار بعد أن فقدت شخصيتها المتميزة ونسيت إلى الابد لغاتها فان اللغة العربية ظلت هي لسان أبناء الأمة العربية تحتفظ بثرائها وزخمها وقدرتها على الحركة والتجدد ومواكبة العصر وعندما تطرح قضية التواصل الثقافي اليوم فهي بلا شك تطرح في مناخ يختلف عن مناخ العشرينيات أو الثلاثينيات أو الاربعينيات من هذا القرن انها تطرح وحركة النضال العربي قد كسبت مواقع جديدة وحققت انتصارات كبيرة ؛ وطوق الجهالة الذي كان مضروباً على أبناء الأمة العربية قد تكسر بعد أن اتسعت فرص التعليم وارتفع المستوى المعيشي لانسان المنطقة ، ان الواقع العربي وبرغم سلبيات التمزق الاقليمي وتبعية بعض الاقطار العربية لقوى الهيمنة القديمة وبرغم أن الاستعمار لا يزال يحتفظ بقاعدته المتقدمة في قلب الوطن العربي « اسرائيل » ، فان هذا الواقع حقق تقدماً كبيراً في العقود الثلاثة الأخيرة مما نتج عنه خلق مناخ جديد لمسألة الاتصال الثقافي . وقبل أن نمضي مع مناقشة الاسس الجديدة لبناء جسور الاتصال الثقافي لا بدّ أن نكون على وعي ببعض العقد التي حكمت العلاقة بين الثقافتين ولعلّ أهمها ما أشار اليه الاستاذ الجامعي السويسري مارسيل بوازار مؤلف كتاب « انسانيّة الاسلام » الذي صدر في باريس عام ١٩٧٩ :

* ان الموقف الغربي الأوروبي من العالم الثالث (بما فيه الوطن العربي طبعاً) ما زال ينطوي على شعور لا واع بالخوف والازدراء في آن ازدراء ناتج عن « ذلّ صادر عن شموخ قومي متأصل مشبع بذكريات تاريخية واعتبارات موضوعية خاصة بالتنمية الاقتصادية للمجتمعات وربما أيضاً لتمييز عنصري خفي » وخوف « تزكيه القوة العدديّة لهذا الجزء من البشرية الذي يملك موارد اقتصادية ضخمة كما تذكيه مطالبه بحقوقه التي لم تفهم حقّ فهمها »(٣٤) .

* ثم يذكر المؤلف انه اذا لم يكن طمساً متعمداً فانه جهل واستعلاء سببه عقدة الاغريق بازاء برابرة الشرق وهو انكارهم في الغرب أن الحضارة العربية الاسلامية أسهمت اسهاماً ملموساً في صياغة النهج الذي يكفل احترام الشخصية البشرية ويحدد العلاقات بين الشعوب ، مصرّين على أن احترام الشخصية الانسانية هو نتاج الفكر الغربي ، ولذلك فان فضل حضارة العرب على الغرب ما زال مجهولاً لدى عامة الناس .

* ويمكن الاضافة إلى ما ساقه بوازار بانه حتى اذا كان ثمّة اعتراف بهذه الحضارة من قبل المهتمّين والدارسين المتخصصين فانه اعتراف بتلك الحضارة التي تنتمي إلى القرون الوسطى فهي لا تنظر إلى انسان اليوم في الوطن العربي باعتباره وجوداً حضارياً مستمراً وانما مجرّد كائن أثري يدل على حضارة قديمة .

* ويمكن الاضافة إلى ذلك أيضاً أن الصورة التي رسمت للعربي من خلال كتب الرحالة القديمة (التي هي في أغلبها انما كانت تمهيداً للغزو العسكري) وأقاصيص ألف ليلة وليلة ظلت تقدم حتى اليوم على أنها صورة العربي المعاصر ، كأن الزمن قد توقّف بالنسبة له وكأن ما أصاب الدنيا من تدرّج حضاري لم يمسسه من قريب أو بعيد .

* مضافاً إلى هذا وذاك عقدة النقص التي نذهب بها في مقابلاتنا مع الغرب، ان أغلب القصص القصيرة والمسرحيات والروايات العربية التي تناولت العلاقة بين العرب والغرب ابرزت فكرة الانبهار العربي ازاء ثقافة الغرب وحضارته ، انه دائماً الشرق العربي المتزمت ازاء الغرب المتحرّر أو الشرق العربي المسحوق ازاء الغرب المتفوق أو روحانية الشرق في مواجهة الغرب المادي أو الشرق المتديّن يتحدّى الغرب الكافر ، كلها منشأها عقدة النقص أو عقدة الاضطهاد التي يحس بها العربي حيال عنجهيّة الحضارة الغربية .

وبالاضافة إلى هذه العقد التي تحكم العلاقة فان ثمةعدداً من المحاذير يجدر بنا الاشارة اليها :

١ ـ الانتباه الى أن هذه الثقافة التي ننشىء معها الحوار الآن لها سلبياتها التي عادت بمردود سيء على تاريخ البشرية ،

فهي التي أنشأت الظاهرة الاستعمارية ، وهي التي أفرزت دعوات تخريبية مثل النازية والفاشية وأشعلت حرباً كونيّة ومكنت لحركة الصهيونية تحقيق جريمتها في اغتصاب فلسطين ، وهي التي أنتجت واستعملت سلاحاً يمكن أن يقضي على الجنس البشري في دقائق معدودة هو القنابل الذرية والنووية ، دون أن يجعلنا هذا ننتهي إلى معاداة الثقافة الأوروبية كلها انما مواصلة الكفاح ضد الهيمنة والانفتاح على التيارات الانسانية التي كانت تحارب داخل هذه الثقافة نفسها انتصاراً لقضايا الحق والعدل والحرية ، والتي حققت انجازاتها العلمية التي تخدم الانسان .

٢ ـ كذلك فانه لا يجب اعتبار الحضارة الغربية المثل والقدوة ، ان هذه الحضارة بكل نتاجاتها الثقافية لم تبق بمنجى عما يملأ عالم اليوم من أزمات ، انها بالرغم من الازدهار الذي تحقق لها تعيش مأزقاً تاريخياً ، فطبيعة المجتمع القائم على الاستهلاك الذي لا يكتفي بمجرد الانتفاع بالموارد الموجودة في عالمنا ، وانما يتبع سياسة غبيّة لاستنزافها ، قد انتج أزمة جديدة في عالم يزداد عدد سكانه دون أن يقابل ذلك زيادة في موارده ، أزمة لن تستطيع هذه الثقافة بالنمط المعيشي الرأسمالي أن تجد لها حلاً . كذلك فان تمجيد القيمة الفردية في هذه الثقافة قد أنشأ خللاً في العلاقات الاجتماعية التي تقوم على مبدأ التعاون بين الجماعات ، وهي لكي تحافظ على طبيعة هذا المجتمع الاستنزافي الاستهلاكي لا بد أن تسخر جزءاً كبيراً من مواردها لتصنيع قوى الحرب والدمار لكي تحتفظ بموقع القوة والسيطرة الذي يضمن لها استغلال موارد الشعوب الأخرى .

وننتقل من الحديث عن المحاذير الى الحديث عن عدد من النقاط التي يجب توفرها في الخطة الجديدة ، أهمها :

* عندما نخاطبهم فلا بد أن نخاطبهم بلغة العلم ، ففي هذا العصر الذي يبدأ بالعلم وينتهي اليه وفي مواجهة هذه الثقافة التي انتصرت بالعقل والعلم ، لا بد أن نهتدي إلى لغة تلتزم بالمنهجية وبالموضوعية وتتركز على الحقائق وتتوخى مخاطبة العقول بدلاً من الخطب الحماسية التي تعودنا أن نطبع بها نشرتنا الاعلامية التي نتوجه بها إلى الغرب ، والاعتماد في هذه المهمة على جهود العلماء والمفكرين بدلاً من اسنادها الى صغار الكتبة والموظفين .

* لا بد أن نرغم القارىء في تلك البلاد على اعادة قراءة تاريخ العلاقات الثقافية بيننا لاقتلاع ذلك التحيز ضدنا وضد ثقافتنا من ذهن المواطن البسيط الذي جاء نتيجة الموروث الثقافي الكولونيالي ، ولا بد من الوصول إلى تلك القوى الحية والقوى الشعبية داخل تلك البلدان فهي التي يمكن أن تكون شريكاً في هذا التواصل والحوار لقد ظلت هذه القوى معزولة عن أهم ما في تراثنا ، جاهلة بانجازات العقل العربي وفضله على الحضارة الحديثة ، ولم يكن ذلك صدفة ، وانما جاء نتيجة مخطط صهيوني امبريالي يسعى جاهداً لمنع هذا الاتصال لأن في تحقيقه تعطيلاً لدور القوى التي تصنع هذا المخطط وابطالاً لمهمتها وفضحاً لأساليبها وكشفاً للأكاذيب التي عاشت عليها ، ولا بد أن نستخدم في تحقيق هذا الحوار كل منجزات العصر في وسائل الاتصال بالجماهير واذا كان التفاعل الثقافي لثقافتنا مع ثقافات العالم القديم قد حققت أعظم النتائج وأسرعها بالرغم من بدائية الوسائل والأدوات فان الفرصة مع هذه المنجزات العصرية التي ألغت المسافات متاحة أكثر لكسر طوق العزلة وتحقيق النتائج التي نريدها لعملية الاخصاب الحضاري .

في كتابه « العرب من الامس إلى الغد » يشير استاذ الدراسات الشرقية جاك بيرك إلى العلاقة بين البلدان العربية والغرب الأوروبي فيمثلها بالعلاقة بين من تسميهم مسرحية فاوست « النبتونيون » و « الفولكانيون » أي أتباع نبتون إله البحر وأهل البراكين ، ابناء الماء وأبناء النار أولهما يعمل بصورة تراكم كما هو لدى الغرب وثانيهما بصورة تفجر كما هو الأمر لدى العرب إنها ـ كما يقول ـ صورة موحية أكثر مما هي ترتكز على حقيقة ، وهذا لا يمنع والكلام لجاك بيرك « ان الثورة ذاتها عندنا (أي في الغرب) اذا كانت ترتكز على حتميات صبورة فانها تتفجر عندهم (أي العرب) مثلما تتفجر النبوءة»[٣٥] . انه وهو يضع نظرية أبناء النار في مقابل نظرية أبناء الماء لا ينسى أن يؤكد ايمانه وبرغم هذا الاختلاف الجوهري في طبيعة الاثنين ، بامكانية الحوار ، نفعه وضرورته وهو يرى في ذلك برغم تغييرات العصر احد القسمات الثابتة لهذه الثقافة وهو يرى أن الانسان العربي ابن هذه الثقافة سوف يحمل للعالم الحديث المنقسم والمنهك ، والذي هو ضحية التحليل والمستمتع به ، رسالة الطراوة والنداوة بفضل سلوكه الى الشمول الكلي . إنها إحدى الشهادات الكثيرة التي تأتي الينا من مفكرين ـ من خارج هذه الثقافة ـ يعترفون بمدى امكانية ثقافتنا العربية على اضافة شيء جديد لمسيرة الانسان في عصرنا الحديث . ولهذا فاننا كمنتمين لهذه الثقافة انما نذهب الى أي حوار من واقع الاعتزاز بأنبل وأرقى القيم التي يحتويها تراثنا ، على ثقة من أن ثقافتنا التي استطاعت أن تخرج معفاة من حرب الابادة قادرة على

المواجهةوالتحدي وقادرة على التواصل والحوار ، ان شعارات الاخاء والمساواة بين الناس كانت موجودة في ثقافتنا قبل اثني عشر قرناً من مجيء الثورة الفرنسية فقبل أن تثور أوروبا على ملوكها الذين يحكمون بالحق الإلَهي كان الاسلام يعتمد « وأمرهم شورى بينهم » شعاراً للحكم فقد كان الاحتفال بالعقل قيمة أساسية في الثقافة العربية عندما كانت أوروبا في عصر الظلام والانحطاط . ويرى مفكر من داخل الثقافة نفسها هو د . زكي نجيب محمود أن أهم الاضافات التي يمكن للثقافة تقديمها لثقافة الغرب تنظيمها لأخلاقية العقل لأن العقل في ديناميكيته لا العلم المجرد في ثباته وسكونه ، هو حجر الزاوية في البناء الانساني من وجهة النظر العربية[٣٦] .

وهو يرى أن الغرب اذا كان « ينقصه ما يكمله فنقصه في القيم التي تدمج الفرد في جماعته الانسانية دمج التعاطف والتعاون ، واذا كان العربي ينقصه ما يكمله فنقصه في قضايا العلوم التي هي الوسيلة للسيطرة (على الطبيعة) والامساك بزمامها »[٣٧] .

إن الثقافة العربية وهي تذهب إلى هذا اللقاء انما تذهب محملة برسالة ترى انها مؤهلة لكي تؤديها ولتأكيد مبادىء ثابتة هي أساس وجودها وهي عندما تنشىء هذا الحوار انما تعمل ذلك بهدي من قيم ثابتة في ميراثها الحضاري والانساني الذي كان محصلة لأفكار وثقافات أجناس عديدة انصهرت في اتون هذه الثقافة إبّان توهجها واشعاعها دون تعصب أو عنصرية ، بلا ضغائن أو أحقاد ، انما بروح العدل والمحبة والمساواة والعمل المشترك بين الناس، واعين ونحن ندخل هذا الحوار بشروطه الجديدة إلى ما نحتاجه من عناصر لاثراء واخصاب ثقافتنا ، فنحن لا نذهب مبهورين مستسلمين تابعين محملين بعقدة النقص أو الاضطهاد ، لأننا نذهب لنعطي بقدر ما نأخذ مدركين بوعي ومسؤولية ما نريده ونحتاجه ، اننا ونحن نذهب لتبادل الحوار ، في رحلة التفاعل الثقافي أخذاً وعطاء ، فانه مثل ما تكون لنا حصتنا في الكلام لا بد أيضاً وبحسب تعبير محمد مزالي من « اصغاء ذكي مرهف لروح العصر ، ووعي بمعطياته وتمثل متجدد له بمختلف التيارات والاتجاهات العلمية ، وقدرة على المزج والاقتباس والتفاعل والهضم »[٣٨] . إننا لا نذهب إلى هذا الحوار لكي نقف من الفكر العربي موقف « التقديس أو موقف الاستخفاف أو موقف الرفض أو موقف الانتقائية» وانما وبحسب تعبير محمود أمين العالم « لكي نتسلح منه بثمرات العلم الانساني مطبقين هذا التراث تطبيقاً نقدياً خلاقاً على واقعنا الخاص »[٣٩] . والا نكتفي أثناء ذلك بأن نستعير منجزاتهم المادية ونتعلمها وانما ضرورة النفاذ وراء هذه الأشكال الى الاسباب الحقيقية الدافعة لها أو ما يسميها د . قسطنطين زريق « القدرات العقلية التي انتجت وحققت هذه المنجزات المادية »[٤٠] .

ولا شك أن أحد شروط الحوار المتكافىء بين ثقافتنا وثقافة الغرب هي الالتفاف الى واقعنا من أجل تحقيق الاهداف التالية :

١ ـ القضاء على النعرات الاقليمية والانعزالية التي ظلت وستبقى سبباً من أسباب ركودنا الثقافي وتأكيد مبدأ وحدة الكفاح العربي على طريقة بناء دولة الوحدة مستقبلاً وتأكيد هويتنا العربية التي يجب أن تكون أساساً ومنطلقاً لتحركنا الثقافي .

٢ ـ العمل من اجل تحرر الاقطار العربية جميعها على طريق الوحدة العربية من كل انواع التبعية السياسية والاقتصادية وتأكيد استقلالها الوطني ، فلا تحرر ثقافي لمن ارتضى أن يكون تابعاً في مجالات السياسة والاقتصاد .

٣ ـ اطلاق كل قوى الابداع لتحريرها من كل ما يملأ حياتها من انواع القمع السياسي والاجتماعي والاحتفال بكل انجاز في مجالات الفكر والابداع وتأكيد قيمة الخلق والابتكار والتجديد .

٤ ـ مواجهة حملات التشكيك والتغريب بتعبئة الجماهير فكرياً وتسليحها بأنصع ما في التراث العربي من مكتسبات فكرية وحضارية والتوسع في نشر الثقافة الجماهيرية التي تخدم قضايا الناس وتسعى لتوسيع آفاقهم وفتح مداركهم وتقوية قدرتهم على الفهم والاستيعاب والتمييز .

٥ ـ استنفار كل عناصر القوة في الثقافة العربية من اجل تثويرها بحيث تكون في مستوى هذه المواجهة الحضارية وتحريرها من كل الآثار السلبية التي تركتها عصور الظلام والاستبداد والقهر وكل تلك الترسبات التي جاءت في مرحلة سقوط الدولة العربية الواحدة وبداية عصر التشرذم والتمزق وقمع الولاة الاتراك[٤١] .

٦ ـ اذا كان التيار الانعزالي السلفي الانغلاقي قد قاوم منذ ثلاثة عشر قرناً مضى تفتح الثقافة العربية على الثقافات الأخرى واعتبر في ذلك الوقت أن فضل التراث اليوناني والفارسي والهندي مدعاة للضلال فلا شك أن أصواتاً سوف ترتفع ضد ارساء أية قاعدة جديدة للحوار فلا بد من رفض

هذه الأصوات لأنها الغاء للتطور وحركة الزمن ذاتها .

٧ ـ واذا كانت الثقافة الغربية وفي عصور العنجهيّة والغطرسة الاستعمارية قامت على مبدأ إما هم وإما نحن . بمعنى أن ازدهارها لن يتحقق إلا اذا جعلت الثقافات الأخرى تابعة ذليلة لها هذا ان لم تعمل على طمسها ومحقها ، فان ثقافتنا يجب أن تتحرر من ردود الفعل ازاء تلك السياسة لأن هناك مساحة تسع كل الثقافات ، وان في تنوعها اثراء لمسيرة الانسان الحضارية وكما يقول « برتراند رسسل » « إن هذه الفوارق هي التي تجعل في مقدور كل أمة أن تضيف إلى تراث المدنية والحضارة » . فتقدمنا ليس بشرط لزوالهم كما أن تقدمهم ليس بشرط لتخلفنا[٤٢] .

هذه مجموعة ملاحظات علها تسهم في رسم استراتيجية لتحركنا الثقافي ازاء التحدي الذي تطرحه الثقافة الغربية ، استراتيجية ، تتحرر من عقد الخوف أو الانبهار، عقد النقص أو الاضطهاد ، لكي تبدأ ثقافتنا رحلة جديدة لكسر الحواجز وبناء جسور التفاهم والتعاون بالاعتماد على النشر والترجمة واقامة المؤتمرات العلمية والفكرية وتسخير بعض الموارد الاقتصادية لوضع قواعد ينطلق منها هذا التواصل وانشاء مؤسسات تقوم بنشر الفكر العربي وترجمته والاهتمام بنشر تراثنا المعاصر في المسرح والموسيقى والشعر والقصة باعتبار أن هذا الابداع وسيلة ناجعة في نشر الثقافة وخلق مناخ جديد للاشعاع والتفتح وكسر الاحتكار الصهيوني على الجوائز العالمية مثل جائزة « نوبل » بتأسيس جوائز عالمية يسهم العرب في تمويلها والتخطيط لها .

واذا كان أبناء الماء قد شقوا فوق الأرض نهر حضارتهم الذي اكتسح كالطوفان بلاد الدنيا ، فلقد حان الوقت لأبناء النار أن ينفضوا عن أنفسهم رماد السنين وان يوقدوا المشاعل التي انطفأت منذ خمسمائة عام ، لكي تغمر الدنيا أنوار حضارتهم الجديدة .

(١) احدى وثائق ندوة الغزو الثقافي الامبريالي الصهيوني تونس ٢٩ مارس ـ ٣ افريل ،
(٢) ، (٣) الاستشهاد بهذين المفكرين المعاصرين من الغرب انما نسوقه تأكيداً على وجود بعض الرموز المضيئة في الثقافة الغربية ذاتها .
(٤) جورجي زيدان ـ تاريخ التمدن الاسلامي
(٥) ولعل أهم كتاب ترجمه ابن وحشية عن هذه اللغة هو كتاب « الفلاحة النبطية » الذي لا يزال مرجعاً خطيراً في علوم الزراعة وقد ترجم في وقت مبكر الى اللغات الأوروبية .
(٦) من جملة أسماء المترجمين عن الفارسية جبلة بن سالم ومحمد بن جهم البرملي ومحمد بن مطيار الاصفهاني .
(٧) ترجمت عام ٦٩٧ هـ وقد قام بالترجمة الفتح بن علي البندراي الاصبهاني .
(٨) ، (٩) جرجي زيدان ـ تاريخ التمدن الاسلامي ص ١٨٢ .
(١٠) ، (١١) أورد هذه الشهادات عباس العقّاد في كتابه أثر العرب في الحضارة الأوروبية ص ١١٦ .
(١٢) ، (١٣) د . علي حسن الخربوطلي « العرب ورسالتهم الانسانية » ص ٦٢ .
(١٤) دي لاس أوليري ـ الفكر العربي ومركزه في التاريخ ص ٢٣٨ .
(١٥) د . زيغرد هونكه ـ شمس العرب تسطع على الغرب ص ٤٥٠ .
(١٦) مجلة الثقافة العربية ص ٨٦ عدد سبتمبر ١٩٨٠ في تحقيق عن المخطوطات العربية في أوروبا .
(١٧) د . باول كونيتش ـ حركات الترجمة من والى العربية وأهميتها في التاريخ ـ مجلة آفاق عربية يناير ١٩٨٢ .
(١٨) كلمات روجر بيكون كما أوردها د . محمد الدسوقي في بحثه « الحضارة العربية وموقف أوروبا منها » الثقافة العربية يناير ١٩٧٥ ص ١٠ .
(١٩) عباس العقّاد ـ « اثر العرب في الحضارة الأوروبية » ص ٦٦ .
(٢٠) ، (٢١) عبده جبير ـ محاولة لتحليل جوانب الخيال في ألف ليلة وليلة قراءة جديدة ـ البيان ، نوفمبر ١٩٨٠ ص ١٣١ .
(٢٢) عبد الله الطيب ـ مجلة الدوحة ،عددا فبراير ومارس ١٩٨٢ .
(٢٣) ان الملكة فيكتوريا نفسها التي تمت في عهدها حملات الغزو الاستعماري الانجليزي على الوطن العربي عندما أقامت نصباً تذكارياً لزوجها البرت زينته بصور عدد من هؤلاء المفكرين العرب جنباً إلى جنب مع مفكري الغرب اعترافاً بالمكانة التي حفظها لهم التاريخ .
(٢٤) احدى هذه المدارس التي انشئت حديثاً لنشر تعاليم محيي الدين بن عربي وغيره من الصوفيين العرب هي مدرسة « البشارة » التي اتخذت لها مقرا احدى المزارع قريباً من مدينة ادنبره باسكتلندة .
(٢٥) مالك بن نبي ـ احاديث في البناء الجديد ١٣٥ .
(٢٦) ، (٢٧) عباس العقاد ـ أثر العرب في الحضارة الأوروبية ص ٧٠ .
(٢٨) د . باول كونيتش ـ حركات الترجمة مجلة آفاق عربية يناير ١٩٨٢ .
(٢٩) عباس العقاد ـ أثر العرب في الحضارة الأوروبية ص ١٦٦ .
(٣٠) أنور الجندي ـ الفكر العربي المعاصر ص ٨٢ .
(٣١) اعتمدت على كتابي الفكر العربي المعاصر لأنور الجندي واعلام الحرية لقدري قلعجي وكلاهما أورد هذه الحادثة .
(٣٢) طه حسين ـ مستقبل الثقافة في مصر ج ١ ص ٤٥ .
(٣٣) المصدر السابق ص ٥٠ .
(٣٤) مارسيل بوازار ـ انسانية الاسلام ترجمة د . عفيف دمشقية .
(٣٥) جاك بيرك ـ العرب من الأمس إلى الغد ـ ترجمة د . علي سعيد ص ٤١٤ .
(٣٦) ، (٣٧) تجديد الفكر العربي د . زكي نجيب محمود ص ٣٨٢ .
(٣٨) محمد مزالي ـ الاصالة والتفتح ـ مجلة الأدباء العرب ابريل ١٩٨٢ .
(٣٩) محمود أمين العالم ـ مناقشة موضوع الخصوصية والاصالة ـ مجلة الثقافة العربية يونيو ٧٤ ص ٣٢ .
(٤٠) د . قسطنطين زريق « في معركة الحضارة » ص ٢٤٠ .
(٤١) في محاضرة عن الابعاد التاريخية لأزمة التطور الحضاري العربي نقلت ملخصاً لها مجلة « الثقافة العربية في عدد يونيو ٧٤ صفحة ٢٩ يشير الدكتور شاكر مصطفى إلى أربعة عوامل سلبية هي :
أ ـ الغيبية : التي نقلت الفكر السببي من الأرض إلى السماء وعطلت قوانين الطبيعة بالكرامات والخوارق وتدخل قوى غير منظورة وبذلك قضى على الجانب العقلي والعلمي في الحضارة العربية .

ب ـ التلقينية : التي آمنت بدونية الأحياء وتفوق السلف نتيجة توقف الاجتهاد .

ج ـ السكونية : عندما أهمل الفكر عامل الزمن . وصار كل تغيير ابتعاداً عن العصر المثالي .

د ـ الارهاب الفكري الجماعي : وهو الصورة الأخرى المكملة للكبت الجنسي والضغط الاجتماعي والاستبداد السياسي .

وبرغم أن شوطاً كبيراً قد قطع في سبيل التحرر من ارزائها الا أن شيئاً منها ما زال يعمل في موروثنا الثقافي المعاصر .

(٤٢) نشير هنا إلى أن مؤتمر الحوار المسيحي ـ الاسلامي الذي عقد في ليبيا منذ سنوات مضت مثال طيب لمثل هذا الحوار الذي يجب أن يتواصل ويستمر .



وسائل الاعلام الغربية والاستلاب الثقافي

د. صالح ابو اصبع

في البدء قبل أن نخوض في بحثنا المقترح عنوانه « وسائل الاعلام الغربي والاستلاب الثقافي » فانني احب أن أشير إلى بعض الأمور الفنية والمنهجية .

أولاً ـ انني أفضل استخدام كلمة الانسلاب بدلاً من الاستلاب ، ذلك لأن الأولى تشخص حالة المغزو المنسلب، بينما الثانية تشخص حالة الغازي المستلب . . وطبيعي اننا معنيون بحالتنا نحن المغزوين .

ثانياً ! إن دراسة تأثير وسائل الاعلام بشكل عام على المواطن العربي لم تلق عناية كافية ـ هذا اذا وجدت ـ من علماء الاجتماع والاعلام في الوطن العربي . . ومن ثم فان الحديث عن الامبريالية الثقافية يظل في احسن الأحوال شيئاً نشمه ، ولكننا لا نستطيع أن نمسك به وذلك لنقصان الابحاث ـ بل وانعدامها ـ التي تدرس تأثير البرامج الاعلامية الغربية كأشرطة الاذاعة المرئية والخيالة على الجماهير العربية ، وكذلك لنقص الدراسات التي تبحث مدى تأثير قصص الأطفال والمجلات المترجمة أمثال السوبرمان والوطواط على الطفل وتكوين مثله وقيمه وسلوكه .

وأيضاً لنقص الدراسات التي تحلل مضمون صحافتنا العربية، وتكشف مدى ما تتضمنه من مادة أصيلة أو مقتبسة ، ومدى تأثيرها على القارىء ، ولذا فان البحث الميداني مفتقد ، وهو الاساس الذي يمكن أن يعتمد عليه في دراسة تأثير وسائل الاعلام على الانسلاب الثقافي .

ثالثاً ـ للسبب السالف ، فان هذه الدراسة تقدم اطاراً نظرياً لدراسة تأثير وسائل الاعلام الغربية على المواطن العربي ، وخلق حالة انسلاب ثقافي لديه .

رابعاً ـ لا يمكننا أن نعزو سبب الانسلاب إلى غزو الثقافة الغربية لثقافتنا العربية لوحدها ، ذلك يمكن أن يكون تعميماً ضاراً ، يؤدي إلى تجاهل كل الاسباب الحقيقية التي تؤدي بمواطن ما إلى حالة الانسلاب .

إن الثقافة الغربية بلا شك عامل هام من العوامل التي تؤدي إلى الانسلاب ، ولكن يجب أن نشير إلى أن المناخ السياسي والاجتماعي الذي يعيش فيه المواطن العربي يخلق جواً يهيىء لحالة الانسلاب ويدفع اليها . ان كبت الحريات والقمع الذي يلقاه المواطن العربي نفسياً وجسدياً ، وان الاحباطات التي يواجهها المواطن على مستوى القضايا القومية . هذه العوامل كلها ، تؤدي إلى خلق فرص تهيىء لقبول حالة الانسلاب وتعزيزها . هذه اشارة ضرورية ، لنعرف ان نجاح الغزو الثقافي الغربي يتعزز من خلال عوامل داخلية ؛ سياسية واجتماعية ونفسية . وهنا لن نخوض في هذا الجانب ، لطبيعة البحث سوف نقتصر على دور وسائل الاعلام الغربية في الانسلاب الثقافي .

الغزو الثقافي ظاهرة عالمية

الامبريالية الثقافية ظاهرة عالمية في عصرنا الحاضر ، وكما نعاني منها تعاني منها دول العالم النامية كافة . ودول العالم المتقدمة سواء بسواء وان اختلفت الدرجة .

وتختلف خطورة الامبريالية الثقافية من بلد إلى آخر ، وبمقدار ما تقترب ثقافة الغازي من المغزو تضيق حدود الأهمية ، وكذلك بمقدار ما تواجه الثقافة الغازية من مقاومة من الثقافة المغزوة ، فان الخطورة تتضاءل . ولكن المسألة بالنسبة للوطن العربي شيء آخر فالثقافة العربية لا تواجه الثقافة الغازية في اطار موحد . إذ ان الكيانات الاقليمية ينعدم فيما بينها التنسيق لمواجهة الغزو الثقافي الامبريالي الغربي ، ومن ثم فالقضية

بالنسبة للانسان العربي تصبح مهددة لثقافته .

اننا في هذا العصر نواجه ما أسماه تومس ماك فيل Thomas Mc Phail (١٢٨٠ ص - ٢٠) بالامبريالية الاليكترونية والتي يعرفها بقوله : -

« بأنها علاقة التبعية التي تأسست باستيراد معدات الاتصال والبرامج الأجنبية ومعهاالمهندسون والفنيون ،وما يتعلق بها من برتوكلات ومعلومات ، وذلك بخلق الأسس لمجموعة من المعايير والقيم الأجنبية والتوقعات والتي يمكن أن تغير الثقافة المحلية وعمليات التنشئة الاجتماعية الى درجات مختلفة . فالاستيراد يتنوع من الكتب الهزلية الى الاقمار الصناعية ، ومن الكومبيوتر إلى الليزر وبجانبها المنتجات الأكثر تقليدية مثل البرامج الاذاعية والمسرح وأشرطة الخيالة وخدمات البرق وعروض الاذاعة المرئية » .

الانسلاب ما هو ؟

إن ما يعنينا هنا هو دراسة تأثير الامبريالية الاليكترونية على حالة الانسلاب الثقافي في الوطن العربي .

إن الانسلاب حالة نفسية تؤدي بالفرد إلى الانسلاخ عن ثقافته وتبني ثقافة أخرى غربية . كتب شاتز ورفيقه ونتر) Schatz and Winter (١٩٦٦ . ص - ٣١٩) « بأن امكانية الانسلاب قائمة حيثما كان الانسان - سلباً أو ايجاباً - يرتبط بالعالم الموضوعي المحيط به من اجل العثور على ذاتيته وتوافقها مع نفسه على الرغم من اختلافها عن هذا العالم ، ومن ثم فان الانسلاب يصبح مرادفاً للتنافر مع ثقافة المجتمع » .

إن الانسلاب بأبسط تعريفاته حسب ما يراه جاك ألول Jacques Ellul (١٩٧٣ . ص - ١٦٩) هو « ان تصبح منسلباً هو ان تصبح شخصاً آخر غريباً أكثر من كونك نفسك ، وكذلك يمكن أن تعني أن تصبح خاصاً بشخص آخر ، وبمعنى آخر فان هذا يعني انسلاخ الشخص عن نفسه ليصبح خاضعاً ، وحتى متمثلاً بشخص آخر » .

ويرى جاك ألول بأن تحقيق حالة الانسلاب هو هدف من أهداف الدعاوة التي تلتزم بتوظيف وزيادة وتدعيم ميل الشخص بفقدان ذاته في أمر أكبر منه كنزاع بطمس شخصيته ، ويحرر فيه الأنا من كل شك وصراع ومعاناة من خلال الذوبان مع الآخرين . ومن ثم فان هذه الدعاوة تخلق حاجات مصطنعة في أنفسنا كزيادة في الرغبات والهوى والحاجات غير الضرورية .

وهذه الحاجات المصطنعة تفترض أهمية معقولة بسبب طبيعتها العالمية ، وبسبب وسائل الاعلام التي تم بها التحريض على تلك الحاجات وتصبح مطلوبة وضرورية للفرد أكثر من احتياجاته الخاصة ، ومن ثم فانها تقوده إلى التضحية برغباته الخاصة . وما يجري في الاقتصاد يجري كذلك في السياسة والثقافة ، فان نمو الحاجات تدريجياً يقضي على حاجات الفرد وميوله الشخصية . وهكذا فان ما يجري ، في الحقيقة ، هو تدمير الفرد لنفسه من الداخل . وهذا التدمير مصمم بحيث يضمه إلى قوى مجردة ذات توجه ميكانيكي . وعلى هذا المستوى أيضاً ، فانه بمقدار ما يقتنع الفرد بأن ما يفكر به أو يشعر أو يفعل انما هو من ذاته بمقدار ما يعظم الانسلاب .

ماذا تريد الامبريالية الثقافية ؟

إن تتبعنا لما يجري اليوم في العالم الثالث وفي الوطن العربي على وجه التحديد سوف يجعلنا ندرك أن الاستعمار القديم والاستعمار الجديد يستهدفان دوماً صنع مناخ ملائم لانسلاب افراد المجتمع المغزو . لأن مثل هذه الحالة الفكرية سوف توحد بين تطلعات المنسلب والمستلب وبالتالي فان فرصة تحقيق مصالح المستعمر يمكن أن تتحقق وتستمر باستمرار الذهنية المنسلبة التي تضمن سيطرة المستعمر .

ففي كتاب **الشؤون الثقافية والعلاقات الخارجية** كتب روبرت بلوم Robert Blum (١٩٦٣.ص - ٢٠) يقول : « انه التزام منا أن نفعل ما وسعنا الجهد لنمارس نفوذنا الثقافي - أي الأمريكي - بطريقة تساعد الآخرين وبحيث لا يكون حجم المساعدة يسمح للمبادىء الغربية بأن لا تمدّ الآخرين بشيء سوى التطلع إلى تغيير غير مسيطر عليه . هذه مهمة ثقافية أساسية تستلزم تصوراً واضحاً لقيمنا وللطريقة التي فيها نرغب من الآخرين أن يشاركونا بها هذه القيم » .

إن هذا المفهوم الامبريالي يرينا بوضوح كيف يتصور الغربيون مد نفوذهم الثقافي لا لشيء سوى السيطرة ونشر قيمهم الثقافية . واذا كان الاستعمار القديم قد دخل بأدواته العسكرية لاحتلال الأرض ، فان أدواته الثقافية جاءت لتغزو العقول ، وكانت أحد الأهداف الاساسية هي نشر لغة المستعمِر في البلد المستعمَر . وللأسف ان الكنيسة في العالم الغربي تعزز الامبريالية وتدعمها ، كان ذلك واضحاً في المرحلة الاستعمارية وخاصة في افريقيا حيث رافقت الكنيسة القوى الاستعمارية كذراعها الثقافية في حملات الغزو . . . واليوم لا تختلف الرؤ يا كثيراً ففي مقال نشر في مجلة دينية عنوانها The Plain Truth يكتب ريموند ماك نير Raymond Mc Nai في فبراير ١٩٨٢ مقالاً بعنوان اللغة العالمية يقول فيه :

« يبدو غريباً للوهلة الأولى أن ارادة الله رفعت اللغة الانجليزية كأداته الرئيسية التي بها سينشر ويعلن الاخبار الطيبة لملكته القادمة لمعظم العالم في نهاية العصر . . . ليست الانجليزية فحسب هي لغة الكتابة والاذاعة والكلام والتفاهم في كل القارات ، ولكنها أصبحت اللغة المشتركة ، اللغة العالمية للدبلوماسية والتعليم والعلم والتجارة والرياضة . ولهذا فان الانسان يستطيع أن يرى بوضوح لماذا اختار الله اللغة الانجليزية كاللغة رقم واحد للوصول إلى أكبر عدد من سكان الأرض مع انذاره النهائي للبشرية وتبشيره بالاخبار الطيبة لعالم الغد » .

إن المرء لا ينكر ما للانجليزية من انتشار ، ولكن ما ينكره هو الروح التي وراء مثل هذا التصريح التي تطرح لغة ما بديلاً للغات الشعوب ، ولكن هذا التصور له ما يبرره ، ان التبعية التي يعاني منها العالم الثالث بشكل عام هي التي تجعل هذا التصور ممكناً ، فكما يلاحظ انتوني سميث Antony Smith (١٩٨٠ ـ ص ٢٧) « انه حتى الآن فان دول العالم الثالث التي احرزت استقلالها السياسي في هذا القرن ، ما زالت تعاني من تبعية اقتصادية وتبعية ثقافية » .

ومن ثم فاننا نرى أن مثل هذا الاستقلال السياسي يصبح أمامه علامة استفهام كبيرة في مثل ظروف هذه التبعية .

وفي أيامنا هذه ، فان دول العالم الثالث تشعر بفداحة هذه التبعية وما فتئت تناضل من اجل الانفكاك منها ولعل النضال في المجال الدولي من اجل خلق نظام اقتصادي عالمي جديد انما هو خطوة على هذا السبيل والذي نظرياً . . . تعزز من خلال الوثيقة رقم 1972 (S- VI) 3202 التي اصدرتها الجمعية العامة للأمم المتحدة ، بناء على توصيات دول العالم الثالث ، من اجل خلق نظام اقتصادي عالمي جديد . ولعل الحوارات بين الشمال والجنوب هي خطوة أخرى على هذا الدرب . ومن اجل الانفكاك من اسار التبعية الثقافية فان النضال في اطار اليونسكو من أجل خلق نظام عالمي جديد لتدفق المعلومات والاتصال ، انما هو شعور بخطورة ما تعانيه دول العالم الثالث من هيمنة تهدد الثقافة الوطنية والشخصية ، شخصية الافراد وشخصية المجتمع على حد سواء .

إن مسألة الغزو الثقافي في حد ذاتها تنبع من عدم المساواة التي تؤدي إلى الظلم . إن الدول الغربية التي امتلكت التقنية من صناعة الآلات الى صناعة الاشرطة وقدرتها على النفاذ إلى الاسواق العربية تهدد الثقافة العربية . حيث نجد العجز والتخلف الذي لا يستطيع مجاراة تلك التقنيات الغربية وامكاناتها المادية والفنية . ومن هنا تكمن عدم المساواة التي تؤدي إلى ظلم المجتمعات بتهديد ثقافتها الوطنية وخلق حالات من الانسلاب لدى مواطنيها .

وسائل الاعلام المعاصرة والهيمنة الغربية

إن وسائل الهيمنة الغربية الثقافية تكمن في التحكم فيما يلي :

١ ـ وكالات الانباء العالمية بما تمتلك من قدرات على نقل اخبار العالم وتشكيل التصورات عن الاشخاص والشعوب والثقافات .

٢ ـ التحكم بالاتصالات الدولية من خلال الاقمار الصناعية والاتصالات اللاسلكية .

٣ ـ التحكم بالسوق التجارية ـ صناعة وتسويقاً ـ لصناعة تشكيل العقل البشري من خلال الأفلام ـ الكتب ـ الاسطوانات ـ المجلات . . الخ .

٤ ـ التحكم بالتقنية انتاجاً وتسويقاً .

٥ ـ الاذاعات الموجهة .

أولاً : وكالات الانباء العالمية

يعرف آل هستر Al Haster (١٩٧٤ : ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩) « وكالة الانباء العالمية بأنها تلك التي تغطي بخدماتها الكرة الأرضية وبمقدورها أن تغطي الأحداث في جميع الاماكن الهامة » .

وينطبق هذا التعريف على خمس وكالات عالمية هي : وكالة الانباء الفرنسية ، الاسوشيتدبرس ، رويتر ، تاس . . اليونايتدبرس . ان دور وكالات الانباء العالمية أساسي في تشكيل آراء الافراد وفي تكوين الرأي العام حيث معظم ما ينشر من صور عن العالم الخارجي في وسائل الاعلام العربية انما يأتي من خلال أقنية هذه الوكالات ، وقد تكون هذه الصور ذات أهمية كبيرة ولكنها تغطي تغطية ضئيلة أو العكس .

وعلى الرغم من وجود وكالات أنباء عربية محلية ، فان مهمتها في الاغلب مهمة نقل ما يصلها من الوكالات العالمية اذ تقوم الوكالات المحلية باختيار الانباء وتوزيعها على وسائل الاعلام المحلية .

وفي أحيان كثيرة ، فان هذه المهمة ـ التي هي نوع من الضبط والسيطرة على الخبر الخارجي ـ تسهم اسهاماً فعالا في خلق جو يساعد على الانسلاب . اذ أن القارىء أو المستمع العربي لم يعد يثق في وسائل اعلامه التي كثيراً ما تلجأ الى

التضليل . وبالتالي يهرب القارىء والمستمع العربي إلى مصادر اجنبية يعطيها ثقته ، وهي بدورها تقدم رؤى غربية تسهم في بناء تصورات لدى زبائنها ، تنسجم مع ثقافتها وتعبر عنها .

وانه لمن السخرية أن يكون للوكالات العالمية الدور الأكبر في نقل أخبار اقطار الوطن العربي واعادة بثها إلى هذه الاقطار ، بينما تعجز الوكالات العربية عن أداء ذلك . إن خطورة ذلك تكمن في ان ما تنقله وكالات الانباء يتلون بمنظار ناقلها ويتلون بمصالح البلد التي يمثلها . وهكذا تعود الينا بضائعنا ليست مرتدية سروالاً وقبعة ، ولكنها تأتي مغلفة بلغة الخواجا وتفسيره للأمور بما يتفق مع مصالحه ، واذا كان الجمهور العربي لا يثق بإعلامه فانه بحثاً عن « الحقيقة » سيتطلع إلى المصادر الأجنبية التي تقدم له الحقيقة من خلال مذاقها ومنظارها .

ثانياً ـ التحكم بالاتصالات الدولية عن طريق الاقمار الصناعية والاتصالات اللاسلكية .

تتحكم الدول الغربية وخاصة الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا بالاتصالات الدولية التقليدية ـ اللاسلكية ـ وبالاتصالات الحديثة بما لها من مقدرة على تحطيم العزلة والوصول إلى المناطق النائية التي لم تكن تصلها وسائل الاتصال القديمة . . . وعلى الرغم من الآمال الواعدة في المقدرة على استخدام الاقمار الصناعية في مجالات التعليم والتنمية ، الا انها تمتلك بعض المخاطر التي تهدد الدول النامية والتي لا تستطيع أن تستثمر جزءاً من مواردها في وسائل الاتصال الحديثة مما يؤدي إلى عدم مقدرتها على تمويل وانتاج برامجها ، وهذا ينطبق على البلدان العربية غير النفطية . ومن ثم فان من يمتلك مقدرة الارسال من خلال الاقمار الصناعية يمتلك معها ميزة بث برامجه الى تلك البلدان ومن ثم فان تأثير هذا البث على الثقافة المحلية سيكون كبيراً .

ثالثاً : ـ الاذاعات الموجهة

لم يعد غريباً أن نجد المواطن العربي حريصاً على الاستماع إلى نشرة الاخبار من اذاعة لندن البريطانية ، أو مونت كارلو الفرنسية ، أو صوت أمريكا ، أو صوت المانيا . إن كل هذه الاذاعات التي تقدم برامج بث بالعربية لساعات طويلة كل يوم ، تستهدف قبل كل شيء اجتذاب المستمع العربي وتشكيل تفكيره .

إن هذه الاذاعات تكتسب جمهوراً يتزايد يوماً بعد يوم ، مع اضمحلال الثقة بوسائل اعلامه المحلية ، هذا من جانب ، ومن جانب آخر فان هذه الاذاعات تعد بالنسبة له اطلالة على العالم المتقدم وهي بهذا تتيح له آفاقاً من المعرفة قد لا تقدمها له اذاعاته المحلية . وهي الى جانب ذلك تعمل على غرس ثقافاتها ، وتخلق لدى المستمع انماطاً من الحاجات التي هي ليست حاجته ، وتصنع له ابطالاً ليسوا هم بأبطاله ويعيش في جو اقرب إلى الاغتراب . . ويصبح على حافة الانسلاب اذا لم يكن قد وقع فيه .

رابعاً ـ التحكم بالسوق التجارية لصناعة الاشرطة وبرامج الاذاعة المرئية والاسطوانات والكتب . . الخ .

تعتبر الولايات المتحدة المهيمنة الأولى على صناعة الأشرطة في العالم وينبع مركز السيطرة الأمريكية على صناعة الصور المتحركة في السوق العالمية من عدة أسباب :

أ ـ ضخامة الاستثمارات في قطاع الأشرطة مع التقنية المتقدمة التي رافقت الانتاج السينمائي .

ب ـ امتداد الشركات الامريكية إلى أسواق أخرى ، كفتح فروع لها في بريطانيا وفرنسا وايطاليا .

ج ـ الأشرطة الأمريكية هي الأكثر توزيعاً في العالم .

د ـ شركات الأشرطة تسيطر أيضاً على شبكة من شركات التوزيع ذات الامتداد والفاعلية في العالم كله . حيث يجد المنتجون من البلدان الأخرى انفسهم مضطرين إلى توزيع أشرطتهم من خلال الشركات الأمريكية .

هـ ـ الانتاج الكمي والنوعي للأشرطة يجعل الاسواق الأخرى غير قادرة على منافسة السوق الأمريكية .

وكما يؤكد نوردنسترينغ ورفيقه فارس Nordenstreng and Varis (١٩٧٤ : ص ٢٩) فان البرامج المستوردة في البلدان العربية معظمها من الولايات المتحدة وبريطانيا ومن الأقطار الغربية الأخرى . وعلى سبيل المثال ، ففي لبنان ٥٠ ٪ من البرامج المستوردة يأتي من الولايات المتحدة وفي مصر ٧٠ ٪ من البرامج المستوردة استورد من الولايات المتحدة ، وأما اليمن الديمقراطي فان ٢٥ ٪ من برامجه المستوردة أمريكي و ١٥ ٪ بريطاني و ١٠ ٪ سوفيتي .

واذا أضفنا الى ذلك ما يعرض في دور العرض السينمائية وأشرطة الفيديو ، فاننا ندرك أن السوق العربية تعاني من سيطرة سوق الأشرطة الأمريكية .

وعلاوة على هذا ، ففي مجال الكتب فان قصص الأطفال المترجمة أمثال قصص ميكي ماوس ، الوطواط ، سوبرمان ، وقصص والت ديزني تملأ الأسواق .

ونظرة فاحصة إلى المجلات الأسبوعية العربية ، ترينا أن القارىء مظلوم لا يعرف حقيقة ما هو مترجم من المقالات وما هو أصيل . فنسبة كبيرة من موضوعات المجلات العربية ترجمات حرفية للصحافة الأجنبية ، بدون ذكر المصدر أو اسم الكاتب . وفي أحيان أخرى يتم اقتباس موضوعات وتحويرها وتذييلها بتوقيع كاتب عربي . إن مثل هذه المواد الاعلامية التي تزخر بها السوق العربية كفيلة بإرباك القارىء وتخلق حالة ذهنية عربية ان لم تستلب بعد فانها في طريقها الى الانسلاب .

خامساً ـ التحكم بالتقنية صناعة وتصديراً

تتحكم الدول الغربية ومعها اليابان الآن في صناعة وتجارة تكنولوجيا الاتصالات الدولية . وهذا التحكم يأخذ لوناً من الوان التسلط ، حينما تحظر هذه الدول تصدير سلعة من سلع التكنولوجيا الى الدول العربية على الرغم من قدرتها الشرائية على ذلك . وخير مثال على ذلك الحظر الأمريكي على تصدير معدات القمر الصناعي العربي بدعوى أن استخدام القمر الصناعي سوف يتيح لمنظمة التحرير الفلسطينية وليبيا فرصة استخدامه . وهذا حسب المفهوم الامريكي سوف يجعل القمر الصناعي في خدمة « الارهاب » .

من خلال أساليب الهيمنة السابقة ، فان وسائل الاعلام الغربية تنفذ إلى السوق العربية ، لتمارس دورها في التأثير على الثقافة العربية ، حيث تحاصر وسائل الاعلام الغربية الانسان العربي بالكلمة المسموعة والصورة المتحركة ، والكلمة المقروءة . إن الانسان في عصرنا يجد نفسه مشدوداً إلى سماع الخبر والتعليق ، وقراءة الصحيفة أو المجلة ، والاسترخاء مع قصة يقرأها ، أو مشاهدة برنامج مرئي ومن خلال ذلك كله ، أصبح الفرد يعتمد اعتماداً كبيراً على تحصيل المعلومات من وسائل الاعلام ، سواء أكان ذلك بطريق مباشر ، أو عن طريق شخص آخر تلقاها من وسائل الاعلام .

تأثير وسائل الاعلام من خلال تزويدنا بالمعلومات

اعتمادنا على المعلومات التي نتلقاها من وسائل الاعلام ، يتضمن مجموعة من التأثيرات على الفرد والمجتمع . وكما يرى روبرتس Roberts (١٩٧٧ : ص ٣٧٩ ـ ٣٨٤) فان وسائل الاعلام لها القدرة الهائلة على توجيه أنظار الجمهور إلى ما تنشره من معلومات ، فالجمهور عادة ينظر إلى هذه المعلومات على أنها هامة ومن ثم فانها تؤثر على قناعاته . كذلك فان وسائل الاعلام تنشر صور محرفة ومنحازة حول الظروف المحيطة بنا ، واذا كان الجمهور غير قادر على نقد مضمونها ، فان مثل هذه المعلومات ستصبح جزءاً من تصوراته وقناعاته .

وأيضاً فان وسائل الاعلام تحجب عن النشر معلومات هامة ، ولذا فان عدم وصول المعلومات الكاملة التي توضح الحقيقة للجمهور ، يمكن أن يحرف الطريقة التي بها ينظم الجمهور تصوراته للواقع ، وعلاوة على ذلك ، فان المعلومات التي يستقيها المرء من وسائل الاعلام ـ وخاصة فيما يتعلق في الأمور الجديدة على الانسان ـ لديها القدرة على التأثير على الشخص خالي الذهن من تلك الموضوعات .

وعلى سبيل المثال يمتلك الجهاز المرئي قدرة كبيرة في التأثير على الأطفال الذين هم في مرحلة التنشئة الاجتماعية ، ومستعدون لاستقبال أي معلومة جديدة تصلهم ، وبذا يصبح الجهاز المرئي هو احد وسائل التنشئة الاجتماعية الهامة في مجتمعنا .

وأخيراً فان وسائل الاعلام التي تؤثر على معرفة الانسان من خلال المعلومات تؤثر على سلوكه وعواطفه وقيمه وآرائه ، لأن المعرفة تشتمل في أحيان كثيرة على نماذج جديدة من السلوك والقيم والآراء .

أشرنا في البدء إلى أن تأثير وسائل الاعلام الغربية على المواطن العربي يحتاج إلى بحوث ميدانية ، ولكن علينا أن ندرك أن مثل هذا التأثير لا يتم فور تعرض الجمهور للرسالة الاعلامية ، وخاصة فيما يمس تغيير قيم الانسان وآرائه ومواقفه . ان فعالية التأثير ليست فورية ، ولكن يمكن أن تصبح حقيقة مع مرور الزمن . فالبرامج الاعلامية الغربية تمثل قيماً مختلفة وتعبر عن أيديولوجيات مختلفة وحينما يتعرض الجمهور لها بشكل منتظم ، فان لها تأثيراً كامناً يتعزز مع تكرارها مما يشكل تهديداً للقيم وللثقافة العربية ، ومما يسهم في خلق شخصية منسلبة ثقافياً .

الاذاعة المرئية الوسيلة الاعلامية الخطيرة

اذا كنا معنيين بوسائل الاعلام الغربية على الانسلاب الثقافي ، فاننا نرى أن أخطر الوسائل الاعلامية الآن في تهديد ثقافتنا القومية هو الجهاز المرئي . فهو الوسيلة الاعلامية الأولى المفضلة لدى الناس وخاصة ، برامجه الترفيهية ، وحيث أن نسبة كبيرة من البرامج الترفيهية تأتي من الغرب ، وحيث أن البرامج الترفيهيه لا تقل نسبتها عن ٥٠ ٪ من جملة البرامج في الاذاعات المرئية العربية ، فان هذا يعني أن الجمهور العربي يقضي أسبوعياً نسبة لا يستهان بها من الساعات ، لمشاهدة الأشرطة وبرامج المنوعات الأجنبية .

هذا مع الاشارة إلى أن بعض البلدان العربية قد تبنت تخصص قنوات خاصة لبث البرامج الأجنبية ـ مثل الأردن

والكويت وتونس وليبيا ـ بدون دراسة لمدى تأثير البرامج الأجنبية على جمهورها العربي .

واذا أدركنا أن أكثر المولعين بمشاهدة تلك البرامج الأجنبية هم من اليافعين الذين هم في طور التكوين الفكري ، لذا فان الاذاعة المرئية يجب أن تلقى عناية خاصة للأسباب التالية : ـ

١ ـ حيثما وجد الجهاز المرئي فانه يحل عادة محل وسائل الاعلام الأخرى . ففي فترة البث المرئي على سبيل المثال ، فان أهل البيت لا يستمعون إلى المذياع وحينما يكون هناك شريط مرئي فان الطالب يفضل مشاهدته على قراءة دروسه .

٢ ـ إن الجهاز المرئي وسيلة اعلامية جماعية يشاهدها الأطفال والكبار والنساء والرجال ، فهو اداة اجتماعية ، تؤثر بمجرد تواجدها على بعض العادات مثل الزيارات العائلية وطبيعة العلاقات الأسرية .

٣ ـ واذا أضفنا دخول الفيديو إلى كثير من البيوت ، وبأشرطته الأجنبية ، فان هذا جعل من كل بيت ، لديه جهاز فيديو ، عبارة عن محطة بث خاصة تجعل للجهاز المرئي أهميته في تنشئة الأطفال .

إن معظم الأشرطة الأجنبية التي تعرضها محطات الاذاعات المرئية العربية تستورد من الولايات المتحدة . ونظرة الى المسلسلات وبرامج السهرة في معظم الأقطار العربية تجعلنا نجد مسلسلات أمثال دالاس ، ملائكة شارلي ، بوننزا ، فيجاس ، كولومبو ، وغيرها الكثير . هذه المسلسلات تحمل معها ثقافة وقيم المجتمع الأمريكي ، وتقدم صوراً لذلك المجتمع . وخطورتها ان المتفرج العربي لا يمتلك القدرة أو الحس النقدي لما يشاهد . وما تقدمه هذه الأشرطة تبهره بدءاً من السيارات الفارهة إلى صورة الحياة الامريكية وانتهاءً بشخصية الفرد ـ البطل .

ويرى كومستوك ورفاقه Comstock et . al (١٩٧٨ : ص ٣٨٥) ، أن هناك ثلاث عمليات سيكولوجية ترافق الوسيلة الاعلامية بتأثيرها على جمهورها .

١ ـ تصور المشاهد الفوري لما يشاهده وتفسيره الآني لمضمون الرسالة الاعلامية .

٢ ـ عملية ذاتية تتم داخل الفرد ذاته .

٣ ـ الظروف المحيطة التي تسيطر وتتحكم في الفرد من حيث ماذا وكيف يتعلم .

إن هذه العمليات الثلاث بها ومن خلالها يمكن أن يتم أو لا يتم الانسلاب الثقافي . إن تصور المرء ـ لنأخذ مثلاً شخصية ستيف أوستن بطل مسلسل Six Million Dollar Man ـ يعتمد على عدة عوامل منها مستواه التعليمي ، وثانياً ، موقفه الفكري وبالتالي قدرته النقدية على قراءة معنى أن يكون الانسان آلياً ذا قيمة تبلغ مليون أو ألف مليون دولار . . . إن التصور الفوري يختلف من شخص إلى آخر كما أشرنا . واذا كانت الظروف المحيطة التي تسيطر وتتحكم في التنشئة الاجتماعية ـ كالام والأب ـ يمكنها أن تكسب التصور الآني تفسيرات أخرى ، فاننا لا نستطيع أن نعتمد عليها كلياً ، حيث أن جماهيرنا في غالبها أمية ، وحتى أن نسبة كبيرة من المتعملين هم أشبه بالاميين ، اذ انهم لا يمتلكون الحس النقدي القادر على التمييز . ومن هنا ففي العملية السيكولوجية الذاتية ـ التي تتم داخل الفرد ذاته ـ يكمن خطر التأثير الاعلامي الغربي في تكوين شخصية منسلبة ، تلك التي تمثل شخصيات غربية وقيماً غربية .

ففي دراسة أعدها توفيق فرح (١٩٧٧ : ص ص ٩٦ ـ ٩٧) حول التنشئة السياسية الاجتماعية للأطفال الفلسطينيين جاء ما يلي :

« حاولنا أن نميز قيم الاطفال من خلال أسئلة اختبارية تشتمل السؤال : من هو بطلك ؟ فالغالبية الساحقة أشارت اجاباتهم على أنه أحد أعضاء المقاومة الفلسطينية مثل : الفدائي ، أبو عمار، أبو علي اياد ، ليلى خالد ، واثنان ذكرا اسمي نجمي كرة قدم ، وطفل ذكر أنه الرجل الذي كلف ستة ملايين دولار Six Million Dollar Man وكم من الأطفال الآخرين الذين ينظرون إلى شخصيات كهذه باعتبارها نماذجها وابطالها وكم تخلق هذه الافلام من الصور المشوهة لدى الأطفال ؟

التأثر المتوقع للاذاعة المرئية

يتمثل تأثر الاذاعة المرئية فيما يلي :

١ ـ ان الجهاز المرئي يستهلك وقتاً كبيراً من وقت الاطفال والمراهقين ، في حين أن هذا الوقت كان يمكن أن يستثمر في نشاطات أكثر فائدة . وخاصة ان معظم البرامج التي يشاهدها هؤلاء الأطفال والمراهقون ليست مخصصة لهم ولا تلبي حاجات التنشئة الاجتماعية الأساسية .

٢ ـ إن ما يعرض يمثل في أغلب الأحيان نماذج للاحتذاء بدون القدرة على التمييز بين السيء والحسن من الشخصيات . ويؤثر الجهاز المرئي على توقعات المشاهد وسلوكه بمشاهدة شخصيات مختلفة . . وقد تؤثر بدورها على طموحات المشاهد الوظيفية .

٣ - التلفزيون (كأحد وسائل التنشئة الاجتماعية) يؤثر على المعتقدات والقيم وصياغتها . وان التعرض لقيم مختلفة من خلال البرامج الغربية المختلفة يؤدي إلى خلق الاضطراب في الشخصية وبحثها عن البديل وذلك واحد من مظاهر الاستلاب .

٤ - إن عالم الجريمة الذي يصاحب كثيراً من البرامج الأجنبية يخلق ظروفاً نفسية يمكن أن تعزز الميل للسلوك العدواني .

٥ - ان الاعلانات التجارية يمكن أن تخلق رغبة في الاستهلاك غير ضرورية لدى المواطن . وكذلك فان الاعلان التجاري عن أشياء الأطفال يمكن أن يؤدي إلى ضغط غير اخلاقي على الآباء ، لشراء ما يرغبه الأطفال ، وهم غير قادرين على ذلك أو غير راغبين به .

٦ - إن الجهاز المرئي - في أحوال كثيرة - يقف جنباً إلى جنب مع المؤسسات التقليدية للتنشئة الاجتماعية مثل العائلة والمدرسة ، ولكن خطورته انه حر من العديد من الكوابح والموانع الأخلاقية المفروضة على هذه المؤسسات التي تتعامل مع الطفل . ومن ثم فان الأطفال يتعرضون في مشاهدتهم للبرامج الغربية إلى عالم الكبار في حين أن مثل هذا التعرض يؤدي إلى خلط القيم لدى الأطفال .

لقد أدى الغزو الثقافي الغربي من خلال وسائل الاعلام الى النتائج التالية والتي بحاجة الى دراسات معمقة .

١ - التأثير على الثقافة التقليدية ويظهر هذا بوضوح بتأثيرها على الفلكلور وانحدار الفنون التقليدية واختفاء بعض أشكالها . ولعل التأثير على الاغاني والموسيقى الشعبية مثال واضح للجميع .

٢ - ثورة التوقعات التي قال بها ليرنر Lerner حيث أن وسائل الاعلام بمفعولها للاطلال على العالم الخارجي زوّد الناس بتوقعات وطموحات من الصعب اشباعها مما أدى إلى زيادة الاحباط . وهذا يؤدي احياناً إلى البحث عن عالم التوقعات في خارج حدود الوطن ، من خلال الكلمة أو الصورة وتصبح تلك النماذج الخارجية وكأنها عالمه المثالي الذي يحلم به . ومن هنا تأتي صورة من صور الانسلاب .

٣ - تقديم ثقافة لاستهلاك المواطن العربي وذلك من خلال الاعلانات التي تشجع الروح الاستهلاكية على حساب الانتاجية وبذلك اسهمت الاعلانات اسهاماً فعالاً في خلق ذهنية استهلاكية تقع ضحية الاعلان ، وتتابع ما يستجد من بضائع .

٤ - تقدم البرامج الغربية قيماً تعكس ثقافات مجتمعها مما يؤثر في تشكيل القيم العربية السائدة ويعمل على تغييرها ، وهذا بدوره يؤثر على مواقف الأشخاص ويخلق لديهم نوعاً من الوعي المصطنع الذي يقود الى الانسلاب .

٥ - خلق صور مشوهة عن العالم الخارجي بما يخدم الغرب ، ومما يؤدي إلى تحريفات في تصور المرء لواقعه . وهذا يؤدي إلى تمثل الاشخاص بالصور التي فرضت عليهم وقبولها وكأنها واقعهم أو نماذجهم التي يجب أن تحتذى .

٦ - التأثير على الروح المعنوية على مستوى جماعي وفردي .

إن التركيز في الصفحات السابقة على أهمية تأثير وسائل الاعلام الغربية على انساننا العربي وثقافته ، لا يعني قفل الأبواب أمام الثقافات الأخرى ، ولكننا نوجه الانظار إلى خطورة ما يمكن أن تؤديه الى انسلاب ثقافي في وطننا العربي ومن ثم يكون البحث عن سبيل حماية الثقافة القومية بدون انغلاق ضرورة ملحة . ونحن اذا كنا نؤمن بشمولية الفكر الانساني ، فاننا نؤمن بخصوصية تطبيقه ، وبخصوصية الثقافة . إن النظريات والفلسفات سواء أكانت من الشرق أو الغرب ان كانت صالحة فهي تصلح في اطارها الثقافي التاريخي والاجتماعي . ومع هذا فاننا لا نريد من هذا انغلاقاً يؤدي الى بحث عن سلفية تكون مجرد رد فعل عاجز للتحديث والتحدي الخارجي ، أو مجرد دفاع متقوقع على النفس . ولا نريد انسلاخاً عن ثقافتنا بحيث يشكل تبعية للثقافات الأجنبية . إن ما نريده وما نحتاج اليه فكر نقدي ينبع من خلال واقعنا وتجربتنا ، فكر متفتح قادر على الاستفادة من تجارب الآخرين في هذا العالم الذي تمتد أطرافه ، ولكن تضيق المسافات بين أبعاده .

إننا لا نريد أن نرى الانسان العربي ضائعاً غريباً في بلده ولا نريد أن نرى بين صفوفنا صورة الشخصية المنسلبة كما يصفها ناثيلد نيل Nathilede Neil (١٩٦٦ : ص . ص ٣٣٥ - ٣٣٦) بقوله :

« الانسان المنسلب لا يمكن أن ينجح سواء في ان يكون نفسه أو في أن يعيش في حالة تركيب خلاقة مع البشر والأشياء الأخرى . انه لا يعيش مع الحاضر وهو مهتم فقط بالمستقبل مما يقوده إلى البحث عن نوع من المطلق ، أو يقوده إلى رغبة في الانسجام مع النموذج المثال . إن الانسان المنسلب لا يفكر أو يعمل بذاته ، انه دائماً يعزو الأمور إلى شخص آخر خارج ذاته ؛ مثل التقاليد ، والعقيدة الايديولوجية ومخلوق مبهم أو

أكمل . انه لا يعرف كيف يعيش في حوار مع الآخرين أو سلام خارجي . انه دائماً في حاجة إلى شخص آخر ، ليقدسه أو يخدمه ، يكرهه أو يقاتله . انه يقضي حياته متعقباً شيئاً إما مادي الهدف - يتحول إلى مطلق مثل الرغبة في الثروة أو الراحة أو رموز الوجاهة - وإما روحي الهدف وهو يتحول أيضاً إلى مطلق ، مما يقوده إلى ازدراء الحياة والعالم . وهو يعتقد احياناً انه حصل على المطلق ، ومن ثم فانه مبتهج ومتوقع ، وفي احياناً أخرى يشعر بالاحباط ، ومن ثم فهو يائس وقانط . يقضي حياته في الرغبة والأمل والتطلع والعبادة والاستخفاف . الانسان المنسلب المتوتر متأهب للقتال ، عنيف وضيق الأفق ، غير متسامح وسلطوي ، انه الانسان العاطفي ولكنه أيضاً انسان جبان يخشى السلطة ، ويخشى أن يفكر ويفعل كما يفكر الآخرون ويعملون . انه جبان هياب ممتثل ، انه انسان قطيعي » .

مقترحـــات

حيث اننا معنيون بدراسة أشكال التبعية الثقافية في الوطن العربي فان هذه المسؤولية لا يمكن أن تتم من خلال جهد الأفراد . ان دراسة وسائل الاعلام وتأثيرها على الافراد والمجتمعات تجد اهتماماً خاصاً في معظم انحاء العالم ، في هذ العصر الذي أقل ما يوصف بأنه عصر الاعلام .

وللأسف ، فان الجامعات العربية التي تهتم بتخريج الاعلاميين ، لا تهتم بتخريج الباحثين ، الذين يدرسون تأثير وسائل الاعلام على المجتمع . ولعل هذا العجز تقع مسؤوليته كذلك على علماء الاجتماع والانثروبولوجيا ، الذين تعنيهم وسائل الاعلام وتأثيرها على الافراد والمجتمع والثقافة . وحيث يفتقر الوطن العربي إلى مركز للدراسات الميدانية الاعلامية ، فانني اقترح انشاء **مركز أبحاث للدراسات الاعلامية العربية** ، ويكون هدف هذا المركز اجراء دراسات حول تأثير وسائل الاعلام على الافراد والجماعات والثقافات . واعتقد أن مثل هذا المركز اذا كانت له صلة ما بجامعة الدول العربية فستتاح له فرصة تعاون الباحثين من كل أقطار الدول العربية وسيتيح امكانية اجراء بحوث ميدانية في كل الاقطار العربية ، ومن ثم فان مسؤوليات هذا المركز - أو لنقل ان مسؤوليات البحوث الاعلامية الملقاة على عاتق الاعلاميين وعلماء الاجتماع والانثروبولوجيا العرب - تتمثل فيما يلي على سبيل المثال لا الحصر :

١ - بحوث ميدانية عن تأثير البرامج الأجنبية على المواطن العربي وخاصة الأطفال واليافعين .

٢ - بحوث ميدانية عن تأثير الاعلانات على المستهلك العربي .

٣ - اجراء دراسات تعتمد على أسلوب تحليل المضمون لما ينشر في الصحف العربية من اخبار عالمية وتأثيرها على الرأي العام .

٤ - دراسات تعتمد أسلوب المضمون لما ينشر في الصحف العربية من دراسات مقالات مترجمة وتأثيرها على الأفراد .

٥ - بحوث ميدانية عن برامج الأطفال وتأثيرها على تكوين شخصية الطفل .

٦ - بحوث عن تأثير الثقافات الأجنبية على التراث الشعبي .

٧ - دراسات عن قصص ومجلات الأطفال أمثال السوبرمان والوطواط ودورها في تشكيل تصورات الطفل للعالم الخارجي .

٨ - دراسات عن تدفق المعلومات بين أقطار الوطن العربي .

٩ - دراسات عن تدفق المعلومات من العالم الغربي إلى الوطن العربي .

١٠ - دراسات عن البرامج الاذاعية المسموعة والمرئية ومدى تخصيصها من نسب نوعية وكمية للبرامج الثقافية والترفيهية وغيرهما .

١١ - ان اهتماماً خاصاً يجب أن يركز على دراسة تأثير اذاعة العدو الصهيوني المرئية والمسموعة على المواطن العربي وخاصة في المناطق المحيطة بالكيان الصهيوني مثل الأردن وسوريا ولبنان ومصر والأراضي المحتلة .

١٢ - دراسات عن دور وسائل الاعلام في التنمية .

١٣ - دراسات عن تأثير الاذاعات الأجنبية كاذاعة لندن ، مونت كارلو ، صوت أمريكا ، على الرأي العام العربي .

١٤ - ترجمة أهم النظريات والابحاث الاعلامية من اللغات الأجنبية الى اللغة العربية .

هذه بعض المقترحات . وتظل مسألة تأثير وسائل الاعلام الغربية على الثقافة العربية أمراً نظرياً ما دمنا لم نقم باجراء الدراسات والبحوث حولها وتلك مسؤولية عسيرة !

المراجع :

- Blum, Robert (ed) (1963) *Cultural Affairs and Foreign Relations.* Englewood Cliffs, N. J. U. S. A. Prenticehall, Inc.
- Comstock, George, et al (1978) *Television and Human Behavior.* New York ; Columbia University Press.

- Ellul, Jacques, (1973) Propaganda : The Formation of *Men's Attitudes*. New York : Random House, Vintage Books.
- Farah , Tawfic (1977) « Political Socialization of Palestinian Children in Kuwait » in *Journal of Palestine Studies :* Vol. VI, No 4 Summer 1977 issue 24 pp. 90 - 102.
- Haster, Al (1974) « International News Agencies » in *Mass Communications : A World View* . , (ed .) Alan Wells. Palo Alto , California : Mayfield Publishing Co.
- Lerner , Daniel (1964) The Passing of Traditional Society : Modernizing the Middle East , London : Collier - Macmillan Limited , The Free Press of Glencoe.
- McNair , Raymond (1982) « The International Language » in *The Plain Truth* . Vol 47 No. 2 February 1982.
- McPhail ,Thomas L. (1981) *Electronic Colonialism : The Future of International Broadcasting and Communication* Beverly Hills - London : Sage Publication.
- Niel , Mathile (1966) « The Phenomenon of Technology : Liberation or Alienation of Man » in *Socialist Humanism* . (ed) Erich From . Garden City , New York : Doubleday and Co. , Anchor Books.
- Nordesntreng, Kaarle and Tapicvaris (1974) *Television Traffica One Way Street ?* Paris : UNESCO.
- Roberts , Donald F. (1977) « The Nature of Communication Effect » in the Process and Effects of Mass Communication . (ed.) Schramn and Roberts . Urbana , Chicago , London : University of Illinois Press.
- Schatz , Oskar and Ernest Florian Winter , (1966) Alienation , Marxism , and Humanis (A Christian viewpoint) in Socialist Humanism . (ed) Erich Fromm , Garden City, New York : Doubleday and Co. Anchor Books .
- Smith , Anthony (1980) The Geopolitics of Information : *How Western Culture Dominates the World* . New York Oxford University Press.

الغزو الثقافي الغربي الممهد والمتوافق مع الاستعمار الحديث في الوطن العربي

الدكتور وجيه كوثراني

ثمة مرحلة تاريخية شكلت علي امتداد القرنين الخامس عشر والسادس عشر شكلاً لتلاق وافتراق بين وضعين تاريخيين - جغرافيين ، وبداية مسار لعلاقة ستتحدد لاحقاً بين هذين الوضعين في صيغة « مركز واطراف » في صيغة سيطرة واستتباع :

- **الوضع الأوروبي** الذي خرج من انكماشه التاريخي الطويل مرة ثانية بعد الحروب الصليبية التي كان من أبرز نتائجها الاقتصادية نمو المدن في أوروبا وتمركز الثروة المنهوبة من الخارج فيها[١] . هذا الخروج تم عبر حركة التفاف على العالم الاسلامي والبحر المتوسط واكتشاف رأس الرجاء الصالح طريقاً إلى الهند والوصول إلى « القارة الجديدة » عبر الأطلسي . هذا الحدث الذي يدرس كجزء من النهضة الأوروبية حمل في طياته عنفاً دموياً مورس بلا أي قيد ضد الحضارات المهاجمة بصورة قرصنة ونهب للثروة والانسان .

-**والوضع الشرقي الاسلامي** (ومن جملته الوضع العربي)الذي كان يحاول آنذاك أن يخرج تباعاً من نتائج غزوة هولاكو لبغداد وآثار الحروب الصليبة ، وغزوة تيمورلنك . وكانت الدولة العثمانية قد برزت قوة سياسية اسلامية كبرى : اخترقت أوروبا من ناحية البلقان ووصلت حدود النمسا ، وتصدّت وأوقفت الغزو الاسباني لشمال افريقيا . بيد أن هذه القوة التي استطاعت أن تمنع الاختراق الأوروبي من ناحية المتوسط ، لم تكن لتستطيع أن تصمد طويلاً من خلال بنيتها كدولة - جباية في علاقتها بالمجتمع . فالمؤسسة العسكرية العثمانية بارتباطها بنظام الاقطاع ، ثم بنظام الجباية القائم على الالتزام الضريبي ، ما لبثت أن تفككت وتشرذمت[٢] . ومن المفيد أن نلاحظ أيضاً أن هذا السبب وحده غير كاف لتفسير احتمالات الاختراق الغربي للعالم الاسلامي . فمن المعروف أن ازدهار هذا العالم كان قد ارتبط في مراحل تاريخ حاضراته المختلفة بالتجارة ، حيث تشكلت دوائر تجارية متداخلة . وقد توزعت هذه الحاضرات فائض التجارة دون أن يطغى مركز على طرف . لقد توزع الازدهار في العصور العباسية مثلاً من سمرقند إلى مدن المغرب مروراً ببغداد ودمشق والمدينة ومكّة[٣] . أما بعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح الذي توج انحداراً في العالم الاسلامي منذ هولاكو الى الحروب الصليبية ، فقد انقطعت الطريق نهائياً على احتمال تحريك حركة التبادل التجاري داخل العالم الاسلامي وبقيادة الدولة العثمانية . لقد وجدت هذه الأخيرة نفسها في القرن السادس عشر أمام جمود اقتصادي عام . وقد تعمق هذا الجمود بفعل انتزاع الملاحة البرتغالية حركة التجارة العربية في المحيط الهندي ، وضربها الملاحة العربية والاسلامية[٤] . ولذلك اعتقدت الدولة العثمانية في مطالع القرن السادس عشر - وهي في أوج قوتها العسكرية أن منحة الامتيازات للتجار الأوروبيين لارتياد أسواق الدولة العثمانية كمستأمنين من شأنها أن تحرك عملية التبادل التجاري وتغني الجباية التي يقوم عليها خراج الدولة[٥] .

لكن الانفتاح على التجارة الغربية في ظل هذا الجمود وفي سياق استنزاف النقد المعدني من البلاد ، وفي ظل اندفاع التجار والمغامرين الأوروبيين لاقتحام العالم ، واقتسام الأرباح الناتجة عن استنزاف الثروات المعدنية بينهم وبين دولهم التي وضعت تحت تصرفهم اساطيلها وجيوشها ، كان يؤدي تدريجياً الى تشكل سلطات محلية غربية في الداخل العثماني عبر المواقع الاقتصادية والسياسية التي حققتها معاهدات الامتيازات الأجنبية للجاليات التجارية الأجنبية .

ومع الثورة الصناعية الأوروبية التي قامت على استنزاف الأطراف ، لا على التراكم الداخلي (الأوروبي) تحول الطرف إلى سوق متخصص تابع . ولضمان هذه التبعية وتوسيعها شملت الامتيازات الأجنبية صعداً أخرى من النشاط ، كان أبرزها حركة التبشير والارساليات التعليمية .

بذلك وحتى نهاية القرن التاسع عشر - كانت قد تحققت تبعية كاملة للمركز الأوروبي ، أكان ذلك على مستوى الدولة (وذلك عبر الديون وضغوط المصارف الأجنبية) ، أو على مستوى التجار المحليين (وذلك عبر انخراط هؤلاء في شبكة علاقات التبادل مع أوروبا) أو على مستوى قطاع من الاقتصاد اذ أصبح الارتباط كاملاً على مستوى السلعة ، والسكة الحديدية ، وشق الطرق ، والمصرف ، والمرفأ ، والعلم والمدرسة[٥] .

هذا الاستتباع في علاقة الوضعين الجغرافيين التاريخيين أكّدته

سيطرة قدمت نفسها « عالمية » في مشروعها الحضاري والثقافي والعلمي والسياسي . إذ يصل الأمر باحدى الدول الأوروبية (المملكة البريطانية) في حرصها ان تنشر قيمها الحضارية التجارية في العالم إلى حد فرض تجارة الافيون على الصين بالعنف والقوة . وتخوض بريطانيا من اجل ذلك حربين ضد أمبراطور الصين ، لأن هذا الأخير تجرأ أن يمنع المراكب الأنكليزية من تهريب الأفيون إلى شواطىء الصين ، فمس بذلك « قدسية » قانون حرية التبادل العالمي[٧] . كذلك تفرض أوروبا على السلطان عبد المجيد اتفاقية جمركية لا تتعادل فيها رسوم الواردات مع رسوم الصادرات ، ويهدد محمد علي باشا بالأسطول الانكليزي اذا لم يتخل عن مشروعه التضييقي « الاحتكاري » واذا لم يفتح أبواب مصر على مصراعيها للسلع الأجنبية[٨] . ويتحول بفعل الضغط الأوروبي نظام الملل العثماني الى نظام امتيازات للأقليات ، امتيازات تمنع عملية التوازن الاجتماعي ـ الأهلي وتدفع بالاقليات الى مشاريع بناء دول تقوم على النموذج الغربي وتتقاطع مع مشاريع مناطق النفوذ ومشاريع التقسيم في الشرق العربي[٩] . وتنزل الحملة الفرنسية في سورية عام ١٨٦٠ بحجة حماية الكاثوليك والموارنة ، لتضمن لتجار الحرير الفرنسيين مصدر انتاجه في جبل لبنان ولتساعد على إقامة وضع سياسي مستقر « للأصدقاء المحليين » ولتضغط على السلطان في شأن صفقة دي لسبس في قنال السويس ولتدعم الارساليات التبشيرية ومشاريعها . وتكر سلسلة الاحتلالات الأجنبية للبلاد من الجزائر الى تونس ، فمصر ، فليبيا ، فالعراق فبلاد الشام . . إلى أن تستقر إلى صيغة « الدولة الحديثة » في الاقطار المجزأة كصيغة اندراج في « الوصاية » أو الانتداب أم المساعدة للدخول في « عالمية » الحضارة الغربية من حيث الاستهلاك والثقافة والقيم .

في اطار هذه العلاقة يحرص المركز الغربي على القضاء على اشكال المقاومة الأهلية المحلية وتكييف الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية في الداخل وفق النموذج الحضاري الأم . وذلك في حركة توسع دائم للسوق الرأسمالي في المناطق التي تختلف من حيث الثقافة والانتاج والاستهلاك والقيم والأذواق . وهنا يلعب « الغـزو الثقافي » ضمن صيغـة « التثقيف والتمدين » واحيـاناً « التحديث » الدور الممهد لهذا التوسع الذي تبرز فيه قطاعات اجتماعية وثقافية متوافقة في الداخل مـع توجهـات الاستعمار الحديث .

بهذا المعنى يصبح « الغزو الثقافي » الغربي عملية دائمة في تاريخ علاقة الاستتباع والسيطرة . فهو لا ينتهي كممهد عند مدارس الارساليات في القرن التاسع عشر مثلاً ، بل انه يبدأ من هناك ويستمر حتى اليوم عبر شبكة معقدة من الأقنية الثقافية الحديثة . . اذ طالما أن هناك حاجة لتطويع المناطق الممتنعة عن الاستهلاك الغربي ، وطالما أن هناك مستجدات في هذا الاستهلاك (مستجدات تقدم كحاجات في عملية تغيير الأذواق وقيم الثقافة ونمط الحياة) ، وطالما أن هناك « ضرورة » لتجديد الغلبة السياسية للغرب في علاقة تبعية دائمة متجددة ، طالما أن هناك ضرورة لتجديد الغزو الثقافي بصيغ مختلفة ، ابتداء : من السلعة النسيجية التي تقلد السلعة المحلية وتستجيب للذوق المحلي ، وانتهاء باستخدام آخر ما اكتشف من آلات الكترونية وذلك بمعزل عن حاجات الانسان ووضع القوى العاملة وانماط المعاش ، ومروراً باستيراد أفخم السيارات وسلع الترف تلبية لحاجات شخصية طفيلية .

وكل ذلك يسير جنباً إلى جنب مع الاختراق الثقافي لمناهج الفكر السياسي العربي ، ولمناهج العلوم الانسانية وحتى لمناهج دراسة الاسلام ودراسة التاريخ العربي الاسلامي .

يحدثنا المفكر الايراني الشهيد علي شريعتي في احدى محاضراته : « الحضارة والتحديث »[١٠] ، عن مثل ذي دلالة على الجهد الذي تبذله الرأسماليات الغربية ودولها في استخدام العلوم الاجتماعية والنفسية والانتروبولوجية في فهم العوائق التي تقف في وجه الاستهلاك الغربي ، وتحديد الوسائل التي تؤدي إلى توحيد العالم من حيث القيم والأذواق الاستهلاكية للسلعة الحديثة . يقول : « بينما كنت أدرس في أوروبا أعلن مصنع للسيارات عن حاجته لاستخدام طالب في علم الاجتماع وطالب آخر في علم النفس ، وبأجر جيد ، ولما كنت آنذاك أبحث عن عمل ، فضلاً عن اهتمامي أن أعرف لماذا يحتاج مصنع للسيارات الى عالم اجتماع وعالم نفس تقدمت إلى هذا العمل . وفي المقابلة التي جرت مع مسؤول العلاقات العامة في المصنع ، بادر هذا الأخير بقوله : « انك تتساءل لماذا نتوجه الى من درس علم الاجتماع في حين أنه يفترض أن نتوجه الى من يدرس العلوم التقنية » . ولما اجبته بالموافقة أخذ يشرح لي بعد أن تناول خريطة لآسيا وافريقيا . قال : لنأخذ مثلاً مدن A. B. C. D ان سيارات المصنع تباع هنا بشكل جيد ، بينما في مدن X. Y. Z لا نجد مشترين لها . وتابع : ليس المهندس هو الذي يمكن أن نطلب منه معرفة السبب ، بل عالم الاجتماع هو الذي ينبغي له أن يفهم ما هو ذوق هؤلاء الناس ولماذا لا يشترون هذه السيارات ، حتى اذا كان الأمر يتعلق بنا غيّرنا اللون أو الموديل . واذا كان الأمر لا يتعلق بنا غيّرنا ذوق الناس . . . ويعطي المسؤول أمثلة عن الاختراق الذي تمكنت منه شركة (رينو) حيال قبيلة تعيش على ضفاف تشاد وذلك من خلال تمكين رئيس القبيلة من اقتناء سيارتي « رينو » فخمتين واحلال قيمة اقتناء السيارة (كقيمة معنوية ـ اجتماعية للزعامة) محل اقتناء«جوادين»كانا سابقاً رمزاً لسلطة الزعيمين . وقد استتبع ذلك تعليم سوق السيارات من خلال خبراء الشركة ، والمساعدة في البدء بشق طريق لبعض الكيلومترات كتمهيد لاشاعة حاجات اقتناء السيارات مع كل ما يستتبع ذلك من توسيع شبكة الاستهلاك الغربي على كل الأصعدة ، حتى على صعيد ايصال عطر (كريستيان ديور) لنساء القبيلة اللواتي كن يتجملن بمواد نباتية تستخرج من أشجار الغابة»[١١] . تلك هي النقلة التي يسميها مسؤول العلاقات العامة

في شركة « رينو » تحديث القبيلة ، ونقل الحضارة اليها . وهو تحديث يقتضي كما يقول شريعتي ، تغييراً في التقاليد ، وعبوراً من القديم إلى الجديد في مجال الاستهلاك في الحياة المادية . . . بهذا ينبغي على كل ما هو غير أوروبي أن يصبح حديثاً . أي أن يصبح كل البشر موحدين حول نموذج الانسان الأوروبي . والوسيلة الموصلة إلى ذلك هي في تغيير الثقافات المحلية وفي تغيير الدين أو تكييفه وفي القضاء على التقاليد والقيم والأذواق[١٢] .

إن بعض الاتجاهات التحديثية في الوطن العربي وفي العالم الثالث على وجه الاجمال تحاول ضمن شعار « العقلانية » وعالمية القوانين العلمية « وحتميتها » في تاريخ المجتمعات الانسانية أن تتحدث تارة عن جوانب ايجابية في علاقة أوروبا « بالخارج »[١٣] ، أو عن ازدواجية أو تعددية ثقافية وحضارية حصلت بفعل التثاقف[١٤] ، أو عن احتمالات لاختيار أيديولوجيات ثورية غربية نافعة للوطن العربي ولمجتمعات العالم الثالث[١٥] .

هذه الاتجاهات تعبر في الواقع عن حالة الضياع الثقافي الذي يميز علاقة المغلوب بالغالب . فعندما تقدم الخيارات من قبل الغالب وحده لا يمكن الحديث عن « ازدواجية ثقافية » ولا يمكن الحديث عن تلاقح ثقافي وأخذ وعطاء . . . ان ما يحصل فعلاً في اطار العلاقة غير المتكافئة هو شكل من أشكال التقليد لبعض تيارات الثقافة الغربية ، وشكل من أشكال الاختراق للثقافة العربية الاسلامية يسمح بتكييفها وتطويعها وفق متطلبات النموذج الحضاري للغالب والذي هو بالدرجة الأساسية نموذج انتاجي استهلاكي يتحول معه الانسان الى آلة أو جزء من الآلة .

ولعل ما يفسر هذا التوافق مع وجهة السيطرة الغربية على مستوى المثقف المحلي هو أنه بُني لأوروبا وللعالم تاريخ افتراضي قام على « أدلجة » السبب في فهم نهضة أوروبا وثورتها الصناعية . وفي تحليل ما أطلق عليه الجمود والتأخر والتخلف في تاريخ البلدان المستتبعة . اذ قدم سبب نهضة أوروبا الرأسمالية على أنه العلم والمدرسة ، والعقلانية ، وطمس التفكك والجمود الاقتصادي العام الذي كان من جملة أسبابه التفاف أوروبا على اقتصاد المتوسط ، واستنزاف النقد المعدني من الأسواق ، والقضاء على انتاج الحرف المحلية . . ونسبت المقاومة الأهلية التي قامت ضد هذا التدمير الحضاري الى عقلية التحجر والتعصب الديني وعدم الاستعداد للانفتاح للتعلم من الآخرين المتمدنين . حتى نصح بعض رواد عصر النهضة بضرورة محاسنة المستعمرين للافادة منهم (فارس نمر)[١٦] ، ووصل ببعضهم الأمر إلى التبشير بنظرية«كوسمو بوليتية» للعالم تطمس فيها الثقافات المحليةوالمصالح القوميةوالوطنية،فيرى شبلي الشميل مثلاً أنه من الخطأ أن يقوم المجلس التشريعي في مصر عام ١٩٠٩ بمعارضة تمديد امتياز قنال السويس للانكليز ، لأن القنال قناة عالمية[١٧] .

ويذهب التنظير المركزي الأوروبي في اعادة كتابة التاريخ العالمي في مرحلة التوسع الاستعماري لفرض صورة تاريخية عالمية لكل الشعوب ، تصل مع ارنست رينان ، في دراسته لعلاقة المسلمين بالعلم والفلسفة والتطور الى اعتبار الاسلام والمسيحية الشرقية السامية سبباً في التأخر والتخلف . وتصل العقلانية الأوروبية مع رينان إلى تقسيم عنصري للحضارات وانتاج العلوم . اذ يقول : « فهذه المقدرة على الانتاج الحضاري مقصورة على العرق الآري ، والساميون بتمثلهم الديني البسيط الذي تشكل المسيحية البدائية الشرقية أحد روافده ـ يمثلون ازدراء الفنون والفكر الحر . . . يمثلون جمود العقيدة وتبسيطية الايمان »[١٨] .

ولم يعدل هذه الصورة السائدة بعض محاولات الاستشراق المتعاطف مع الاسلام . فالصورة السائدة هي في ازدراء الحضارات الأخرى المختلفة في توجهها ونظرتها للانسان والوجود والسلطة . وحتى في حال ابداء « شهادة الانصاف » بحقها في بعض الموضوعات ، فانها تتم من خلال تقويم المتشابه فيها مع أوجه النظرة الأوروبية . لذلك يُفصل ابن رشد مثلاً عن الحضارة العربية الاسلامية ويربط بالهلينية والعقل اليوناني[١٩] . وكذلك يُنظر ابن خلدون كحالة فريدة بل شاذة في التاريخ العربي فينظر اليه من داخل أوروبا لا من داخل الاسلام[٢٠] . وحتى جمال الدين الافغاني في منهجه الفلسفي يربط في نظر ارنست رينان اليه بأصله الآري ، هذا الأصل الذي يعتبره مصدراً وحيداً للفكر الفلسفي والعلمي .

واذا كان رينان يمثل حالة عنصرية من حالات الثقافة الغربية في تعاملها مع الثقافات الأخرى،فان النظرة الاستشراقية المتعاطفة بقيت أسيرة علاقة السلطة بالمعرفة في مرحلة تشكل سيطرة الغرب على العالم . وعلى وجه التحديد على العالم الاسلامي وعلى الوطن العربي . وهنا يقع المثقف المحلي في مزلق خطير عندما يحاول أن يحدد موقفه من الاستشراق على أساس انتقائي ومعياري من نوع « حسن ، وسيء وايجابي ، وسلبي وتقدمي ورجعي » وعلى أساس التصنيف لأشخاص المستشرقين ، بمعنى أن هذا كان تابعاً للدولة الاستعماريةأو مستشاراً لها، وذاك كان عالماً مستقلاً لا علاقة له بالسياسة . ان هذا المزلق يغفل عن موضوعة علاقة المعرفة بالسلطة وبالتحديد هنا بالسيطرة الغربية وأشكال التمهيد لها في الداخل . فالتراكم المعرفي الذي تكوّن في الغرب على قاعدة النصوص الاستشراقية التي كان بعضها ضد الحضارة العربية ـ الاسلامية وبعضها مع هذه الحضارة ومعجباً بها ، لا يمكن فصله عن أوالية السيطرة الغربية وعن طبيعة علاقة التفوق التي بنيت بين العالمين .

وهنا ، وعلى هذا المستوى ، لا أهمية للحديث عن مستشرقين معجبين بالحضارة العربية أو بالاسلام ، أو عن مستشرقين علماء حياديين . فالاستخدام الوظيفي للمعرفة لا يحدده حسن نية هذا المستشرق أو ذاك من معرفته . ذلك أن ماسينيون مثلاً وصل اعجابه بالصوفية الاسلامية إلى حد كبير . . وكان يعتقد أن من واجب

الغرب ، وواجب فرنسا بالتحديد أن تفهم المسلمين وتساعدهم ، وتستجيب لمطالبهم . ومع هذا كان مستشاراً لوزارة الخارجية الفرنسية ووضع معرفته بالاسلام في تصرف المفوضية الفرنسية في سوريا في عام ١٩٢٥ للمساعدة في حل مشكلة الانتفاضة السورية آنذاك .

وهذا الدور لا يقلل من أهمية ماسينيون في معرفة الاسلام ولا يقلل من أهمية ابحاثه حول الحلاّج ، لهذا ينبغي أن ينظر للاستشراق من موقع النقد والاستيعاب لمرحلة تاريخية معينة في علاقة الغرب والشرق ، وبتحديد أكثر لعملية بناء السيطرة الغربية . وهذا من شأنه أن يجعل من النظرة نظرة علمية مستوعبة وواسعة لا تقوم على الفرز النمطي والانتقائي ولا تقوم على الرفض والتجاهل في موقف سلفي . بل تقوم على جعل الاستشراق جزءاً من الدراسات التاريخية ومصادرها عن الشرق والغرب معاً ، عن أوروبا والاسلام معاً ، عن طريق العلاقة بين الطرفين .

إن طرح موضوع الاستشراق بهذه الصيغة وهي الصيغة التي تطرحها المرحلة الراهنة : (مرحلة الاستقلال الثقافي في العالم العربي والاسلامي) ، يشكل أحد مؤشرات البدء بهذا الاستقلال الثقافي الواثق بالنفس ، حيث يتحول الاستشراق الى موضوع للدرس ويصبح جزءاً من معرفة أصابت وأخطأت ولكنها في الحالتين وظفت في مرحلة تاريخية معينة في مشروع تغلّب الغرب .

إن الاستقلال الثقافي يطرح بالاضافة إلى ضرورة هذا الاستيعاب الناقد للاستشراق باعتباره شكلاً من الاشكال الممهدة للاختراق الثقافي الغربي عبر تأثيرات فرضياته ومنهجيته في الداخل يطرح مهمة البحث عن الخلل المنهجي في ما أرسي في أذهان المثقفين العرب من أنماط منهجية في النظر والتفكير والمعالجة وذلك في شتى العلوم الانسانية التي تأسست في العصور الأوروبية الحديثة والتي وصلتنا عبر أقنية المؤسسات الحديثة ، وحتى في علوم الحضارة العربية الاسلامية نفسها كعلم التاريخ مثلاً .

فعلى مستوى الوعي التاريخي للمثقف العربي الحديث ، نجد تمثلاً لسياق التاريخ الأوروبي : ماضيه وحاضره ، نهضته وثورته الصناعية والتكنولوجية .

إن تمثل مفاهيم التاريخ الأوروبي حول هذه المسائل واعادة انتاجها محلياً على مستوى الخطاب المحلي ينعكس جملة من الشعارات والتصورات عن الماضي (أيديولوجياً) ، وهي تصورات تبني تاريخاً افتراضياً على قياس التاريخ الأوروبي نفسه ، وتتمثل دون نقد أو استيعاب نتائج علوم انسانية بنيت على تجريبية في واقع محدد لا ندري مدى توافقها مع التجربة المحلية .

ففي المنهج التاريخي يتم التحقيب بصورة تعسفية للتاريخ العربي ـ الاسلامي ، وذلك على أساس التحقيب الأوروبي المركزي للتاريخ : قديم ، ووسيط ، وحديث . وتلك مصطلحات تحمل مضامين محددة في الاقتصاد والأفكار والعلاقات الاجتماعية . لا يجوز سحبها على كل تواريخ العالم .

فالقرون الوسطى أو القروسطية تحمل في أوروبا مضمون سيطرة الكنيسة والاقطاع (بمعنى فيودالية) وتمثلاً للمسيحية الكاثوليكية قائماً على أعنف أشكال ضبط الانسان وكبته وسجنه في أتون من المحرمات[٢١] . بينما تقدم المرحلة التاريخية الاسلامية الموازية زمنياً نموذجاً حضارياً يتميز نسبياً بالانفتاح والتسامح والحرية . ومن مظاهر ذلك التعددية الدينية والمذهبية والتوليف الأقوامي بين الشعوب ، صراع الأفكار والاتجاهات ، التعبير عن العواطف في الحياة اليومية للانسان بصيغ نقلتها آنذاك كتب الأدب والسير والتراجم . وكان أقل تعبير عنها في الحضارة القروسطية (الأوروبية) يعرّض صاحبه لاطلاق الحرم والحرق وعقوبة التعذيب الجسدي[٢٢] .

ومع هذا ، فرض التوسع الاستعماري الغربي في سياق توسع الرأسمالية بين مركز وأطراف صورة استحضار التاريخ العربي والاسلامي هي صورة القرون الوسطى بالذات ، وصورة التحديث المرتبط بقيم النهضة وعصر الأنوار ، والثورة الصناعية والتكنولوجية ، وهي صورة تقدم نفسها في سياق حركة التوسع الرأسمالي انطلاقاً من المركز : « فيودالية » وقنانة وكنسية اكليركية من جهة ، وليبرالية وديمقراطية وعلمانية من جهة أخرى . تخلف وتأخر من جهة ، وتقدم وتطور من جهة أخرى . وكل هذه المصطلحات تقاس وفق المفاهيم التي أرستها التجربة التاريخة الغربية . وهي مفاهيم تحتل قاعدة النهج في البحث التاريخي والفكري ـ الفلسفي ، والاجتماعي ، والاجتماعي ـ النفسي .

وقد يحاول بعض المؤرخين الا يتقيدوا في التحقيب التاريخي الزمني الأوروبي من حيث امتداد الفترة الزمنية فيعتبر المؤرخ سعيد عاشور أن « العصر الحديث » بالنسبة لبلاد الشام مثلاً ابتدأ مع حملة ابراهيم باشا وان « العصر الوسيط » هو عصر الحكم العثماني . إلا أن مقارنته بين العصرين لا تستحضر الا النموذج الحضاري الأوروبي : القروسطية المرادفة لسيطرة الدين ، والحداثة المرتبطة بوضعية عقلانية هي انفلات العقل من سيطرة الدين . وهنا يتحول « المنهج العلمي » بالرغم منه (وبسبب رغبته كمسلم في عدم زج الاسلام في القروسطية) الى منهج عنصري معادٍ للأتراك العثمانيين بحيث تصبح كل المصائب مرتبطة بالسيطرة العثمانية ـ التركية التي تربط حكماً بالقروسطية الأوروبية[٢٣] .

والواقع أن وضع التاريخ التركي ـ العثماني في سياق التاريخ الاسلامي لا يضير الاسلام في شيء . لقد حلل ابن خلدون اسباب تحول الدولة العصبية إلى دولة مستبدة وجائرة بالرغم من انطلاقها من الدعوة وتمثل الشريعة ولم يشك احد في اسلامه . فليس في نسبة الحكم العثماني الى مرحلة القروسطية أي خلفية علمية . ويبقى أن البحث عن مرحلة قرون وسطى ، وعصور حديثة في التاريخ العربي

الاسلامي يعكس موقفاً يربطنا بالمركزية الغربية ، ويشكل احدى الصيغ المتوافقة ، مع السيطرة الثقافية للاستعمار الحديث .

ومن جهة أخرى يدفع تبني هذين المفهومين (القروسطية والحداثة) انطلاقاً من موقف الوضعية الأوروبية إلى انتقائية في البحث التاريخ والفلسفي تجعل الدين خارج التاريخ وتحرص على البحث عن ظواهر العصر الحديث الأوروبي في التاريخ الاسلامي : القومية بما هي ترجمة كمصطلح ومفهوم وأيديولوجيا بـ -Nationa (lisme) والأمة بـ (Nation) والدولة كنموذج اداري مؤسسي يدمج عضوياً الأمة والمجتمع . فنرى مثلاً احد الباحثين في الفكر الفلسفي العربي - ناصيف نصار - يعنون كتابه : « مفهوم الأمة بين الدين والتاريخ » (وكأن الدين ليس من التاريخ) ، ويحرص أن يجد لظواهر العصر الحديث الأوروبي جسوراً في نصوص التراث . ففي معالجته لمفهوم الأمة عند ابن خلدون يخلص نصار الى القول : « انه (مفهوم الأمة) من المفاهيم الخلدونية التي تعتبر جسوراً يمر عليها الفكر العربي من ثقافة القرون الوسطى الى ثقافة العصور الحديثة »[٢٤] .

هذا النزوع لدى المثقف المستعمر (بفتح الميم) المتوافق مع مفاهيم الغالب وقيمه والذي يبحث عن أصالته الثقافية في تراثه لكن بعد أن يخضع مصطلحات تراثه لمفهومية يعتبرها علماً (أي حقيقة موضوعية لأنها تتلاءم وتتوافق مع مفاهيم العلوم الانسانية الوضعية في أوروبا) ، هذا النزوع لا يطرح أي تساؤ ل أو شكّ حول علمية هذه المفاهيم ، أي كليتها وعالميتها . فالقرون الوسطى هي قرون وسطى بالنسبة للعالم كله. والعصور الحديثة، هي عصور حديثة بالنسبة للعالم كله . وان حاول البعض أن يميز تاريخه بالاختلاف الزمني فانه يتوافق في منهج مرحلته للحقبات مع المفاهيم والمضامين التي أنتجتها السيرورة التاريخية الغربية وفق تصور مراحل أنماط الانتاج ، أو وفق مراحل القديم والوسيط والحديث .

والتراث بالنسبة للمثقف المستعمر (بفتح الميم) هو حقل انتقاء يتواصل معه عبر جسور تربط بين المصطلحات والمفاهيم وذلك على أساس تحميل المصطلح التراثي مفهوماً حديثاً . والحديث دائماً هو في مدى التوافق مع المفهوم الذي تعلّمه المثقف المستعمر في الكتاب الأوروبي الذي يقدم صورة ايديولوجية للعلم . بيد أن الصورة الايديولوجية تصبح مع المثقف المستعمر العلم بعينه : فالدين والقومية والأمة والدولة والديمقراطية والعلمانية والاشتراكية . . . مفاهيم تكتسب تعريفات العلم بالباسها مضامين مرادفاتها الأوروبية وتصبح نقلاً عن ديدره ، ومازيني، ورينان، وماركس، ولينين ، وستالين . . حقائق كونية يستعيدها المثقف المستعمَر قوانين علمية وينصح بالعودة إليها في كل مناسبة لرسم طريق الخلاص .

وتأخذ نظريات التحليل النفسي والنظريات التربوية الغربية على يد بعض باحثينا طابع الترجمة والنقل وتلصق بأوضاع لم تدرس تاريخيتها وواقعها ووظائفها من الداخل : الدين ، القبيلة ، العشيرة ، العائلة ومختلف المؤسسات التاريخية المحلية المستمرة .

كل هذه الأمور تدخل بالنسبة لبعض الماركسيين في باب ما قبل الرأسمالية ، وتدخل بالنسبة للتحديثيين في تصنيف أبسط هو قطاع التخلف المترسب من القرون الوسطى[٢٥] . وتصبح هذه المصطلحات في الدراسات الاقتصادية والاجتماعية والنفسية والتربوية سحراً قادراً على تفسير مختلف الظواهر النفسية والاجتماعية والاقتصادية . . . العنف ، الكبت ، العقد النفسية ، الغيبية ، وقاعدة لتصنيف السويّ والمَرَضي ولتحديد التقدم والتأخر ، وهنا يختزل التاريخ حتى الالغاء في الغرق في المركزية الغربية وذلك مرتين ومن موقعين ودفعة واحدة :

أولاً : يلغي التاريخ الغربي عندما لا توضع النظرية الغربية في التاريخ ، أي عندما يصرف النظر عن دراستها في ظروفها التي اكسبتها صفة العلم . وعندما يصرف النظر عن الحركة النقدية الأوروبية نفسها بعلمها (فوكو) .

ثانياً : يلغي التاريخ الشرقي ، والعربي - الاسلامي على وجه خاص عندما لا تعتبر مؤسساته وقيمه المغايرة لقيم التحديث ، أي لقيم أوروبا الحديثة والمعاصرة ، الا جزءاً من قطاع « التخلف » فلا تدرس كصيغ من أنماط الحياة والعلاقات الانسانية بمنهجية تجريبية ، بل تعطى تصنيفات ومواصفات معيارية تصل عند البعض إلى حد الرغبة في التبرؤ من هذا التاريخ وصب الحقد عليه أو الى حد الاستلاب والاغتراب عن الواقع ، وذلك كنتاج لسيطرة ثقافية تجد لها في الداخل من يتوافق معها ويلتحق بها عن وعي أو غير وعي ، حتى ولو اعتقد البعض أنه يقاوم السيطرة الغربية عبر التماهي معها وعبر تمثل قيمها وتقليد أسلحتها .

السؤال : كيف يمكن أن نبني لنفسنا تاريخاً ومستقبلاً ونحن نتمثل مساق التاريخ الأوروبي ، نتمثل ماضيه وحاضره ، نهضته وثورته الصناعية؟ أي بكلمة نموذجية الذي بُني على محاولة تدمير تاريخ الآخرين ، وعلى الأخص تاريخنا العربي - الاسلامي ؟

د . وجيه كوثراني

هوامش

١ - حسن الضيقة : تجربة الكتابة التاريخية الماركسية : قراءات في أزمة المنهج والنظرية بيروت ٨١ ص ٢٨ ، ٣٢ .

٢ - قارن :

S. Divitcioglu ; Modéle économique de la soceiété ottomane les XIV et XV siécles la pensés , Avril 1969.

٣ - قارن : موريس لومبار : الاسلام في عظمته الأولى ص : ٩٠ ، ١٠٠ ، ١٠٨ ، ١١١ ، ١٣١ .

٤ -

F. Braudel : la Méditerrannée et la monde méditerranıen: Paris 1979 , P, 458 , 459.

٥ -
Mgr . Basile Homsy à Les Capitulations et la Protection des chrétiens au XVII s . et aux XVIII s. p. 15 - 16.

راجع حول مفهوم الدولة القائمة على الجباية والسيطرة على السوق : ابن خلدون المقدمة ص : ٢٧٠ ، ٢٨٦ .

٦ - راجع حول الموضوعات الواردة في الفقرة : هرشلاغ : مدخل التاريخ الاقتصادي الحديث للشرق الأوسط ترجمة مصطفى الحسيني ، دار الحقيقة بيروت ٧٣ ، ص : ٧٢ ، ١٠٤ . - دافيد لانذر : بنوك وباشوات ترجمة عبد العظيم أنيس ، دار المعارف بمصر ٦٦ - ص : ٩٤ ، ١١٠ ، و ١٢٣ ، ١٥٧ .

J. Inobie Intérêts et imperialisme français dans l'empire ottoman - 1895 . 1914 , Paris 1977, p. 647 - 698.

وبالنسبة للارساليات التعليمية راجع : مصطفى خالدي ، عمر فروخ : التبشير والاستعمار في البلاد العربية ط : ٥ ص : ٦٥ ، ١١٢ .

٧ - راجع بانكارك : آسيا والسيطرة الغربية ، ترجمة عبد العزيز جاويد ص : ١٢٤ ، ١٤٣ .

٨ - مكسيم رودنسون : الاسلام والرأسمالية ، ترجمة نزيه الحكيم ، بيروت ٦٨ . ص : ١٨٧ ، ١٩٠ .

٩ - راجع مساهمة لبنان في هذا الموضوع في : المسيحيون العرب بيروت ٨١ ، دار الأدب والفن دراسات ومناقشات ، بالاشتراك مع آخرين .

١٠ -
Aly Shariati : Civilisation et Modernisation p. 24.

١١ - المرجع نفسه ص : ٢٥ .

١٢ - المرجع نفسه ص : ٢٦ .

١٣ - قسطنطين زريق : المسيحيون العرب والمستقبل ، دراسة في:المسيحيون العرب ص : ١١٦ ، ١١٧ .

١٤ -
Sélim Abou : Le bilingnisme Arabe - Français au Liban

١٥ - مثلاً : نديم البيطار في مناقشة كتاب الاستشراق لأدوار سعيد .

١٦ - المقتطف مجلد ٣٦ ، ص : ٢٦٠ ، ٢٦٥ .

١٧ - عندما ناقش المجلس التشريعي في عام ١٩٠٩ مسألة تمديد امتياز قنال السويس وانتهى إلى الرفض كتب الشميل أن من مصلحه مصر تمديد هذا الامتياز وقبول البدل المعروض من الشركة ، لأن التقدم العلمي أسرع اليوم مما كان عليه في الماضي . وكذلك التقدم الاجتماعي ومفهوم الوطن على تحول ، وقريباًسيشمل العالم كله . وعندما ينتهي الامتياز عام ٦٨ لن تكون القناة ملكاً لمصر أكثر مما تكون ملكاً للصين أو أميركا . فلتأخذ اذن مصر البدل المعروض ما دام حقها في القناة معترفاً به ولتستخدمه في سبيل الخير العام » ورد في البرت حوراني : الفكر العربي في عصر النهضة ص : ٣٠١ - الترجمةالعربية .

١٨ -
- Maxime Rodinson :Marxime de monde Musilman. Paris 1972. P. 97 - 98.

١٩ - قارن : ارنست رينان : ابن الرشد والرشدية - نقله الى العربية عادل زعيتر - القاهرة ١٩٥٧ - ص : ١٣ - ١٨ .

راجع أيضاً رضوان السيد « عن العقل والسلطة في المجال العربي الاسلامي » المسيرة ، عدد ٦ بيروت .

٢٠ - قارن ايف لاكوست : العلامة ابن خلدون - ترجمة ميشال سليمان بيروت ١٩٧٤ ، ص : ٢١٧ ، ١٦٩ .

٢١ - قارن :
- Andrée Coutin:« Huit Siecles de violence au quartier Latin» Paris , p.17 - 46.

٢٢ - قارن : - Michel Foucault : « Surveiller et Punir » Paris : 1975 . p. 9. 21 .

٢٣ - انظر على سبيل المثال : سعيد عاشور « المجتمع الشامي في العصر العثماني بين العصور الوسطى والحديثة » . المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام - جامعة دمشق ١٩٧٨ .

٢٤ - ناصيف نصار : مفهوم الأمة بين التاريخ والدين ، بيروت ١٩٧٩ ص : ١٤٠ .

٢٥ - من نماذج الدراسات :

- سلوى الخماس : المرأة العربية والمجتمع التقليدي المتخلف ، بيروت دار الحقيقة ١٩٧٣ .

- ابراهيم بدران ، سلوى الخماس : دراسات في العقلية العربية ، الخرافة ، بيروت ١٩٧٣ .

- مصطفى حجازي : التخلف الاجتماعي : مدخل إلى سيكولوجية الانسان المقهور . معهد الانماء العربي - بيروت ١٩٧٨ .

الغزو الثقافي الغربي الممهد والمتوافق مع الاستعمار الحديث في الوطن العربي

د. عماد حاتم

تقديم :

عرفت القرون الخمسة الأخيرة من التاريخ الانساني اتجاهاً شاذاً في حركة التطور الانساني تمثّل في ما يسمّى بالاستعمار الذي عرف امتداداً كبيراً خلال مرحلة الكشوف الجغرافية والانقلاب التجاري ، وازداد ضراوة بعد « الانقلاب الصناعي » . وفي القرن التاسع عشر كان النظام الاستعماري قد استكمل صورته وانتهت معظم اجزاء العالم الى حفنة من الدول المتقدمة تكنولوجياً ، ووضعت « الحدود النهائية » للمستعمرات ، ونجم عن ذلك عدد من الحروب بين الدول الاستعمارية شهدت ذروة احتدامها في الحرب العالمية الأولى ، ثم كانت الحرب العالمية الثانية المرحلة الاساسية في عهد تصفية الاستعمار بشكله العسكري وبداية مرحلة « الاستعمار الجديد » .

كان الاستعمار خلال أطواره المختلفة يعني الاخضاع السياسي والاقتصادي للمستعمرات والضغط الفكري عليها وحرف تطورها الروحي عن مسيرته الطبيعية ، واستعملت لهذه الأغراض مختلف الوسائل فسيّرت لذلك الأساطيل والجيوش وأدخل سلاح الغزو الفكري الذي كان يسير مواكباً للسلاح العسكري أو ممهداً له ، وخاصة في الفترة المتأخرة من الغزو الاستعماري ، حتى إذا انسحبت الجيوش الآن بفعل يقظة الشعوب ونضالها المتصل في سبيل حريتها أخليت الساح لسلاح الغزو الفكري الذي يزداد اتساعاً وشراسة بازدياد الثورة الحديثة في عالم الاعلام وتقنيته .

وكان حظ بلادنا من ويلات الاستعمار ومآسيه وافراً . وبفضل النضال والتضحيات استطاعت بلادنا أن تجلي جيوش الاستعمار وان تحقق استقلالها السياسي ، وشرعت منذ مرحلة طويلة باستكمال مقومات استقلالها الاقتصادي والثقافي . واذا كانت المكتبة العربية قد قدمت اعداداً يصعب حصرها من الدراسات المتعلقة بالوجه العسكري والاستغلالي ـ الاقتصادي للاستعمار فانها لم تقدم بعد الا القليل في ميدان دراسة وجوهه الثقافية . ولا بد من تضافر الكثير من القوى لدراسة الظاهرة الثقافية في الغزو الاستعماري ، سواء خلال مراحل التمهيد للاستعمار أو خلال وجوده على أرض الوطن في صورة الغزو العسكري المسلح أو في صورة « الاستعمار الجديد » .

وهذه الدراسة لا تدعي لنفسها الاحاطة بكل جوانب هذا الموضوع الفكري المصيري المتشعب ، بل ولعل أول ما تشكو منه هو « عدم الاحاطة » الشاملة بكافة الجوانب المطلوبة ، وخاصة من حيث المساحة المكانية للوطن العربي وما ظهر فيها من نقص في الشواهد المأخوذة من مختلف الاقطار العربية . واذا كانت هذه الشواهد قد اقتصرت على بلاد الشام والجماهيرية والجزائر فليس بسبب الاستهانة بآثار الغزو الثقافي في الاقطار العربية الأخرى بل لبعد المراجع ولأن الفرصة هيأت للباحث امكانية الاطلاع على بعض منها دون الآخر . .

أما بالنسبة لفلسطين المحتلة فان الغزو الصهيوني قد اتخذ فيها جميع اشكال الاستعمار ودرجاته فهو استعمار عنصري عسكري استغلالي استيطاني وثقافي أيضاً ، غير أن الباحث لم يتعرض في دراسته هذه للمارسات الاستعمارية في فلسطين آملاً أن يكون الزملاء الأفاضل الذين تصدوا لذلك بدراسات منفصلة مستقلة قد وفوها حقها من الدراسة والبحث .

وأخيراً فان طول الفترة الزمنية التي حاولت هذه الدراسة تغطيتها كان سبباً في الانتقال من مرحلة إلى مرحلة عبر قفزات كبيرة في الزمان الا أن الخيط الذي يربط بين المراحل هو محاولة تقصي مظاهر الغزو الثقافي الاستعماري على الأرض العربية وآثاره وسبل التصدي له .

الغزو الثقافي كتمهيد للغزو العسكري :

خلال المراحل الأولى للمد الاستعماري ، وعلى مدى قرون بطولها لم يكن الاستعمار يجد ضرورة لايجاد المبررات أو المسوغات لما يقوم به . كانت تلك مرحلة العربدة الاستعمارية المطلقة ، فالأرض « سائبة » والحقّ للأقوى والاحتكام للسيف ، ولا حاجة للحوار مع الشعوب الضعيفة ما دامت هناك امكانية افنائها . وهكذا بادت شعوب بأكملها ، وأزيلت عن خارطة العالم حضارات لم نعد نذكر منها إلا أسماءها . وقد لخص الكاتب الانجليزي جوناتان سويفت

هذه المرحلة الطويلة الدامية بقوله « هي ذي ثلة من القراصنة الذين يحلمون بالحصول على عفو الحكومة ومكافآتها فينطلقون بحثاً عن أراض جديدة ويلتقون بالسكان المسالمين الآمنين الذين يكرمون وفادتهم بأحسن صورة ، فيطلقون على البدو اسماً يروق لهم ويستولون عليها باسم الملك ويضربون في أرضها لوحة فخارية أو حجراً كنصب تذكاري ثم يقتلون بضع عشرات من السكان ويقتادون بعضهم إلى السفينة كنموذج بشري ويعودون إلى الوطن لينالوا العفو . وهكذا تظهر المستعمرة الجديدة التي تم الحصول عليها بحق إلهي ، وما إن تسنح أول فرصة حتى ترسل السفن إلى هناك ، فاما أن يجلى السكان الأصليون أو يبادوا ، وتخضل الأرض بدماء أبنائها ، وهذه الثلة القذرة من الجزارين . . . تقيم المستعمرة العصرية المستحدثة لأجل نشر المسيحية بين المتوحشين الوثنيين وتعليمهم الحضارة ». وتتردد هذه اللوحة في رواية روبنسون كروزو الشهيرة . فبطل القصة الذي يجسد عقلية عصره الاستعماري ما كان يتخيل أي علاقة يمكن أن تنشأ بينه وبين ابن الجزيرة الموحشة بل ولا يتنازل السيد عن سؤال العبد عن اسمه ويفرض عليه اسم اليوم الذي لقيه فيه فكان « جمعة » أما الكلمة الأولى التي كان عليه أن يخاطب بها البطل فكانت « سيدي » . وخارطة العالم المعاصر لا تزال تحمل الكثير من البصمات الاستعمارية فقد جردت مناطق من أسمائها لتحمل أسماء ملوك المستعمرين وجلاديهم ومحظياتهم وأسماء مدنهم وقراهم . . فاحتفظت الخارطة بأسماء الفيليبين ، روديسيا ، بريتوريا ، مورشيوس ، فيكتوريا ، ساحل العبيد ، ساحل العاج ، وسوى ذلك ، وهي ذكرى حزينة لعصور مضت شاع فيها صيد الانسان والاتجار به وقتله ، مثلما شاعت التجارة بشعوب بكاملها فكانت مليكتها تنتقل من مستعمر إلى آخر بموجب تعويضات مالية وعقود دولية معترف بها .

وقد عرفت البلاد العربية محنة الاستعمار الحديث في القرنين الأخيرين بعد صراع طويل مع أوروبا كانت بلادنا خلاله أميل إلى الضعف ، وهو ما أوقعها تحت رحمة القوة العثمانية الزاحفة من الشرق . فلما أطل القرن التاسع عشر كانت الأراضي العربية تعيش مرحلة مسفّة من التخلف والضعف في ظل امبراطورية لا تستطيع أن تدرأ عن نفسها الخطر وترتبط بها بخيوطٍ متفاوتة الشدة ، فبينما لم تكن تربط ليبيا وتونس والجزائر باستامبول غير عرى واهية جداً كان محمد علي قد تمكن ـ خلال الفترة ـ من الاستقلال بمصر وقام بأول محاولة للتحرّر والوحدة العربية في الشرق وانتهى بتألب الدول الأوروبية عليه ثم بالسيطرة الانجليزية على مصر .

أما بلاد الشام فكانت وثيقة الارتباط بالدولة العثمانية وكان النظام الاقطاعي المسيطر قد حولها إلى واحدة من أكثر المناطق تخلفاً في الامبراطورية ، فالأرض ـ أداة الانتاج الرئيسية ـ بأيدي السلطان أو ممثليه وغالبية السكان من الفلاحين الرازحين تحت وطأة مختلف أنواع الضرائب ، وقد جعلهم الفقر والجهل فرائس لضروب من الأوهام التي مهدت لضروب أخرى من السيطرة . أما المدن فلم تكن مراكز صناعية بقدر ما كانت تلعب دور الوسيط التجاري وانتاج بعض المنتوجات الحرفية البسيطة ، وقد سار النظام العثماني بالبلاد خلال مراحل طويلة إلى تعميق هذا التخلف وإلى اضعاف البلاد التي كانت على الدوام محط الأنظار والمطامع الأوروبية . وقد وجدت هذه المطامع الفرصة سانحة عندما وصل الضعف العثماني إلى غايته وبرزت « المسألة الشرقية » ، التي كانت تقوم في الاساس على اقتسام تركة « الرجل المريض » ولكي تبرهن كل دولة على أولويتها وحقها في هذه التركة ضمن احتدام التنافس الأوروبي اتجهت الى بسط « حمايتها » على واحدة من الطوائف الدينية في بلاد الشام واخذت تتحين الفرصة لاستعمال هذه الورقة السياسية . ولم تكن السلطات العثمانية شديدة الاستياء من التناحر بين هذه الطوائف أملاً في أن يؤدي ذلك إلى التشاحن بين الدول التي تحميها، ولكن ورغم ما كان بين هذه الدول ، فانها كانت تسارع مجتمعة للتصدي لأي حركة منفردة تقوم بها أية قوة في الشام . وتكشف ذلك خاصة في التصدي الأوروبي المشترك لحملة ابراهيم باشا سنة ١٨٤٠ ثم لتنظيم الحملة الأوروبية المشتركة بعد فتنة ١٨٦٠ .

والطريف أن هذه الحماية كثيراً ما كانت تتم عبر التنسيق الاستعماري والتوفيق بين المطامع وعمليات التراضي الدولية ، فكان التنازل عن الحماية يعني الاقرار بالحق في الغزو . ونلمس ذلك مثلاً في التقرير الوارد من القنصلية العامة الايطالية بطرابلس الغرب بتاريخ ١ شباط (فبراير) سنة ١٩٠٧ والذي ينص على أنه « بناء على الاتفاق الواقع بين الجمهورية الفرنسية وايطاليا الذي أشعر به الباب العالي في ٢٢ من شهر كانون الثاني (يناير) الماضي فانني اتشرف بابلاغ دولتكم أن المؤسسات الدينية بطرابلس وبنغازي التابعة للجمعيات الكاثوليكية قد أصبحت تحت وصاية ايطاليا »[1] .

واذا كانت طبيعة الاستعمار لم تختلف خلال تاريخه الطويل ولا تبدلت غاياته فان أساليبه اختلفت في بعض الأحيان ، والاختلاف بين الغزو الفرنسي المباشر للجزائر سنة ١٨٣٠ وغزو الايطاليين لليبيا بعد سبعين سنة (١٩١١) والذي جرى بعد مرحلة من التمهيد والتعبئة الفكريين يعني لوناً من النقلة النوعية في نمطين من الغزو الاستعماري . فالاستعمار في النصف الثاني من القرن التاسع عشر هو الاستعمار المبرمج المدقق الذي لا بد وان يحسب حساباً للوضع الدولي وللوضع الداخلي ضمن الدولة المستعمرة والمستعمرة . وتزداد الأمور دقة في الفترة المحيطة بالحرب الكونية الأولى التي كانت تهدف لاعادة تقسيم المستعمرات فكان لا مندوحة من ادخال المبررات الدينية والفكرية كعنصر من عناصر هذه الحرب .

وهكذا فان الصناعة الاستعمارية التي أخذت تدور لانتاج البواخر الحربية والمدافع ومعدات الجنود كانت تتواكب بصناعة

أخرى لانتاج المبشرين والمنظرين والمغامرين الرحالة المكتشفين والمستشرقين وعلماء اللغات والاتنوغرافيا والصحفيين والمتخصصين في الحروب النفسية من اجل صياغة التمهيد الايديولوجي الذي يمكن بواسطته التأثير على شعب الدولة المستعمرة لتسهيل قيادته الى المذبحة الاستعمارية فتخترع لذلك شعارات ضخمة من العنصرية والتعصب الديني وضرورات المجال الحيوي ودوام الراية الوطنية خفاقة في كل مكان واستعادة أراضي الاجداد ونشر الهداية المسيحية بين المتوحشين . كما يحاول بها تهيئة الضغينة لقبول الرسالة الحضارية الاستعمارية وتصديق الوهم القائل بنقلها من الظلمات إلى النور .

كانت انجلترا صاحبة أكبر مساحة استعمارية في القرن التاسع عشر ، وكانت تنظر بعين الطمع الدائم الى البلاد العربية بعد أن رسخت أقدامها في الهند . وتواجهها في ذلك منافستها التقليدية فرنسا التي سبق لها أن نالت امتياز حماية الحجيج إلى الأراضي المقدسة منذ سنة ١٧٤٠ ثم دخلت روسيا القيصرية ميدان المنافسة بعد انتصارها على تركيا وعقد معاهدة كوتشك كنيارجي سنة ١٧٧٤ التي جعلت النفوذ الروسي يتجاوز الفرنسي الآستانة، يضاف الى ذلك رغبة روسيا في الخروج إلى البحار الدافئة ، وهو ما جعلها تتذرع بحماية المسيحيين الأرثوذوكس في الدولة العثمانية وبلاد الشام بصفة خاصة فضمنت القيصرية أيضاً امكانية التقرب من شعبها بالتظاهر برعاية الثقافة ونشر المدنية . وكانت المانيا حديثة العهد في الميدان الدولي وقد تحصلت على كثير من الامتيازات في الدولة العثمانية . وحاولت ايطاليا أيضاً احياء تقليد قديم في دخول المشرق عبر الارساليات الدينية وأطلت أمريكا برأسها تحاول أن تنال شيئاً من الغنيمة المشرقية بعد انهيار الرجل المريض .

والارساليات التعليمية ومدارس التبشير والتظاهر بالأهداف الانسانية ليس جديداً في تاريخ الشام ، وقد بدأت هذه الحملات بالسبيتارية[٢] ثم تلتهم فرقة الداوية والتيتون وكانت بمجموعها أشرس المحاربين ضد المسلمين ، حتى اذا ما أخرج افرادها من بيت المقدس ضربوا طويلاً في الأرض والبحر حتى استقروا في قبرص ثم في رودوس إلى أن استقروا في مالطة . ومن الأمور ذات الدلالة أن يسلك التبشير الأمريكي طريق العودة من مالطا وان يتسمى رجاله بالبريسبيتريين الذين أسسوا مركزهم ومطبعتهم هناك ومنها انتقلوا إلى بيروت .

هكذا صارت الدول الكبرى تقف وراء التبشير لمذاهب ثلاثة في بلادنا . ففرنسا وايطاليا « تحميان » المذهب الكاثوليكي وروسيا - الأرثوذوكسي وانجلترا وأمريكا البروتستنتي . وكان التزاحم على أشده بين الارساليات «الدولية» حتى يروى أن الدكتور فانديك رئيس مبشري الامريكان كان يقول : « اني ذاهب لأفتح مدرستين في تلك القرية ، فاذا قيل له انها لا تتحمل لصغرها ، قال سأكتفي بواحدة ولكنني متأكد أن اليسوعيين سيأتون بعد مدة قليلة ليفتحوا مدرسة ثانية »[٣]

وغني عن القول إن الدول الأوروبية لم تصدر في ذلك كله غيرة دينية ، وكان معظمها علمانياً فصل الدين عن الدولة بل ومنها ما كان ينال رجال الدين ببعض الأذى ، فهذا الغربي - على حد تعبير الكواكبي : - « لا دين له غير الكسب ، فما تظاهره مع بعضنا بالاخاء الديني إلا مخادعة وكذباً . هؤلاء الفرنسيون يطاردون أهل الدين ويعملون على أنهم يتناسونه ، بناء عليه لا تكون دعواهم في الشرق إلا كما يغرد الصياد وراء الاشباك »[٤] بل ان الفرنسيين انفسهم لم يطرحوا الغيرة الدينية سبباً لهذا الاهتمام بنشر لغتهم . . وحماية الكاثوليكية في المشرق ولا ذهبوا بعيداً في تبرير الاسباب التي دعتهم لصرف الجهود ورصد الأموال في سبيل ذلك عندما قالوا : « تركيا اليوم أشبه بحقل مغلق حيث تتنافس القوى الأوروبية الرئيسية من اجل النفوذ لا على المستوى الاقتصادي والتجاري فقط ، بل على المستوى السياسي أيضاً ، لقد أدركت كل من الدول الست الكبرى التي لها مطامع في الشرق الأوسط ومنذ فترة طويلة ان احدى أهم الوسائل لكي تضمن لنفسها « جماعة الموالين » في الشرق تكمن في معرفة هذه الجماعة لغتها وخارج اطار التعاطف السياسي يخلق تفوق لغة ما ميلاً طبيعياً للاتجاه نحو الأمة التي تشعر بالاشتراك معها في الأفكار والأذواق في كل ما تحتاجه من متطلبات الحياة ، من هنا كان هدف مؤسسي هذا العدد الكبير من المدارس والمستشفيات تثبيت « الجماعة » التي تحميها القوى الأوروبيةوتوسيعها»[٥]. وفي المقدمة التي كتبها وليم لانج ، سكرتير « الجمعية الافريقية » لرحلة هورنمان والتعريف بها أعطى التفسير الاقتصادي الاستغلالي لكل ذلك النشاط التعليمي ، ولم ينس أن يغطي ذلك كله بمسحة من الانسانية الاستعمارية في حمل الحضارة للمتوحشين : « فاذا استطعنا أن نقوم بهذا الدور النبيل بأن ننشر المعرفة ونحمل لهؤلاء القوم المتوحشين الغلاظ روح التقدم فان ذلك سيكون له عظيم الأثر على تجارتنا وخبراتنا . . واذا استطاعت منتجاتنا أن تحظى باهتمام الافريقيين وتجد طريقها اليهم سيكون من الصعب حينئذ أن نتخيل غزارة الطلب على سلعنا من تلك المناطق الشاسعة الغزيرة السكان »[٦] .

وهكذا تحت ذرائع حماية المسيحيين ونشر العلم انشىء على الأرض العربية عدد كبير من المدارس الأجنبية تعد بالمئات وتضم عشرات الآلاف من التلاميذ . وبلغ تأثيرها في النصف الثاني من القرن الماضي وبداية الحالي حدوداً يصعب دراسة الاتجاهات الفكرية التي عاشتها المنطقة آنذاك بمعزل عنها[٧] . وقد عززت هذه المدارس بالمطابع وحركة النشر والصحافة الواسعة الانتشار والتأثير . ففي ليبيا مثلاً « توسعت ايطاليا في افتتاح المدارس في نطاق نشاطها الاستعماري تمهيداً لاحتلال البلاد فأنشأت مدارس ايطالية في بنغازي والخمس ومحلة الظهرة بطرابلس ، وملجأ للصبيان ومدرسة ابتدائية للإناث وأخرى للذكور ومدرسة عليا اسمها مدرسة العلوم والتجارة في طرابلس . كما أنشأت مدرسة ليلية لتعليم الكبار

وعلمت هذه المدارس المنهج الفرنسي باللغة الايطالية مضافاً اليه اللغة العربية والعبرية واليونانية وتولت الحكومة الايطالية الانفاق عليها بشدة وضمت مدرسة العلوم والتجارة مكتبة ضخمة فيها ألفا كتاب ومتحف ومكان للرصد »[٨] . وكان لايطاليا في طرابلس صحيفتان تعملان على زيادة التغلغل الثقافي في البلاد ، ويبدو أن اللغة الايطالية حققت بعض الانتشار في البلاد بشهادة الرحالة الشهير الحشايشي ، الذي لاحظ أن أكثر الأوروبيين في البلاد من الطليان وان أوباش البلد ـ على حد تعبيره « لهم مخالطة مع الجنس الطلياني وغالبهم يتكلمون باللغة الايطالية » ، وليست لدينا معلومات واضحة حول مدى نجاح هذا التغلغل الثقافي في ايجاد « الجماعة » الموالية التي أشار اليها المصدر الفرنسي السابق ، لكن المعروف أن جوليتي ، رئيس الحكومة الايطالية والذي بدأ الغزو في عهده ، كان يعلق أملاً كبيراً على ايجادها ليس في ليبيا فقط بل وفي استامبول أيضاً وكان خياله يسخو في تضخيم صورتها وامكانية الاعتماد عليها .

قامت إيطاليا باعداد تمهيد شامل للغزو فكانت هناك تهيئة دبلوماسية دولية وكانت هناك اعدادات اقتصادية كبيرة أشرف عليها مصرف روما (وكان الفاتيكان أكبر المساهمين فيه) وقد أنشأ فرعاً كبيراً في طرابلس ، غير أن التمهيد الثقافي بقي واحداً من الميادين الملموسة في حياة البلاد الفكرية وكانت خطوطه تتجه إلى المواطنين تلوح بترقية البلاد واعمارها ونقل الحضارة اليها . وتجسّد ذلك خاصة في الانذار الذي وجهته حكومة جوليتي الى الباب العالي عشية الغزو ، وكان يلخص كل ما نفثته المدارس والصحافة من دعاية حضارية لصالح ايطاليا التي تريد انقاذ البلاد من التخلف . جاء في الانذار : « لم تتوقف ايطاليا اثناء عدد من السنين عن تذكير الباب العالي بالضرورة القصوى لوضع حد لتلك الفوضى والاهمال اللذين تركت فيها طرابلس وبرقة من جانب الحكم التركي حتى تتذوق هذه المناطق نفس التقدم الذي تم في اقطار أخرى من الشمال الافريقي . وهذا التعديل تتطلبه المقتضيات العامة للمدنية ويعد مصلحة حيوية من الدرجة الأولى بالنسبة إلى ايطاليا »[٩] وربما لم يكن ذلك الانذار قد وصل إلى المرسل اليه بعد عندما كانت بواخر الاسطول الايطالي تشحن الجنود إلى ليبيا وهم يغنون الأغنية التي لخصت أيضاً كل الأهداف الحقيقية للغزو ، وبينت أن العالم ما كان بحاجة لينتظر عشرين سنة أخرى حتى يتعرف على وجه الفاشية العنصرية الصفيق . تقول بعض كلمات الأغنية : « أماه ، صلي ولا تبكي ، بل اضحكي وتأملي الا تعلمين أن ايطاليا تدعوني . وأنا ذاهب إلى طرابلس فرحاً مسروراً لأبذل دمي في سبيل محق الأمة الملعونة ولأحارب الديانة الاسلامية . . سأقاتل بكل قوتي لمحو القرآن . . » .

* * *

أما في الشام فاعتمد الاستعمار في تمهيده الثقافي على عنصرين متداخلين ، هما التبشير والتعليم المدرسي . والملاحظ أن صناعة التبشير تطورت كثيراً مع تطور التجربة الاستعمارية نفسها ، فصار للمبشرين مراكز ومكاتب ودوريات ومنظمات وادارات تقوم على توجيههم ، وصارت تعقد المؤتمرات المتخصصة لدراسة النتائج التي توصلوا اليها ولتبادل الخبرات فيما بينهم وتحسين طرق العمل ونوعية الافكار التي يمكن أن تجتذب المسلمين أو تؤثر عليهم وتذليل الصعاب التي يمكن أن تحول دون ادخال الأفكار على الناس وكيفية وغايات اشراك الاطباء والمتخصصين في اعمال التبشير وما إلى ذلك .

الا أن تجربة السنين الطويلة للمستعمرين أن التبشير بين المسلمين هو كالحرث في البحر لا يؤدي إلى أية نتائج ، فاتجه نحو التبشير الثقافي والسياسي اذا كان « هؤلاء الرهبان ينفذون الى كل مكان ويدخلون الى كل بيت بحجة اسداء النصائح الدينية وحقيقة انهم يتكلمون عن كل شيء إلا أمور الدين »[١٠] كان الأهم هو تبيان المثال الأوروبي الجدير بأن يحتذى وتأليب طائفة دينية على أخرى لإحداث الشرخ المطلوب في الوحدة القومية ، ذلك الشرخ الذي كان دوماً وحتى اليوم المنفذ الذي يسّر للاستعمار سبيل الدخول الى بلادنا . فكانت محاولات التقسيم والتفرقة بين المذاهب تتم في وقت نحن أحوج ما نكون فيه الى الوحدة . وقد كانت مذبحة ١٨٦٠ واحدة من أوضح النتائج على ما كانت ترمي اليه دعوات التبشير ، وكانت حرب لبنان الأخيرة في كثير من وجوهها الثمرة الأكثر فاجعية للبذور التي القيت في التربة المذهبية في تلك الأيام .

أما التطلع الدائم الى تفتيت الكيان العربي في المشرق فلقي تطبيقه العملي حالما قيض للدول الاستعمارية أن تدخل البلاد ، وذلك في صيغةمعاهدةسايكس ـ بيكو التي فتتت المنطقة وحددت مناطق الاحتلال بالنسبة للدول صاحبة النشاط التبشيري . وبالاضافة الى ما كان في عقد المعاهدة ، وهو ما ضاعف من صعوبات توحيدها فيما بعد وبعد سنة من المعاهدة ، صدر وعد بلفور سنة ١٩١٧ ، ثم دخلت الجيوش الفرنسية سوريا فأوجدت لبنان الكبير بقرار من غورو ثم أوجدت أربع حكومات في سوريا هي ـ اللاذقية ـ الدروز ، سوريا وسنجق اسكندرون ، ولا تزال المنطقة حتى الآن تشكو من الآثار الفاجعة لذلك التفتيت .

أما المدارس الاجنبية فحققت انتشاراً واسعاً في المشرق العربي وتزايد عددها بسبب المنافسة الاستعمارية ، كما كان من أسباب ذلك التعطش إلى المعرفة لدى شعب عرف بعراقته الثقافية وأوصله الحكم العثماني الى درجة كبيرة من الاقفار الثقافي ، وبدلاً من أن تتنبه السلطات إلى ذلك وتعنى بنشر التعليم الوطني راحت تغدق التسهيلات والامتيازات على المؤسسات الاستعمارية ، بل وصار الكثيرون من أهل الشام يحملون جنسية احدى الدول الأجنبية ،

وصار القناصل يعينون من بين الأهالي ، كما كانت هذه الدول حريصة على ايفاد عدد من الطلاب الى عواصمها من اجل متابعة التحصيل .

ويضاف إلى هذا تفاقم الروح الشوفينية التركية والدعوة إلى الطورانية والانفصال عن العرب . وفي حمأة هذا التعصب الضيق بدأ الاتجاه نحو احلال التركية في كل مكان وبعث الشخصيات التركية القديمة وكتابة أسمائها على المساجد - كأسماء جنكيز خان وهولاكو بدلاً من أسماء الخلفاء الراشدين . وبينما كان قاموس الشوفينية قد صاغ مجموعة من الالقاب والشتائم الموجهة للعرب كانت المدارس توجه الى تعليم التركية وحظر التحدث بالعربية حتى في أبسط الشؤون العادية وأضيق اطار* . وفي هذا الاتجاه صارت تصب نشاطات جمعيات تركية مثل ترك درنكي ، ترك أوجاغي ، تورك يوردي وسواها . فليس غريباً ازاء هذا الوضع أن تتجه الانظار الى مناهج جديدة للتعليم يسر لها أصحابها كل أسباب التطور ووضعوا في فقرات برامجها - تعليم اللغة العربية .

وتجدر الاشارة أيضاً إلى أن الاستعمار الغربي في تلك المرحلة التمهيدية لم يكن في بلاد الشام قد صار بعد استعماراً ، بالمعنى المعروف ، فلم تكن بعد قد انكشفت أساطيله ولا أساليبه في القسر والعنف ولا ظهرت طبيعته الاستغلالية ، وهذا ما مكن المستعمرين من ارتداء القناع الانساني المنقذ ، والتلويح بمحاسن الغرب في وقت لم تكن أجهزة الاتصال قد كشفت بصورة كافية عما يجري في المستعمرات من وحشية وبطش ، وكانت اجهزة الدعاية وبرامج التعليم والصحافة تكرر تصوير جنة الغرب . ويعود الموفدون الى العواصم الأوروبية ليؤكدوا هذه الصورة وليشيدوا (منذ أيام الطهطاوي) بما حققه الغرب من ديمقراطية وبما لديه من قدرات على تسخير قوى الطبيعة واستخدام الحقائق العلمية في خدمة الانسانية . ومن خلال هذه المسارب الاعلامية أخذت تترسخ في الأذهان ملامح الشخصية البورجوازية الجديدة التي انتجتها أوروبا الصناعية الجديدة والتي كانت ، بما فيها من نشاط واستقلالية واحساس بالكرامة - الحلم الأعلى بالنسبة لمن عاشوا في العهد الاقطاعي المستبد بما فيه من استهتار بقيمة الانسان وحريته .

وهكذا وجد المشرق نفسه من الناحية الثقافية أمام وضع غريب ربما جاز تشبيهه بالتآزر الصليبي - الوثني - الأوروبي - المغولي الذي حدث إبان الحروب الصليبية هادفاً إلى خنق العالم الاسلامي . فالغارة الطورانية التي شُنّت على الثقافة العربية بطريق التجهيل أو التتريك تقابلها غارة أوروبيـة تبشيرية تعمل على ملء الفراغ الثقافي ولكن بمادة غربية باهرة تلوح دوماً بأفضلية الانموذج الأوروبي الراقي وفي الرؤوس تدور الموازاة بين الحضارة الأوروبية المتقدمة والوضع المتخلف على أرض الوطن . كما أن معرفة اللغات الأجنبية تفتح النوافذ نحو عوالم جديدة من الفكر والثقافة تجعلنا نعيد النظر في كياننا السياسي والاجتماعي والثقافي والحياتي كله . وفي ذلك الجوّ بدأت تتفتح بواكير الوعي العربي الحـديث لدى ممثلي مختلف الطوائف . واذا كان المسيحيون قد سبقوا الى التصريح بهذه الأفكار ونشرها من خلال الأجهزة الاعلامية فبسبب تلك الحماية التي كانوا يتمتعون بها من قبل الدول الأجنبية ، لكن المشعل لم يلبث أن انتقل إلى أيدي المسلمين أيضاً ينيرون به متاهات الطريق المظلم . وتمثّل التصدّي لذلك الغزو بحركة التنوير العربية التي اتفق روادها على ان انقاذ الأمة والخروج بها إلى مصاف الأمم الراقية لا يمكن أن يتم الا من خلال عنصرين سنلاحظ ترددهما خلال بضعة أجيال تالية وحتى عصرنا الحاضر ، وهما - العودة إلى الجذور والأخذ بـالمنجزات الحضارية الغربية . واذا كان هناك من خلاف آنذاك فقد دار حول ما يمكن أن يكون أصلاً وما يمكن أن يكون فرعاً - أي هل نبني مجتمعاً يعتمد القيم العربية الاسلامية ويستكمل ما يحتاج اليه من متطلبات الاصلاح من حضارة الغرب ، أم نبنيه مجتمعاً غربياً يستكمل ملامحه بعناصر من التراث العربي الاسلامي .

وهكذا فقد كان للوجود الثقافي الغربي في المشرق العربي آثار ملموسة على مستوى التفكير العربي . وكان الى حد ما واحداً من العوامل التي دفعت حركة اليقظة العربية دفعة كبيرة الى الامام من خلال اعادة تقويم الحاضر واستقراء ما يكون عليه المستقبل . ومما لا شك فيه أن الوجود الثقافي في المشرق العربي قد تعرّض منذ حملة نابليون على مصر والاحتكاك بالغرب وشيوع اجهزة الاعلام المختلفة لهزة صميمة ظهرت ملامحها في مختلف ميادين الثقافة ، غير أن ما يهمنا من ذلك هو ان اليقظة العربية آنذاك كانت يقظة على الخطر المحدق بالأمة وسؤالاً مصيرياً عن الطريق الذي يجب سلوكه نحو التحرر وبناء المستقبل(*) .

وكان أول ما اتجه اليه رجال النهضة هو الدعوة الى تنوير الجماهير وتزويدها بالمعرفة الصحيحة . فالجهل أساس كل ما عاشته وما زالت الأمة تعيشه من كوارث . ومن خلال هذه الدعوة بدأ التوسع في انشاء المنابر لمخاطبة الجماهير وأهمها الصحف والمجلات والمسرح ، كما اتجهوا إلى تبسيط اللغة وتطويع مفرداتها لمتطلبات العصر وتيسير مسالك قواعدها أمام الدارسين . ويصعب التوقف هنا عند مجموعة

(*) فصل الاستاذ سعيد الافغاني في دراسة هذا الموضوع في كتابه « من حاضر اللغة العربية » بيروت ، دار الفكر ط٢، ١٩٧٦، كما وأفاض الكواكبي في ذكر هذه الكراهية الشوفينية نحو العرب خاصة في كتابه « أم القرى » . الأعمال الكاملة . المرجع السابق ص ٣٢٤ - ٣٢٥ .

(*) ان أعظم تجسيد لحركة تطويع اللغة العربية وتحديثها آنذاك تجسدت في حملة التعريب الكبرى التي بدأت في الشام خلال الحكم الفيصلي القصير الأمد والذي امتد عامين منذ نهاية الحرب العالمية وحتى الاتفاق الأوروبي على اقتسام المنطقة . فخلال هذه المرحلة من الحكم الوطني وبداية من الشهر الثاني لاجلاء الأتراك نظمت اللجنة الخاصة لتمويل الدواوين بالمصطلحات العربية بديلاً عن التركية وانشىء المجمع اللغوي ولم تمض الا بضعة أشهر حتى عُرّب الطب والحقوق وعكف الاساتذة على ترجمة المصطلحات وخاصة عن التركية والفرنسية وكان لذلك كله أثره البالغ على صمود اللغة والتراث العربيين أمام زحف الفرنسية خلال مرحلة « الانتداب » التالية . ينظر كتاب سعيد الافغاني : « من حاضر اللغة العربية » المرجع السابق ص ٦٩ وما بعدها .

معينة من المساهمين في ذلك كالبستاني والشدياق والمدور والنقاش والمويلحي . فكل الذين ساهموا في الصحافة والتمثيل والكتابة الأدبية والنقدية والعلمية كانوا من المساهمين في هذه الحملة . وبالاضافة إلى القصائد التي أخذت تمجد هذه اللغة العريقة القادرة على التصدي ومجابهة الغزو الفكري واللغوي بدأت تصاغ بها أول الموسوعات العربية المتجهة الى زحزحة ظلام الجهل وتكوين أول ملامح التجانس الفكري العربي .

وكانت الدعوة إلى الوحدة الوطنية مظهراً آخرمن مظاهر الرد على دعوات التفتيت الطائفي والاقليمي وتحدياً لما كان المستعمر يبشر به في كل مناسبة من فروق مذهبية . والملاحظ أن الاناشيد الوطنية التي ظهرت في تلك الفترة لا تزال تلمس قلوبنا بعفويتها وصدقها في الدعوة الدائمة إلى ما يوحدنا : ـ وحدة الدم ، وحدة اللغة ووحدة الماضي والحاضر والمستقبل .

بلاد العرب أوطاني من الشام لبغدان
ومن نجد الى يمن الى مصر فتطوان

* * *

فلا دين يفرّقنا ولا حدّ يباعدنا
لسان الضاد يجمعنا بغسّان وعدنان

* * *

ولغة العرب اذكرينا واندبي ما فات
كيف ننساك وفينا نسمة الحياة
ونحن أبناء الألى شادوا مجداً وعلا
نسل قحطان الأبي جدّ كل العرب

لقد طمس الزمن أسماء مؤلفي هذه الأناشيد الا انهم عبروا عن التضامن المصيري الواحد وجسدوا فيها مظهراً من مظاهر انتصار العقل والنظرة الى العالم نظرة جديدة ومن أفق جديد يتجاوز بعيداً عالم العصبية المذهبية التي طالما دعا ويدعو اليها الاستعمار . .

كانت مصر آنذاك مركز ذلك التضافر والتعاون الأخويين ، القومي الاسلامي ـ المسيحي ضد العدو المشترك وفي سبيل الهدف الواحد . لقد كان أديب اسحاق وجميل المدور يعدّان نفسيهما تلميذين لجمال الدين الافغاني ومن أكبر مؤيديه في الدعوة الى اتحاد الشرق لمحاربة الاستعمار ، وكان محمد عبده وعبد الله النديم ينشران المقالات في صحف أديب اسحق ، وكان ولي الدين يكن ينشر في « المقطم » التي أنشأها يعقوب صروف كما كان جميل المدور ينشر في « المؤيد » ويصعب تعداد الآثار الأدبية التي كتبها المسيحيون والتي يشيدون فيها بمبادىء العدالة والخير والانسانية التي سادت مراحل الاسلام الأولى والتي بقي الدين يدعو اليها على مر العصور .

أما المظهر الاساسي من مظاهر التحدي فكان التوجه الى الاصلاح والقول بضرورة التقدم . ونلاحظ في ذلك تياراً آمن بالاصلاح ووقف في الوقت نفسه وقفة شديدة ضد الغرب الذي لم يحمل الى العرب غير العبودية والانهيار الخلقي . وكان من ممثلي هذا التيار عبد الله النديم واتصل من بعده في الجيل الثاني وكان من ممثليه مصطفى كامل وسليمان الباروني ثم اتصل في الجيل الثالث الذي جسدته نظرات المنفلوطي . كما أن تطرف الشبان الاتراك دفع بآخرين إلى الاقتداء بالنموذج الغربي ، وكان من أنصار ذلك التيار سليم البستاني ، جرجي زيدان ، يعقوب صروف وولي الدين يكن . وكانت « الهلال » احد منابره وقد استأثرت بأنظار هؤلاء شخصية الانسان الغربي (في مرحلة تكون البورجوازية لا في مرحلة تفسخها الذي نلاحظه الآن) تلك الشخصية التي تتسم بالحيوية واليقظة والفعالية والنشاط والتي كان يفتقر اليها الشرق حسب رأيهم .

إلا أن التيار الأكثر شمولاً كان يضم أولئك الذين اتجهوا الى رؤية ما في الغرب من حضارة وعادوا الى منابعهم الأصلية فوجدوه موجوداً في تراثهم ، وهكذا كان اتجاههم الى الاصلاح يتميز بسمتين : الأولى أن أية دعوة إلى الاصلاح ـ وحتى من قبل دعاتها المسيحيين ـ ما كانت لتظهر منفصلة عن الاسلام والثانية هي العودة إلى الجذور الأولى للتراث اذ ان البواعث الأصيلة للاصلاح الأوروبي موجودة في التراث العربي الاسلامي الزاخر بقيم التجديد والحث على العمل ومذمة الخمول والثناء على المؤمن القوي وافضليته على المؤمن الضعيف . ولهذا نلاحظ أن من اطلعوا على الفكر الغربي سواء عن طريق القراءات أم الاسفار وما توصلوا اليه من قناعات حول ضرورة التغيير اكتشفوا أن ذلك كله ليس جديداً على تراثهم وعبروا عن اكتشافاتهم في كل مناسبة . بل والملاحظ أن أفكار رجال عصر التنوير الفرنسي (روسو وديدرو وفولتير) كانت أكثر ما اجتذب مفكرينا في عصر النهضة وذلك بسبب وحدة النظام الاقطاعي الذي حاربه كل من الفريقين . غير أن الملاحظ أن العرب في تلك الفترة لم يترجموا أولئك المفكرين الفرنسيين بل التفتوا الى ماضيهم يستلهمون أصول العدالة والخير واثقين ان الاسلام كان أول داعية إلى الاخوة والحرية والمساواة .

* * *

لقد اتخذ التمهيد الاستعماري الثقافي في المشرق العربي صورة غزو فكري شامل فرّخ فيها بعض الاتجاهات الطائفية والاقليمية ، الا أن اليقظة العربية والدعوة إلى الوحدة والتآخي والى ضرورات الاصلاح والأخذ بأسباب الحضارة العصرية كانت أفضل اشكال التصدي لذلك الغزو .

الثقافة العربية في ظل الاستعمار

الحديث عن الغزو الثقافي لا ينفصل ولا يمكن أن ينفصل عن الحديث عن الغزو العسكري الاستعماري . فالغزو الثقافي جزء من الهجمة الوحشية التي تستهدف الاستغلال وتتجه الى جميع المقومات الحضارية للبلد المستعمَر ، المادية منها والمعنوية . ولهذا كان

المستعمرون يتجهون إلى السيطرة على الأرض وعلى الروح معاً ، وكان النهب الاستعماري لا يقتصر على الخيرات المادية بل ويمتد إلى خيراتها الثقافية مستهدفاً غايتين : الأولى اثراء الدولة المستعمرة ، والثانية تجريد المستعمرات من تراثها الثقافي وافقارها في هذا الميدان الحيوي الهام الذي يتصل بصميم كرامتها القومية بالاضافة إلى قطعها عن ارثها الثقافي المشترك الذي لا بد وان يدفعها ـ طال الوقت أو قصر ـ الى الوقفة المشتركة في وجه الوجود الاستعماري .

وخلال التجربة الطويلة التي عانت منها البلاد العربية تحت النير الاستعماري تعرضت لحملات من الاستلاب الثقافي لا نجد لها مثيلاً إلا في المراحل الأولى من تاريخ الاستعمار والتي استبيح فيها كل شيء . فعندما نزل التتار في دمشق ساقوا الأيدي الماهرة فيها في مجموع ما استلبوه من كنوز ونفائس إلى سمرقند ، وحذا سليم الأول حذوهم فأخرج من القاهرة الصناع والفنيين والمخطوطات والنفائس بل واخرج الخلافة أيضاً ، واتجه بكل ذلك الى عاصمة بلاده ، وجاءت جحافل الاستعمار الغربي فكان النهب والسلب « المنهجي » الذي امتد إلى المساجد والمكتبات العامة والخاصة والى القصور ودور العبادة والعلم ، وامتدت الأيدي إلى باطن الأرض فأخرجت الأكفان وحتى عظام الموتى واخرجت الروائع الفنية الأثرية ـ التاريخية التي سرعان ما كانت تأخذ طريقها بطرق منظمة « مبرمجة » الى متاحف الدول الاستعمارية وقصور الجنرالات ورجال السياسة . وان أبسط نظرة نلقيها على المتاحف العامرة في لندن أو باريس أو استامبول أو روما تبين للانسان هول الجريمة التي ارتكبت خلال مراحل التاريخ غير البعيد . أما عندما يدور الحديث عن الوثائق والمخطوطات فاننا نجد أنفسنا أمام كارثة حقيقية تتضح أبعادها بصورة أكبر عندما نحاول القيام بدراسة تاريخنا والتعرف على كياننا الحضاري ، فكم شد طلابنا الرحال إلى لندن وباريس وروما واستامبول ولشبونة لكي يطلعوا فيها على مصادر تاريخهم التي انتزعت من أرضهم لتحتل بعد ذلك عشرات الكيلومترات من رفوف المكتبات الاستعمارية ، بل لقد بلغت التخمة ببعض العواصم ان مخطوطاتنا فيها لم تبرمج بعد بسبب كثرتها الطاغية ، فهي ترقد هناك سجينة الأقبية والاهمال .

إن دَيْننا على الاستعماريين أكبر من أن يُقدّر بثمن . فليست ثرواتنا وعرقنا فقط هي التي بنت حضارتهم الصناعية الهائلة بل وان ثروتنا الروحية تسهم في تجسيد الحركة الفنية والثقافية لديهم . وقد وصل الأمر إلى حد تقمص شخصيتنا وادعائها في فلسطين المحتلة من قبل الصهاينة الذين لم يجدوا في ما يزعمونه من تراث مشترك أية مقومات لشخصية قومية فوضعوا أيديهم على الفولكلور الشعبي العريق في فلسطين وانتحلوا الملابس والغناء والموسيقى والرقص الفلسطيني وادعوه بعد أن ادعوا ملكية الأرض نفسها ، ويجسد ذلك أدنى ما يمكن أن تصل اليه يد الاستعمار من خسّة .

والتفريغ الثقافي في بلادنا لم يكن مقصوراً على انتهاب مواد الثقافة الروحية بل اتجه الى القضاء على أهم العناصر المكونة للروح والشخصية القومية وهو اللغة لأنها الوعاء الذي يحتوي أهم العناصر الثقافية لدى كل أمة . فكان امتهان اللغة والتضييق عليها وقتلها واحداً من الميادين التي نشط فيها الاستعمار الثقافي في مختلف ارجاء الوطن العربي .

واذا كانت اللغة العربية استطاعت أن تحقق بعض الحماية لنفسها بفضل الخدمة التي قدمت لها في عهد اليقظة العربية في مصر والشام ، فان الفرنسيين عندما دخلوا سوريا ابتدعوا طرقاً مختلفة لصدّ تيار الثقافة العربية ، منها الإهمال المتعمد للمدارس والمعاهد التي تدرس باللغة العربية . والتخاذل عن ايجاد الوسائل لتدريب المدرسين الذين تحتاجهم تلك المعاهد »[١١] . وكان الأمر أشد حدة في ليبيا خلال مرحلة الغزو الايطالي . وتشير المفاوضات التي جرت بين الثوار الليبيين وبين الغزاة أن أهم نقطة كان يدور حولها الجدل ويصر المجاهدون على اقرارها هي السماح بتعليم اللغة العربية والاعتراف بها في جميع مجالات الحياة والادارة ، في حين كان الطليان يصرون على فرض لغتهم الغازية . أما في الجزائر فاتخذت الأمور أبعد حدود المأساوية ، فمنذ بداية الاحتلال بدأ التضييق على اللغة العربية ، وكان أول صوره إقفال المساجد وتحويلها إلى كنائس أو معسكرات أو . . . إلى بيعها في المزاد العلني ، والمساجد الاسلامية ـ كما هو معروف لا تقوم بوظيفة دينية فقط بل هي مراكز لنشر العلم وتعليم العربية بصفة خاصة . وقد ظل هذا التضييق متصلاً طوال سني الغزو الاستعماري ، ولم تمض الا بضع سنوات على الاحتفالات « القرنية » باحتلال الجزائر حتى أصدر شوتان ، وزير الداخلية الفرنسي مرسوماً باعتبار اللغة العربية اجنبية في الجزائر يحظر تعليمها أو التعلم بها* .

والمسلك الاستعماري نحو ثقافة المستعمَر يتمثل عادة في المغالطات وفي التشكيك بثقافة المستعمَر وقدرته ومكانته في السلم الحضاري ، وذلك لكي يقتنع أخيراً وبصورة تلقائية بأنه ليس إلا صفراً في الصرح الحضاري الكبير الذي يحتل المستعمِر فيه الذروة . « فالوضع الاستعماري اذن علاوة على أنه يصيّر الانسان غريباً عن شخصه فهو يجعله حاقداً على نفسه بل مخجلاً منها ، فبعد ما نزع مني اسمي وسلب مني ماضيَّ وذاكرتي صار يسرق مني أيضاً كياني النفسي وأساطيري وكل أسرار جمالي كانسان »[١٢] . وأمام هذا الفراغ أو التفريغ يتقدم المستعمِر بثقافته بكثير من الفوقية والعنصرية . فخلال فترات النهب والتجريد كانت تنظم مراكز للدراسات العربية والآسيوية والافريقية توجه الدراسات فيها وفقاً لأهواء المستعمِر وخططه ومصالحه ومنها يتم تسريب مختلف النظريات الثقافية العرقية التي تفسر كل شيء بالفوقية الاستعمارية والتركيب

(*) نشر صاحب هذه الدراسة بحثا بعنوان : «العربيةوالتعريب في الجزائر»نشر في « مجلة كلية التربية » جامعة الفاتح العدد ٨ ، ١٩٧٨ ، ص ١٠٣ ـ ١٠٩ وفيه بعض التفصيلات حول هذا الموضوع .

الايديولوجي الخاص لدى رجال الاستعمار ، بينما يفسر التخلف الثقافي لأهل البلاد بالتخلف البيولوجي الذي لا سبيل إلى الخلاص منه . وبهذا يتم التمهيد لايصال هؤلاء إلى مركب النقص والشعور بالدونية والقبول بالوضع القائم بل وبمنة الاستعمار . . والبقية معروفة .

وعندما نتحدث عن احلال الثقافة الاستعمارية محل الثقافة المحلية فاننا لا نعني أن الاستعمار يود حقاً أن يقدم العلم أو الثقافة للشعوب . فقدر الانسان في الدولة المستعمرة محدد منذ ولادته : كمية مهملة في أرضها ، أجير في مزرعة المستعمِر ، عامل في منجم أو لحم لمدافع المستعمرين . فلم يكن التعليم أو التثقيف يوماً من مهام المستعمرين ، وقد طرح خليل قوت باشا على نفسه السؤال التالي قبل أن ينسحب من ليبيا عائداً إلى بلاده : « ماذا اعطى السلاطين . . لهذه القطعة الافريقية العثمانية غير السجون المخصصة للاحرار »[١٣] وتنسحب هذه العبارة على جميع البلاد التي ابتليت بالاستعمار . فالرمز الذي يذكر بالوجود الاستعماري ، سواء في ليبيا أم في الجزائر أم في أي رقعة من العالم ، ليس المدرسة والاكاديمية أو المنتدى الثقافي بل السجن ومركز الاعتقال والمنجم الذي تذوب فيه حياة الناس لتتزايد مرابح المستعمِرين . ان الاستعمار حرب لآدمية الانسان وبالتالي حرب ضد ثقافته وتربيته ، والأمّية هي المظهر الطبيعي « للحياة الثقافية » في المستعمَرات وقد لا تتجاوز نسبة من يذهبون الى المدارس الخمسة بالمئة من مجموع من هم في السن الدراسية . ولعل من المفارقات المضحكة المبكية (وما أكثر ما يحمله الاستعمار من مفارقات) ان عدم قيام الاستعمار بادخال التلاميذ الى المدارس وبالتالي تعليمهم لغته بطريقة منهجية صحيحة كان من الأسباب الرئيسية في بقاء اللغة الوطنية واستمرارها .

أما النظريات التي يحاول المستعمِر اقحامها في الوعي الانساني فهي دوماً قائمة على العنصرية والتضليل ، ومما يثير التأمل أن تطرح أمثال هذه النظريات لا لاستهلاك البلدان المستعمَرة فقط بل وان يؤمن المستعمِرون أيضاً بضلالها ، لكن يبدو أن الجو الموبوء المشحون بروح العداوة والقهر ييسر امكانية قبول أشد انواع التضليلات ، فاذا كانت كتب التاريخ في المدارس الفرنسية لا تزال تؤكد حتى الآن على أن ضربة المنشة كانت الذريعة لاحتلال الجزائر فليس غريباً أن يصرح لوي برتراند بقوله : « فنحن عندما دخلنا الى افريقيا لم نعمل شيئاً سوى استعادة ولاية فقدناها منذ عصور الرومان . ونحن كورثة لروما نطالب بحقوقنا التي وجدت حتى قبل دخول الاسلام هذه البلاد ، والاثر الرمزي لهذه البلاد ليس الجامع وانما قوس النصر « ثم يتساءل » ايحط من قدر الجزائري أو التونسي المسلم أن نذكره بأصله الروماني ؟ إن كل ما يهمنا في الجزائر هو اعادة خلق شعب الجزائر الروماني وان نعيد مسيرة الزمن من جديد »[١٤] .

ونحار في من هو الوريث الحقيقي للحضارة الرومانية عندما نسمع هذه النغمة تتردد بصورة أكثر الحاحاً في الأدبيات الاستعمارية الايطالية التي كانت تؤكد على أن غزو ليبيا كان مجرد استعادة أرض رومانية . وتعود جذور هذه النظرية الى أول أيام الاستعداد للغزو حينما كانت ايطاليا تجتر أوهام وراثتها لروما العسكرية القديمة القوية وتسمي ليبيا بشاطىء ايطاليا الرابع . وقد مجّد « دي مارينيس » ذلك التيار الايطالي« الذي يتمسك بما كان ينادي به ماتزيني بوجوب اداء رسالة ايطاليا في البحر الأبيض المتوسط بصفتها حاملة شعلة حضارة روما الخالدة والروح اللاتينية المجيدة » وأشار في خطابه الذي ألقاه أمام البرلمان بتاريخ ١١فبراير ١٩٠٧قائلاًان فكرة وحدة المتوسط : «ليست فكرة امبريالية ولكنها احترام قانون تاريخي يدفعنا الى الاهتمام بالساحل المقابل من هذا البحر »[١٥]*

وقد دحض فرانسيس ماكولا كل هذه الأفكار بعبارته الساخرة عندما قال : « كانت ايطاليا قد نمت ادعاء عاطفياً بحقها في هذه الولاية التركية طيلة أكثر من قرن وقد بنت الادعاء على أن طرابلس تقع على بعد مسيرة يوم بالباخرة من صقلية ، وانها كانت في السابق ولاية رومانية . ولا اجد حاجة للاشارة إلى هزال هذه الأسباب فقد كانت انجلترا أيضاً مستعمرة رومانية »[١٦] .

أما الفئة القليلة العدد التي قيض لها أن تدخل المدارس في العهد الاستعماري وتنال قسطاً من التعليم فتعرضت لعمليات غسيل دماغ عجيبة وفرضت عليها مفاهيم غربية ليس فيها تقريباً ما يستوقف النظر الا ان يكون من المستعمرين من يؤمن بها . ففي الجزائر مثلاً ادخلت مجموعة من المغالطات تقضي بأن الجزائريين ـ احفاد الرومان ووصلت أصولهم بطريقة عجيبة بالأصول الهندو ـ أوروبية وسميت عصور ما قبل الاحتلال بالعصور الغامضة كما عد دخول الاسلام وتعرب المنطقة طفرة شاذة في مجرى التاريخ مثلما عد البحر الفاصل بين الجزائر وفرنسا طفرة جيولوجية فصلت الجزء عن الكل حتى كانت ضربة المنشة ايذاناً بالقطيعة وعودة الأمور إلى نصابها .

يحدثنا الكاتب الجزائري مولود فرعون عن تجربته المريرة من خلال رؤية طفل بريء أقحم وعيه في هذه « الخدعة المروعة » حسب قوله فيقول : « منذ وقت مبكر جداً أوحى اليّ معلمي أن فرنسا أمي الثانية وأنني اليتيم الذي تعنى به ، وقد ملأني ذلك كله بالخضوع والامتنان القلبي فأحببت فرنسا أكثر من حب أي طفل فرنسي لها . وقد شرح لي المعلم مغزى الألوان الثلاثة . . وكان ينظر بنفس المستوى من الاعجاب الى روبسبير والى الكورسيكي القصير القامة الذي دوخ العالم . إلا أن مقته كان موجهاً بكليته الى الداي حسين الذي أنقذتنا منشته الشهيرة من البربرية »[١٧] . وليس بعيداً أمام

(*) ويستنكر فانتانو سالفيميني في « كيف ذهبنا إلى ليبيا»هذا الموقف من بلاده عندما يصيح « ألم يكن يوجد في ايطاليا علماء جادّون ودارسون لهم ضمير ووجدان ؟ وماذا كان يصنع أساتذة الجغرافية والتاريخ في الجامعات وزملاؤهم في العلوم الانسانية والقانون الدولي والشؤون الشرقية ؟ هل صدقوا هم هلوسة الصحفيين وهذيانهم ؟ واذا لم يصدقوها فلماذا تغاضوا اذاً عنهم ؟ » المرجع السابق ص ٦٥ .

هذا التضليل المقيت وازاء براءة الطفولة ان يستظهر التلاميذ الأناشيد الاستعمارية ، ففي سوريا كان الحماس الوطني يشتط بالموظف الفرنسي احياناً فـ « يأمر أن يحفظ الأطفال في المدارس نشيد « المارسيليز » وهم لا يكـادون يفكّون حـروف الأبجـديـة في لغتهم »[١٨] . وكانت الفاشية الايطالية تسير في الاتجاه نفسه وهي تصك في ذاكرة الليبيين الصغار الأبرياء ألحان العظمة الرومانية القديمة عبر نشيد الشبيبة الشهير بعنفه وموسيقاه »* .

. وبالاضافة إلى التجهيل الجماعي وملء الـرؤوس بالمفـاهيم الاستعمارية المضللة كان الاستعمار دائم الاصرار على أن يفرض صورته ، صورة المتفوق العملاق ذي الجبروت من خلال جميع المظاهر التي يمكن أن تقع عليها العين واذا كنا نستمد بعض أمثلتنا من الجزائر فلأنها تقدم النموذج الأكثر مأساويـة عن التطرف الاستعماري ومسلكه العنيف من اجل الحاق البلاد الحاقاً ثقافياً ، اقتصادياً ومصيرياً بما كان يسميه « الوطن الأم » ، فكان التخطيط يجري لحرف مسيرة الشعب بكاملها وتحويلها لتصب في مجرى الثقافة الفرنسية . كانت « الفرنسية » تشمل مختلف مناحي الحياة الظاهرية والضمنية .فاكسبت المدن والأرياف مظاهر توحي للانسان بأنه في فرنسا وأقيمت التماثيل للفرنسيين الكبار في مختلف المناطق ، وظهر في المدن ما يسمى بالأحياء الأوروبية التي فرضت طابعها فرضاً على الجو الشرقي الخاص للبلاد حتى أن بعض الكتاب عبر عن اشمئزازه من ذلك ، فكتب موباسان عن مظهر الحي الأوروبي في الجزائر فقال « منذ الخطوات الأولى يهزكم ويخجلكم الشعور بالتقدم الذي تم تطبيقه في هذه البلاد ، والحضارة البليدة الفظة التي قليلاً ما تتسق مع الظروف المحلية ، ومع الناس الاصليين ، والأقرب إلى العقل اننا نبدو برابرة بين هؤلاء البرابرة »[١٩] . وطمرت التسميات العربية في تراب النسيان ونبشت من الجعبة الاستعمارية آلاف الأسماء الجديدة التي ألصقت بالمدن والقرى والشوارع والمحلات ، وفي جنبات الأرض الاسلامية أخذت تتردد أسماء السان ميشيل والسان فيليب والسان جـورج وانطوان وارنـو . . وغيرهم من السانات ووضعت على الشوارع أسماء الأدباء والعلماء والفنانين والكتاب والشعراء والمصورين والمبشرين والمستشرقين الذين ساهموا بالعمل أو بالقول أو بالصمت في الجريمة الاستعمارية التاريخة* وأخرجت ملفات الجنرالات وكبار الضباط الابطال . الذين كانت ضمائرهم تحمل أكبر أوزار حروب الابادة ضد الشعب الجزائري فصارت تطلق على المؤسسات والميادين ، كل ذلك من اجل الضغط المتواصل على الوعي الانساني في كل مكان واشعاره بأن الجزائر الجزائرية قد زالت وحلت محلها جزائر فرنسية جديدة .

وفي ذلك الوقت كانت تنشط جحافل التبشير وقد يسّرت امامها كل السبل لكي تنقذنا من أنفسنا ومن قناعاتنا الدينية والحياتية . أما نشاط هؤلاء المبشرين واهتماماتهم وسياستهم فقد لخصته عبارة الكاردينال « فيجري » البليغة : « لقد وجب اعادة بناء الشعب وفصم وقف حياته على القرآن الذي ارتبط به منذ زمن بعيد ، مستعملين كل الوسائل الممكنة . ومن جهة أخرى يجب تلقين أبنائه ، وعلى الأقل ، مشاعر ومبادىء جديدة كما يجب على فرنسا أن تقدم ، اذا لم أخطىء أو بالأحرى تسمح بتقديم الانجيل أو تعمل على طرد هذا الشعب الى الصحراء بعيداً عن العالم المتحضر ، وبغير هذا كل شيء يصبح وسيلة لا تفي بالغرض ولا قدرة لها »[٢٠] .

وقد لا يَدهشنا تصريح الكاردينال بـ « الانجيل أو الصحراء » اذا علمنا أن الصليب الاستعماري كان يسير دوماً في ركاب السيف ويكملان معاً سياسة واحدة .

وبينما توفرت للتبشير الديني كل الاسباب ، كان الدين الاسلامي يحارب بشتى الوسائل . ولما كان ابطاله بقرار من وزير الداخلية متعذراً فان سلطات الغزو وجدت الطريقة لمحاربته عن طريق اظهاره في هيئة كاريكاتورية عبر ما كانت تشجع على احداثه من بدع وفرق وطرق مختلفة متنافرة .

إن تفتيت الدين الواحد الى طوائف متشاحنة متضاربة من البدعية والطرقية وما شابهها يؤدي للاستعمار الدور نفسه الذي تؤديه التفرقة بين الأمة الواحدة على أساس مذهبي بل ان هذه الطرق كانت تقدم للاستعمار من الخدمات ما يتجاوز بكثير ما يمكن أن تقدمه جيوش بكاملها . فعلى أساس هذا التفتيت تنكمش كل طريقة على نفسها وتعلن أنها الأهدى الى الحق ، وبهذا تقوم أول الأسوار المصطنعة دون التفاهم واللقاء السليم بين أبناء الأمة

(*) كان مطلع النشيد : ومن كلماته :

يـا شبـابـا يـا شبـابـا يا ربيعا مستطابـا
رومـة تـأبى الهـوانـا نجمها يأبى الخمود
انـنـا أبـنـاء رومـا جندها نحن القدامى
قـد سعينـا ألف ـ عـاما ـ ثم عدنا للعهـود

(*) لا بد من الاشارة ـ وموضوعنا يتناول واحدة من القضايا الثقافية ـ الى أن مرحلة الاستعمار الغربي الحديث للبلاد العربية تتزامن مع العصر الثقافي الذهبي ومرحلة الانسانية الجديدة بالنسبة لأوروبا . ومن الأمور التي تستوجب الدراسة مستقبلاً ـ الموقف المؤيد أو الصامت الذي وقفه مثقفو أوروبا من المجازر الاستعمارية ومن الوأد الثقافي المعروف ، والذي ـ اذا لم يكن شاملاً فقد كان عاماً . أم هل علينا أن نكتفي بالتساؤل الذي طرحه مولود فرعون اذ قال : « هل هو محض صدفة أن العالم الذي يرانا نقاسي لم يقتنع بأننا بشر ؟ حقيقة لسنا سوى مسلمين وربما تكون الجريمة التي لا تغتفر ، هذا سؤال أردت أن أوجهه لسارتر أو كامي أو مورياك » مولود فرعون . يوميات معركة الجزائر ترجمة عبد العاطي جلال . الهيئة المصرية العامة للنشر والتأليف ١٩٧٠ ص ١٥٣ .

الواحدة . وكان أصحاب هذه الطرق يؤدون بالنسبة للبسطاء من الناس أدوار المحامين والأطباء والقضاة فهم يفصلون في النزاعات ويعالجون الأمراض بالتعاويذ وما شاكلها ويحولون دون الاحتكاك بمثقفي المدينة فيضربون سوراً اضافياً دون التفاهم القومي كما انهم يتجردون عند اللزوم لإنزال لعنة الهرطقة والخروج على الدين بمن يجيء بالآراء الثورية الداعية إلى التغيير(*). وكان ذلك من أهم ما يرمي اليه الاستعمار ، كما انهم كانوا يكثرون من المشاحنات والشقاق والفتن واستقطاب الانصار وتنظيم الزردات واظهار « الكرامات » وبذلك كانوا يؤدون خدمة اضافية للاستعمار عن طريق امتصاص النقمة الشعبية أو تسريبها في مسارب الفتن الطرقية والقبلية والمشاحنات الداخلية وهو ما يؤدي بمجموعه إلى وقف تطور الروح القومي الجماعي الموحد الذي يؤدي تصاعده الى الثورة . أما الثقافة الصحيحة المتجهة الى السموّ بالانسان وتمكينه من تحليل واقعه وادراك مسبباته بصورة موضوعية ثم البحث عن الوسائل الكفيلة بتغييره نحو الأفضل فانها تتحول إلى ضروب من الشعوذة والخزعبلات التي لا تتصل أيضاً بحقيقة الدين الذي يحض على إعمال العقل ويدعو الى الجهاد ضد الظلم ، بل انها في نهاية المطاف تعطي للمستعمرين امكانية جديدة للتعالي ولوصف المسلمين بالمتوحشين ودينهم بالهمجية ، كما تحول ذلك الحقد الكبير الذي كرسته أعوام الظلم الطويلة وتحرفه عن غايته الصحيحة المتمثلة في الاستعمار وتوجهه ليلاقي متنفّسه في الاخوة والاشقاء .

لهذا كله بدأ ابن باديس جهاده ، بالوقوف ضد الطرقيّة كما سنرى .

فما الذي حدث للثقافة العربية الأصيلة في ذلك الجو الاستعماري المسموم والمشحون بكل ضروب الكذب والتضليل والعنصرية ؟ لقد أثبتت تجربة السنين الطويلة أن العنصر الثقافي الأصيل لا يموت لكنه يتخذ لنفسه مسارات خاصة أمام الغارات الأجنبية وفي ظل الضغط والقسر الثقافي . وقد اتخذت الثقافة العربية وجهة الفنون الشعبية ومضت في طريق تطورها في ذلك الميدان البعيد عن أعين السلطة وأيديها واللصيق بقلب الشعب ومشاعره . فحكمة الشعب وطموحاته وآماله وحقده على الظلم وايمانه بالمستقبل ، كل ذلك وجد ملاذه في القصيدة الشعبية وفي الحكايات والأغاني والنوادر ـ والأمثال والاحاجي الشعبية التي أضحت المعبر الأصلي عن روح الشعب والأدب الشعبي القادر دوماً على أن يتخفى ويحتجب بعيداً عن عيون الرقابة والقمع أدى في هذا كله وظيفة اضافية وهي التعبئة الشعبية المتواصلة التي لم تتوقف وأصبح الذاكرة الجماعية الخالدة التي تسجل كل شيء فغدت الحكاية الشعبية رمزاً أبدياً للشهداء الذين قضوا دفاعاً عن الوطن ، فهي تغني نفسها بنفسها من خلال مختلف الاضافات والايحاءات البطولية ويصبح أبطالها المثل الأعلى الذي يود جميع الأطفال أن يقتدوا به والدي يسارعون الى تجسيده ساعة الخطر . أما القصيدة الشعبية فاحتفظت بشعلة الحقد على الظلم دائمة الاشتعال في القلوب وقصيدة « العقلية » الليبية والمعارضات التي دارت حولها ـ انموذج فريد من نماذج الأدب الشعبي العالمي التي وصفت قسوة المستعمر ووحشيته وحفظت في القلوب العهد الأبدي على التصدي والتحرر .

* * *

قطع ابن باديس وأصحابه طريقاً طويلاً وشائكاً في سبيل التمهيد للثورة التحريرية فكان يجب أن تبدأ الطريق من حيث « انتهى » الاستعمار . فبعد ضرب المقاومة الشعبية العنيفة للغزو بدأ الاستعمار بضرب الوعي الجزائري ووأده حتى تراءى له أن الأمور قد استتبّت وتم « ادماج » الشعب بالكيان الاستعماري ، وكان على ابن

(*) يلاحظ مدى انتباه المتنورين من رجال الدين الاسلامي إلى خطورة هذه الطرق في المقتطفات التالية التي نوردها من صحيفة « الشهاب » القسنطينية فقد كتب الطيب العقبي في مقال بعنوان : « يقولون وأقول » : « يقولون إن الأولياء هم الذين يتصرفون في الكون احياء وأمواتاً ولا تتحرك شعرة في العالم الا باذنهم لأن الله أعطاهم الكون . فقلت سبحانك اللهم هذا هو الكفر بعينه ، وهذا هو البهتان العظيم ، إن أولياء الله هم الذين آمنوا وكانوا يتقون ليس لهم ولا لغيرهم من الأمر شيء بل الأمر لله وحده ، يقولون إن مشائخنا يضمنوننا من دخول النار ، وهم شفعاؤ نا عند الله وانهم يعلمون الغيب وما في الأرحام حتى انهم يحضرون عند تصوير الجنين في بطن أمه فيكون كما أرادوه ذكراً أو انثى ؟ وبعضهم يبيع الولد الذكر لطالبه بثمن معلوم واجرة محدودة وأما الغيث ونزول المطر فهو أسهل شيء عندهم وفي أيديهم ومتى أرادوا نزوله نزل وانما يمنعهم من ذلك عدم رضا الله عن العباد لأنهم قصروا في خدمة المشائخ وفسدت نيتهم في آخر الزمان » الشهاب قسنطينة ١٨ فيفري(شباط) ١٩٢٦ . ويقول محمد سعيد الزاهري في هذا الصدد : « ولقد رأيت من هؤلاء المتدينين من لا يؤمن بالبعث ولا يصدق بأن الله يحيي العظام وهي رميم ثم رأيته يؤمن ـ اذا كان في جماعة من جماعات الطرق بأن « الغوث » الفلاني أحيا بغلة بعد موتها وان الآخر طلع الى السماء أو تطوع لجر الشمس مع الملائكة . حتى خرج « انترتيا » ثم هبط الى الأرض » ص ٣ ومن مقال لعبد الكبير الفاسي بعنوان : « العلماء والطوائف بالمغرب » نقرأ ما نصه « لا يخفى على القرّاء أن الطائفة العيساوية تحتفل بمولد شيخها محمد بن عيسى المختاري رحمه الله في نفس اليوم الذي يحتفل فيه سائر المسلمين بمولد نبيهم عليه الصلاة والسلام . فيفد بهذه المناسبة على مدينة مكناس حيث مدفن ذلك الشيخ الوفود الكثيرة من سائر انحاء المغرب الأقصى ويكون ذلك اليوم وما بعده أيام مناكر وبدع تأباها الشرائع والطبائع ولا تصدر عادة إلا عن المجانين وممن لا أخلاق لهم وقبل ذلك اليوم بنحو أسبوع يأخذ أصحاب تلك الطائفة في سائر مدن المغرب وبواديه في شطحاتهم وأكلهم اللحوم النيئة المنتنة والزجاج المكسر والعقارب السامة يجولون في الأسواق والديار ، والنساء والصبيان معهم في ذلك على حد سواء ، ومما يزيد في الطين بلة أن الأمر لا ينحصر في الويلات التي تقوم بها هذه الطائفة الضالة بل إن اختها الطائفة الحمدوشية التي هي أضل منها تشاركها في ذلك بما هو أضر من اكل اللحوم النيئة أي بشدوخ الرؤ وس حتى يتطاير منها الدم ويسيل على وجوه أصحابها فترى منهم من يلعق ذلك الدم الذي يتغير لونه وطعمه وريحه بمرور ساعات عليه واختلاط غبار الشوارع فيه . . كل هذا واحسرتاه يقع بمرأى من الأجانب وهم يسجلون ذلك على الاسلام بصورهم الشمسية والمتحركة فتباع في مشارق الأرض ومغاربها وتكون عندهم من أقوى الحجج على أن الاسلام دين لا يصلح الا للهمج والمتوحشين » الشهاب . قسنطينة ، ٤ سبتمبر (أيلول) ١٩٢٦ ، ص ١ .

باديس وأصحابه أن يبدأوا بايقاظ الوعي تمهيداً لايقاظ حركة المقاومة كلها . وكانت السبيل الى ذلك - ازاحة الغلاف الثقافي الدخيل الذي فرض على النفس والغوص الى الجوهر الحقيقي للانسان . فبدأ الامام ابن باديس بالتعليم وبتعريف الناس على الدين الصحيح الذي يرفض أن يستعبد انسان انساناً ، وبدأ حملته ضد الشوائب التي تغلف جوهر الدين ولذلك انطلقت من جانب الطرقيين أول محاولة لقتله . وتحت ذريعة تعليم الدين نال الموافقة على تعليم العربية فبدأ نشاطه في ذلك عبر عدد من الكتاتيب البسيطة التي كانت تفتقر إلى أدنى الشروط التي زودت بها المدارس الفرنسية . لكنها كانت بداية الزحف الثقافي المضاد وكانت أشبه ما تكون بتلك البنادق « البدائية » التي تصدى بها جيش التحرير في أول مراحل الحرب للأسلحة الاستعمارية الحديثة فاستطاعت أن تصمد وتتطور وتنتصر لأنها كانت تعتمد على الصدق والتفاني وعلى روح الشعب .

وشيئاً فشيئاً بدأ التصدي للفرنسية ولم يطل الوقت حتى بدأت الأجواء تردد صدى نشيد جديد يعيد إلى الأذهان عفوية الاناشيد المشرقية الأولى وصدقها واستعداد النفس لتقبلها . وكان النشيد يحمل بكلماته البسيطة كل صور الرفض للفرنسية ويتألق فيه الجوهر الأصيل للانسان الجزائر ، فكان ترديده شاهداً على بداية وعي جديد ورداً على المحاولات التي امتدت عشرات السنين لتحويل مسيرة الشعب . تقول بعض كلمات النشيد :

شـعـب الجـزائـر مـسـلـم	والى الـعـروبـة يـنـتـسـب
مـن قـال حـاد عن أصـلـه	أو قـال مـات فقـد كـذب
مـن رام ادمـاجـاً لـه	رام المـحـال مـن الـطـلـب

وأخذ الامام يوقع مقالاته بأسماء تعيد إلى الاذهان امجاد الماضي الذي حاول الاستعمار دفنه . فترددت أمام الانظار أسماء « الكتامي » ، « الصنهاجي » « الزواوي » و « العبسي » وصارت الصحف تنشر الأنباء عن الثورة السورية وثورة عبد الكريم الخطابي في المغرب وعن البطولات الليبية ضد الطليان وعن قضية فلسطين لكي تشعر القارىء بأنه جزء من أمة عريقة ، كبيرة تنتفض لنيل حريتها ، ومن طيات التراث بدأت تتردد قصص عن البطولة العربية ، وفي ضوء ذلك كله بدأت اتجاهات الامام ابن باديس نحو التربية السبارطية للشبيبة واعدادها للمعركة الحاسمة ، فباسمه يرتبط انشاء الفرق الرياضية والكشفية والتي كانت تعبيراً واضحاً عن أن الوعي القومي سيجعل الشعب يتحسس عضلاته وينميها استعداداً للمعركة الفاصلة .

لقد كانت حركة الوعي في المشرق في بعض جوانبها تصدياً لغزوة خارجية وكانت حركة الوعي في الجزائر تصدياً لمحاولات الوأد والافناء المتكررة المتواصلة ، الا انهما التقيا معها في المنطلق الاساسي وهو العودة إلى الجذور ، احياء اللغة والفهم الصحيح للدين بصورته الديمقراطية المتسامحة والداعية الى التصدي للظلم ، والشعور بالكيان القومي المشترك الموحد . .

الاستعمار الجديد والغزو الثقافي

تضاربت الأقوال في ماهية الاستعمار الجديد ومدى انتسابه إلى الاستعمار العسكري السابق ، بل ووقف العديد من مفكري الاستعمار ضد هذا المصطلح وعدّوه من المصطلحات الجديدة التي صاغها اعداؤهم أو استنبطها مفكرو العالم الثالث لكي يبرروا بها تخلفهم وتبعيتهم المزمنة ، لكن هذا النمط من الاستعمار قائم على مساحة العالم العربي المعاصر وهو يمثل « المرحلة المعاصرة في تطور الظاهرة الاستعمارية وانتقالها من الطور التقليدي المباشر إلى الطور غير المباشر والأكثر تنوعاً وتعقيداً في أدواته وأساليبه»[٢١] . وهذا الطور من الاستعمار يعني في معظم الحالات استبدال اسلوب الوجود العسكري في الضغط الاستغلالي على الشعوب بشبكة من الأحلاف العسكرية وتكبيل الدول الحديثة الاستقلال بالمعاهدات والأحلاف ثم خلق واذكاء الخلافات فيما بينها سعياً إلى اضعافها والى تطوير الصناعة العسكرية للدول الاستعمارية والهيمنة بالطرق المختلفة على اقتصاد الدول الحديثة الاستقلال وتوجيهه الوجهة الرأسمالية وتحويله إلى اقتصاد استهلاكي أو « خدماتي » فقط والزامه بالتبعية الأبدية للنظام الرأسمالي والعمل على رفد الحكومات بعناصر موالية للاستعمار ، سواء عن طريق التأثير المباشر أو فرض الانقلابات العسكرية أو غير ذلك ، الا أن ما يستوقفنا من ذلك كله هو وجه الغزو الثقافي الذي تتوسل الدول الاستعمارية به لتحقيق هيمنتها الاقتصادية والعسكرية والستراتيجية بصورة غير مباشرة على مصائر الدول المستقلة في ما يطلق عليه اصطلاحاً « العالم الثالث » .

والحق أن الوضع الذي يعيشه الوطن العربي يقدم أنموذجاً فريداً على هيمنة أساليب الغزو الثقافي . فقد أجليت الجيوش الأجنبية من معظم الأراضي العربية وصار لكل دولة راية وطنية وصوت في منظمة الأمم المتحدة ومعظم الهيئات الدولية كما وصار لها وزارتها الخاصة بالشؤون الخارجية ودبلوماسيوها ومنهجها التربوي وتطلعاتها الى المستقبل . . واكتسبت الصورة المتحررة من كل شيء إلا من الغزو الفكري الذي يكاد يتغلغل في جميع خلايا مجتمعنا العربي ليضعنا جميعاً في موقف الشعور الدائم بالانبهار الحضاري أمام عظمة الغرب ويزرع في أعماقنا مركبات النقص الخالدة .

وقبل أن نبدأ باستعراض الاتهامات الموجهة إلى الاستعمار - خاصة واننا قد استرحنا لعادة تعليق مشاكلنا على مشجبه - يحسن بنا أن نشير إلى الاسباب التي يسّرت لهذا الامتداد الواسع في الغزو الثقافي لبلاد العرب والتي يمكن تلخيصها بعبارة « التخلف » ، ذلك التخلف الذي تعمل على تكريسه عوامل ضمنية وخارجية . فمعظم النظم التي جاءت بعد اجلاء المستعمر لم ترد أو لم تكن قادرة على طرح البديل الثوري الصحيح للتركة الاستعمارية والقيام بالتصفية الشاملة للاستعمار . ولا نتحدث هنا عن النظم التي جاءت مجرد

بديل للسلطة الاستعمارية ووقفت متكاتفة معه بعد خروجه الشكلي وتعاونت معه على استغلال الشعب* وزيادة تبعيته للآلية الاستعمارية. وما تكريس التمزق والتشتت العربيين الا طريقة من طرق الحيلولة دون اتخاذ خطة ثقافية عربية موحدة تستطيع أن تتصدى للغارة على الثقافة العربية وتضمن تبادل الخبرات والمعلومات بين مختلف المناطق . واذا كان الغزو الثقافي ـ كما أشرنا في الفصل السابق لا يتم الا بعد اعداد التربة الصالحة لذلك ، فاننا نحن الذين نقوم باعداد هذه التربة باصرارنا على التخلف الثقافي لأسباب يصعب حصرها حتى صرنا نتقبل الكثير مما يجيء به الاستعمار شريطة أن يصل جاهزاً « معلباً » لا يحتاج الى كثير من الفحص واعمال العقل في معرفة الاسباب والنتائج . لقد سرت روح الاستهلاك في حياتنا الفكرية فصار من الصعب أن نهتم بالابداع والانتاج والغوص في عالم المعرفة ما دام هناك من سبقنا الى هذا العالم فلم يتبق لنا الا أخذ ما نراه جاهزاً . وقد يعترض معترض ويستنكر هذه التهمة مشيراً إلى الحركة الهائلة المتمثلة في الاعداد التي « لا تحصى » من المطبوعات والدوريات والصحف والمجلات والكتب العلمية** والكتب الموجهة للأطفال العربية . بل وقد يشير إلى أن « تجارة الثقافة » هي الآن الأكثر جدوى وربحاً بدليل هذه الوفرة الفياضة من دور النشر والتوزيع والاعداد الكبيرة من المجلات المحلية و « المهاجرة » والتي صارت تفرخ بصورة دورية مجلات جديدة تتنافس فيما بينها بالزخرفة وحسن الاخراج وأخيراً هذه الموسوعات المتزايدة العدد من الكتب التربوية وسوى ذلك ، الا يدل هذا كله على يقظة ثقافية واهتمام عربي يوحي بالتفاؤل ؟ ولكن قد يكون هذا كله دليلاً لا يدحض على التغلغل الفكري الأجنبي في كياننا ، ففي الشهر الماضي مثلاً نشرت احدى المجلات « المهاجرة » حقيقة طريفة ، على لسان احد الصحفيين ، تستحق التوقف أمامها قليلاً : ـ « احد الزملاء شده غرام طارىء بالأرقام فجمع الصحف العربية وخرج باحصائية مدهشة ، وهي أن تلك الصحف تحتوي على ٩٠ بالمئة من الاخبار العربية منقولة عن وكالات الانباء الأربع الكبرى في الدول الرأسمالية وتنقلها بآرائها وأفكارها المعادية طبعاً للعرب ، وتأخذ الصحيفة الصادرة في بلد عربي عن وكالة فرنسية اخبار بلد عربي آخر مجاور . وقام الزميل نفسه بتحقيق حول مكاتب وكالات الانباء العربية في باريس فخرج بنتيجة مذهلة وهي أنها جميعاً تترجم أخبار الوكالة الفرنسية ولا تشكل الأخبار التي تستقيها من مصادرها الخاصة أكثر من ٥ بالمائة ولا مجال لفتح ملف بعض الصحف والمجلات التي تقوم بترجمة المقالات الصادرة في الصحف الأوروبية ترجمة حرفية وتنشرها وكأنها رسالة خاصة بها ، وتشكل تلك الرسائل الخاصة أكثر من نصف موادها »[٢٢] . فهل يحتاج هذا الى تعليق وهل هناك ما يبرر هذا الركون الى المنابع الغربية غير رغبتنا في تعطيل عقولنا ، ثم هل هناك ما يسمح لنا أن نأمل بأن تكون الكتب الأخرى التي تصدرها دور النشر العربية بريئة من هذا التواكل والتطفل والانتحال ؟

اننا لم نتحرر من الاستعمار بصورته العسكرية الا عندما بدأنا بالنقد الذاتي وتساءلنا لماذا نحن مستعمَرون ؟ ولن نستطيع مواجهة الغزو الثقافي إلا بعد أن نواجه ذاتنا ونعترف بقسط وافر من المسؤولية في تيسير المسالك لهذا الغزو . واننا استطعنا في بعض الأحيان أن نحقق للاستعمار ، عبر توجهنا الى التعليم ، ما لم يستطع أن يحققه بأساطيله ومدافعه ، فحققنا للغاته انتشاراً واسعاً في مدارسنا وخصصنا لها من الحصص الدراسية أكثر مما نخصصه للغتنا القومية التي ضحينا من اجل صيانتها بالدماء والأرواح .

والى العوامل المذكورة في اعداد التربة الصالحة للغزو ، نضيف أيضاً حرص الدول الاستعمارية على تحقيق المكاسب المادية من تخلفنا الثقافي ووقوفها الدائم في وجه تقدمنا . ونحن هنا لا نتحدث عن المكاسب الخيالية التي تتحقق أثماناً للاسلحة والآليات والطعام والملبس والمأوى وتنفيذ المشاريع بل ما أعنيه ما يؤخذ كثمن للخواء الثقافي والتبعية الفكرية ، فالاستعمار هو الذي يحدد أثمان معالجة مرضانا ويفرض أثمان كتبنا الدراسية والجامعية* والصحف والأشرطة المرئية والخيالية بل ويفرض ما يريد ثمناً لمخطوطاتنا النفيسة التي نضطر لاستعادتها ولو بالتصوير كما ندفع ما يراد منا ثمناً للملابس التي لم نضع تصاميمها ولكل ما نستهلكه من أثاث وتجهيزات لم نشارك في تصميمها أو صنعها . .

وعلاوة على ما تقدم فان التحدي الثقافي يسير في خط بياني متصاعد ، في حين نزداد عجزاً عن تقديم الابجدية الثقافية لشبيبتنا

(*) في فصل « مزالق الشعور القومي » من كتاب « معذبو الأرض » يقدم فرانتز فانون تحليلاً معمقاً لمسلك البورجوازية الوطنية وتعاونها مع البرجوازية الاستعمارية في استعمار الشعب ، ينظر : فرانتزفانون . معذبو الأرض ترجمة سامي الدروبي وجمال الاتاسي . بيروت دار العلم ١٩٦٧ ص ١١٤ ـ ١١٥ ويقدم ريني دوبستر حقائق مذهلة عن الوضع الذي كانت تعيشه بلاده بعد الاستقلال اذ أن « الحكم الوطني » أوصل البلاد إلى مستويات فاقت ما كان الاستعمار قادراً على انجازه فالأمية تشمل ٨٩ ٪ من السكان ونسبة التعليم الثانوي ١,٧ ٪ ومتوسط عمر الانسان ٣٢ سنة ، ينظر ريني دوبستر . المرجع السابق ص ٣٠٢ .

(**) في مقال له حول الترجمة يذكر أحمد حسن مأمون أن تركيا تصدر سنوياً ١٤٨٢ كتاباً في مجال العلوم والتكنولوجيا بينما لا تصدر الدول العربية مجتمعة أكثر من ٥٠٠ كتاب فقط . ينظر « لماذا نهمل الترجمة الى العربية » العربي العدد ٢٦٨ مارس ١٩٨١ ص ٦٢ .

(*) يطبع بعض الناشرين الأمريكان الكتب المدرسية للمدارس المتوسطة وللجامعات في عدد من الدول الافريقية وكانت بعض الشركات تتأهب لانشاء فروع لها في هذه الدول وقد باشر بعضها في تطبيق ذلك وقد اثنت الـ « افريكا ريبورت » على هذه الظاهرة بقولها ان هذه الفروع تتمتع بامكانيات كبيرة للغزو فهي تملك القوة البشرية والمال وتستخدم خبرة الشركة الرئيسية . وهكذا وتحت ماركة « صنع في افريقيا » تحقق هذه الشركات لنفسها مكسبين ـ المال والتغلغل الايديولوجي . ينظر :

Africa - Report . November, 1970.

من اجل ابعادها عن تأثيرات هذا الغزو . فالأمية لا تزال واحدة من مشاكلنا الرئيسية وهي تتخذ في بعض أقطارنا حدوداً من السرطانية جعلت الأصوات تنادي لا بمحوها بل بالحد من تفاقمها . وهذا يؤدي إلى وقوع شبيبتنا فريسة البرامج والاذاعات التافهة والمجلات غير المحتشمة والاستعمار الذي جنى في حينه المرابح الطائلة من تجارة الأفيون الذي فرضه بالقوة على بعض الشعوب لا يتورع عن تحقيق مرابحه حتى من خلال هذه التجارة بالاشياء الخسيسة .

وأخيراً ، ما هي الصور والمظاهر التي يتخذها هذا الغزو الثقافي على الساحة العربية ؟

ذكر كيريل هاسكنز مدير معهد كارنيجي مرة « ان من المهم أن نتذكر أن المعارف يمكن أن تغرس في التربة المحلية مثل الأنواع الجديدة من القمح » . ومن هنا ينطلق التوجه الأمريكي الحديث إلى غرس الأفكار والمثل الرأسمالية في اجواء الشعوب الحديثة العهد بالاستقلال ، مدركة أن اختيار هذه الدول لطرقها يتحدد الى درجة بعيدة بنوعية التوجه السياسي للمثقفين والمفكرين . ومن هنا أيضاً تنطلق الرغبة في احتلال « منابع » الفكر والسيطرة على مراكز الاشعاع الفكري ومنابره وخاصة منها ميدان التعليم . ونذكر أنه عند حدوث أول تبدل في السياسة المصرية نحو أمريكا سارعت هذه الى دخول الميدان الثقافي ومحاولات التأثير على النهج الثقافي المصري بكامله . . ففي نهاية ١٩٧٤ رست « الجامعة العائمة » الأمريكية في ميناء الاسكندرية وزار ٦٠٠ من طلاب وأساتذة الجامعة الأمريكية المراكز العلمية في مصر وفي تلك السنة عقدت اتفاقية بين الجانبين حول اقامة بضع عشرات من المدارس في جمهورية مصر العربية بمساعدة من أمريكا وتجهيزها بالمعدات الأمريكية الحديثة ثم بدأ الاختصاصيون الأمريكيون بالمساهمة في وضع المخططات والمناهج الدراسية . وفي نوفمبر من سنة ١٩٧٤ وقعت اتفاقية تساهم الولايات المتحدة بموجبها في اعادة تنظيم المدارس في المدن الواقعة في قطاع قناة السويس وتكوين مراكز لاعادة تأهيل المدرسين المصريين بمشاركة الخبراء الأمريكان كما تنص الاتفاقية على ايفاد الاختصاصيين المصريين إلى أمريكا بهدف الاطلاع على الاساليب الامريكية لتنظيم الخطط والبرامج *

وأهم ما تلجأ اليه الدول الرأسمالية وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية التظاهر بالحياد السياسي وتقديم « المساعدات » الثقافية من خلال مؤسسات حيادية و « خيرية » (مثلما كانت تفعل الدعوات التبشيرية) كصندوق روكفلر وكارنيجي وفورد وهي تعمل دائبة على توجيه الفكر وعلى توسيع آفاق الاحتكارات الامريكية ، وأهم ما تسعى اليه هذه الصناديق الدعاية « للديمقراطية » الغربية والامتداح بغير حدود لمبادرات القطاع الخاص ، كما انها تعمل على انتقاد الطلاب وتقديم المنح الدراسية لهم في المعاهد الأمريكية ، وعادة ما تنتقي هؤلاء الطلاب من أوساط معينة اثبتت ولاءها للغرب ، كما وتتحول المنح المقدمة احياناً إلى وسائل لاستمالة بعض موظفي جهاز الدولة . يضاف إلى ذلك أن هذه الصناديق الخيرية التي تنطلق في الاساس من أكبر التجمعات الاحتكارية الامريكية تضمن بتقديم المنح لطلاب العالم الثالث ، توجيههم نحو النظم التقنية الأمريكية والتي يحاول المتخرجون بعد ذلك غرس نظمها في بلادهم وهو ما يضمن تبعية أكبر للتكنولوجيا الغربية .

هذه الدعوة إلى التوجّه نحو الغرب تمثل واحداً من الأهداف التي تسعى اليها الدول الغربية عند اقامة جامعاتها في بلادنا . فهذه الجامعات قنوات جديدة للتغلغل الايديولوجي يتم فيها تبادل المعلومات ويستقدم اليها طلاب الدول الغربية للقيام بأبحاثهم « في عين المكان » ومعرفة أفضل الطرق للتأثير علينا بالصورة المطلوبة كما ان هذه الجامعات تتجه في العادة إلى طبقة معينة مرشحة لتولي المناصب القيادية في المستقبل ، فالتحاق أبنائها بالجامعات الغربية في بلادنا يضمن « تغريبهم » وقطعهم عن جذورهم وتوجيههم الوجهة المطلوبة .

ويعمد الاستعمار الجديد إلى طرق مختلفة لضمان تأثيره الايديولوجي ويستخدم لذلك منظمات مختلفة لعل أطرفها ما يسمى بـ « فيلق السلام » الأمريكي الذي يتجه نشاطه الى شيء أساسي وهو صياغة الصورة الأفضل عن الولايات المتحدة وربطها برسالة تربوية انسانية وغرس محبتها واخماد المشاعر المناهضة لأمريكا في النفوس .

نظم الفيلق سنة ١٩٦١ ، وفي نهاية الستينات كان قد وزع نشاطه في ٢٥ دولةمن دول افريقيا، وكان أعظاؤه ينشطون في المدارس ودور المعلمين والجامعات والاذاعات وكانت مهمتهم في الاساس أن يكونوا « الوسيلة الأكثر فعالية لاستعراض ماهية الديمقراطية الغربية »[٢٣] . وقد طبلت أجهزة الدعاية كثيراً لاعضاء هذا الفيلق بل ورسمت لهم هالات من التضحية خاصة وانهم كانوا يتقاضون المرتبات الضئيلة التي تتساوى ومرتبات الموظفين المحليين وقد صدرت اليهم الأوامر بالا يقتنوا السيارات الفاخرة والا يتبجحوا بما يثير عليهم نقمة السكان ثم اتضح أن لهم مرتبات تصرف حال عودتهم الى بلادهم وتضعهم في مصاف من يخدمون الاحتكارات الأمريكية بكل نشاط .

والذي يهمنا في طبيعة هذه الفرقة من « الدعاة » هو أن افرادها يخضعون في بلادهم لاختبار مدقق ويهيأون تهيئة خاصة من اجل تحقيق أعمق تغلغل بين السكان . ثم انهم يستأثرون في العادة بتعليم مناهج الدراسات الانسانية وخاصة التاريخ والفلسفة ، والأدب بالاضافة الى اللغة الانجليزية أي المواد التي ترمي إلى « الأمركة » فـ « لا يوجد بينهم كيميائي واحد ولا فيزيائي ولا اختصاصي واحد بالاتصال اللاسلكي أو بناء الصناعة الثقيلة »[٢٤] .

(*) عن اوزادوفسكي . الولايات المتحدة وافريقيا ١٩٧٧ ٢٢٩ - ٢٣٠ .

واذا كان نشاط هذا الفيلق قد انكشف في عيون الكثيرين ، ولوحظ هبوط ملموس في حرارة نشاطاته فان ما قام به من نشاط في الدعاية الامريكية وما لا يزال يقوم به - أمور لا يمكن أن تخفى على عين .

وتستخدم الدعاية الغربية وسائل كثيرة للتأثير على الوعي في بلادنا . ومن القضايا التي تستحق دراسات مستقلة - وسائل الاعلام والمحاضرات والمواسم والنوادي الثقافية والمجلات والجمعيات المشتركة والأفلام التي لا تستخدم - بمجموعها - للهدف الانساني النبيل وهو التبادل الثقافي بمعناه الرفيع كما وتدخل في هذه الوسائل المساعدات التي تدفع لبعض الجامعات نظير تطبيق برامج معينة واقتحام النقابات العمالية ومحاولة حرفها عن اتجاهها واجراء الدورات التثقيفية العمالية على النهج الأمريكي .

* * *

كما ان من مظاهر الغزو الفكري الحديث - تلك الأوهام التي تغرس في حياتنا الثقافية وتسخر لها مختلف أساليب الاقناع . ولا غرابة اذا صادفت بعض الآذان المصغية ، فان صاحب الحق لم يعد في عالمنا هو الذي يملك الحق بل هو الذي يملك الوسائل الاعلامية الأقوى !! .

فالكتب ومنشورات الدعاية تحاول أن تغطي على الاضرار والويلات التي ألحقها الاستعمار بالشعوب وتحاول أن تلبسه دوراً تبشيرياً وحضارياً لا يمكن تجاهله . والمثل الذي يضرب على ذلك هو التقدم الذي تحقق في الولايات المتحدة وكندا وأوستراليا بفعل الاستعمار ، وهكذا يتناسى أن الاستعمار اتخذ في هذه الدول أشد أشكاله ضراوة فالحضارة التي أقامها المهاجرون في هذه البلاد انما أقيمت على انقاض حضارات أبيدت وأفنيت شعوبها . ومن خلال هذه الصورة التجميلية نسمع الأعاجيب : فالحروب التي شنت ضد الهنود الحمر كانت حروباً دفاعية[٢٥] . والقنبلة الذرية التي ألقيت على اليابان تكاد توصف بأنها رحمة نزلت على البلاد فأنهت الحرب ، والمنهج الأمريكي في الحياة هو الأمثل وبخاصة في الدول الحديثة العهد بالاستقلال . وقد اعلن زبيغنيو بريزنسكي استاذ جامعة كولومبيا والذي عمل طويلاً في مكتب الدولة على القضايا الخارجية بقوله : « ان نمط الحياة الأمريكية ، اسلوبنا ، الأنموذج الأمريكي ، وجميع مناهجنا تبين ، وبصورة متعاظمة ، المثال الذي يجب أن تقتدي به الدول الجديدة . واذا كان في العالم الآن مجتمع خلّاق فانه بالذات الولايات المتحدة الأمريكية »[٢٦] . وهكذا ترى أمريكا أن من واجبها - بل وربما ترى رسالتها أيضاً - ربط العالم بمنهجها ، وعلى هذا الاساس لا تكف عن الدعوة الى التخلي عن الفكر التقدمي والدعوة الى النظام الرأسمالي وربط الدول بأمريكا والغرب .

أما عندما يدور الحديث عن الدور الذي لعبته الأمم في بناء الحضارة الانسانية فعادة ما نحرم من أي دور في ذلك ، اذ كانت الحضارة ولا تزال وقفاً على الرجل الأبيض (والأبيض بالمفهوم الاستعماري هو الأشقر الأزرق العينين) واذا كان من دور قام به العرب فهو انهم نقلوا حضارة أوروبا اليونانية وحفظوها الى أن أفاقت أوروبا من غفوة العصور الوسطى القصيرة . أما الشعوب غير الأوروبية فأخضعت لأوصاف وتصنيفات لا مجال لذكرها هنا ، لكن نصيب العرب والافارقة وشعوب أمريكا اللاتينية منها هو الخمول والكسل وحب التأمل ، بل وقد تكون هذه الملامح أكثر دغدغة لمشاعرنا فنوصف بأننا روحانيون مرهفون ، ملائكيون ، قليلو الارتباط بهذه الأرض المليئة بالشرور . وكثيراً ما ننصح بالاحتفاظ بهذه الروحانية ليتسنى للغرب الفاجر المادي إحكام قيوده علينا واستكمال استغلالنا . والطريف أن معاهد كثيرة أقيمت لدراستنا (في المانيا الاتحادية اليوم ٢٤٤ مركزاً لدراسة مشاكل بلدان آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية) ومعظمها ينتهي الى أن تخلفنا قدر لا مهرب منه ، وهو يكمن في نمط تفكيرنا بل وفي موقفنا من نظام حركة المرور وعدم اكتراثنا بالمواعيد[٢٧] ، أما سياسة النهب التي ظلت تمارس على أراضينا عبر قرون بكاملها فهي لا تؤخذ في الحسبان كما لا تدرس تجارب الدول الاشتراكية التي استطاعت أن تحقق نهضتها عندما تخلصت بحق من الاستعمار .

ومن الطبيعي أن تنتهي هذه النظريات إلى نتائج في غاية الخطورة وهي أولوية الرجل الأوروبي الأبيض وتفوقه وسموه وبالتالي سيادته . لقد كان تصور الأدريسي للعالم - مقلوباً - فاختص بلادنا بالجهة العليا من خارطة العالم ووضع أوروبا أدناها وجاء رسامو الخرائط الأوروبيون فصوبوا الخطأ وفرضوا علينا أن نقلب خارطة عالمنا الادريسي في كل مرة عندما نريد أن نتصور العالم بالصورة الصحيحة .

وأحيانا ما تُسرَّب إلى حياتنا الثقافية صور معاكسة لما ذكرناه وممعنة في التشاؤم فنسمع نظريات طريفة حول الانهيار الغربي الذي لا مندوحة منه ، وكم سمعنا بأن الغرب قد نخرته الجريمة واستوطنت جسده المخدرات وصدعه التهتك والفجور ، وأنه لم يبق إلا القليل ويتحول جسداً مهيضاً لا يحتاج حتى لسكين الجزّار لتقضي عليه . وتتجه أمثال هذه النظرية إلى تغطية قوته الوحشية ومخططاته وصرف النظر عن ذلك الكيان الاستعماري الذي لا يزال يمتص خيراتنا ويسمم اجواءنا ويضرب أطفالنا بالقنابل العنقودية . ان انهيار الغرب ليس قريباً ولن يتم بصورة تلقائية ولن تؤثر الجريمة أو المخدرات على ترسانات أسلحته الفتاكة التي تسجل كل يوم ارقاماً جديدة من الاسلحة الأكثر تطوراً ولا على تطوره الاقتصادي والعلمي الذي يمتص خيرة أبنائنا وعلمائنا .

نضيف إلى هذا التصور المستمر عن تخلفنا القدري تمزّقنا القدري أيضاً . ومن يستقرىء الدعاية الغربية يلاحظ ذلك التصميم الأبدي على تكريس التمزق العربي . وكلما فكرنا باقامة وحدة بين دولتين

استنفرت قوى التشكيك ـ وما أكثرها ـ لتصوغ وتهول الفروق القائمة بين الدولتين في الاطار الاجتماعي والطبقي بل وتصل الأمور الى اكتشاف فروق عرقية فيما بيننا ! أما اذا خرجت أية دعوة انفصالية ولو كانت ضمن دولة لا تتجاوز بمساحتها مساحة عاصمة أوروبية مع ضواحيها وجدنا اجهزة الدعاية هذه تهبّ هبة واحدة لتبارك تلك الدعوة وتغرق أصحابها في أوصاف العقلانية والموضوعية والواقعية . وبهذه الطريقة وضعت الأحرف اللاتينية للغة العربية في مالطة ووضعت لها القواعد الخاصة وصارت تلك اللهجة تسمى بـ « المالطي » وكان أكبر أنصارها أولئك الذين نسمعهم يشيدون اليوم باللغة اللبنانية والكيان اللبناني بل والفلسفة اللبنانية كما وبدأنا نسمع الاذاعات تسمي « اسرائيل » بالدولة اليهودية وكأنها تعد الأذهان لقبول دول جديدة في المنطقة على أساس ديني ، وكأن العرب الأمة الوحيدة في العالم التي ابتليت بلعنة التمزق الأبدية في وقت يتجه العالم إلى الوحدات التي تضم عشرات الشعوب أو تشمل قارات بأكملها .

واذا كانت هذه الأوهام موجهة الينا على التخصيص فهناك أنواع من غسيل الأدمغة التي يتعرض لها أبناء الدول الغربية منذ الطفولة . واذا كانت هذه الدراسة لا تضع في مخططها اتجاهات التربية الغربية ، فان مما يقترب من موضوعها الأصلي أن نبين الصورة التي يحملها عنا أولئك الذين نتعامل معهم أو بالأحرى يتعاملون معنا لنعرف على الأقل نوعية العلاقة التي يمكن أن نتوقع أن تقوم بيننا على الصعيد السياسي أو الثقافي .

أورد الدكتور أياد قزاز معلومات مثيرة عن الطريقة التي تُربّى بها الأجيال الامريكية وتصدر من اجلها ملايين الكتب المدرسية المتجهة إلى تشويه صورة الانسان العربي عبر منظورات ثلاثة : صورة البداوة ، والاسلام ، والصراع العربي ـ الاسرائيلي . وصوّر الباحث كيف تتبارى الكتب المدرسية في تقديم الصورة البشعة للبدوي ولقساوة الصحراء التي لمست بعض اجزائها نعمة الحضارة الاسرائيلية فأحالتها جناناً خضراء . أما الاسلام فلم يُترك نوعٌ من التحريف واساءة الفهم المقصودة الا والصق به وخاصة في النظرة إلى الرق والى المرأة . أما في الصراع العربي ـ الاسرائيلي فيبين الباحث كيف تحول الذئاب الى حملان والغزاة إلى أصحاب الأرض وكيف يصبح اللاجىء المطرود من أرضه متطرفاً وارهابياً وغازياً [٢٨] . أما الصورة النمطية للعربي والتي تصورها تلك الكتب المدرسية فيكفي أن نمثل عليها بما يقوله الباحث « ونود أن نذكر مقالات أو حوادث أو أمثلة أخرى تبين المفاهيم الخاطئة التي يميل الناس إلى ربطها بالعربي ، يستطيع المرء أن يلخص هذه الصورة في المصطلحات التالية ، قذر، بذيء ، غير مغتسل ، مخادع لا ضمير له، دنيء ، متخلف ، بدائي ، متوحش ، شهواني ، متهوّس جنسياً ، محبٌ وله، قدري ، كسول ، غيرطموح ، متقلب، ماكر، راقصات هز البطن، نصف عار ، صحراء ، جمال،زعماء فاسدون ، غوغاء ، مندفعون ، تعصب وحروب مقدسة »[٢٩] ولا أعتقد أن هناك حاجة إلى أي تعليق على ما أورده الباحث . غير اننا نتساءل : لو قمنا بدراسة موضوعية لصورة العربي في جميع الدول الغربية ، فهل كانت الصورة لتختلف عن هذا أم تزداد شراسة ؟

والسؤال الآن : ألا يمتدّ هذا التشويه إلى أطفالنا عبر الموسوعات والمسلسلات المختلفة المترجمة حيث ينسب كل شيء إلى الغرب وتحاول كل موسوعة أن تسجل شرف الاختراعات والنقاط الانعطافية في التاريخ للأمة صاحبة اللغة المترجم عنها . بل وان صدور هذه الكتب يحدث نوعاً من الارتباك في اذهان الأطفال الذين يوازنون بين كل هذه المبارزات ، فلمن نسجل شرف المخترعات والسبق الحضاري ، لفرنسا أم لانجلترا لروسيا أم لأمريكا ، يمكن أن نجيب على هذا بما نريد شريطة ألا يقحم أي اسم عربي في الميدان .

إن تلك الكتب والموسوعات الجذابة الرائعة الاخراج خالية من الحديث عن تاريخنا أو حركاتنا التحررية ضد الظلم والاستعمار . وليت الأمر ينتهي عند هذه الحدود فهناك كثير من المعلومات المشوهة عن هذا التاريخ : * فالجهاد في شمال افريقيا ضد الغزو الأوروبي يسمى قرصنة ، والحروب الصليبية قامت لاسترداد ما استنزفه الشرق من ذهب الغرب . وحضارة المتوسط ـ يونانية ـ رومانية وحضارات ما بين النهرين تعود في جذورها لأمم من الآريين ، تطلق عليهم أسماء السومريين والليديين وسوى ذلك .

وأخيراً فان من الصعب أن تطوى صفحة الغزو الفكري دون الحديث عن واحدة من نتائجها الفاجعة ، وهي هجرة الأدمغة العربية . ان من يدرس هذه الظاهرة المحزنة لا يستطيع أن يتناسى الدور الذي تلعبه الدول العربية نفسها في التشجيع على ذلك**

لكن مما لا شك فيه أن حركات الجذب الشديدة التي تهيؤها الدول المتقدمة للاختصاصيين ـ المرتبات ، الوضع الاجتماعي ، الامتيازات وغيرها ـ تلعب دوراً حاسماً في عملية الهجرة . فالدول الغربية تستغل بذلك أوضاعنا وتخلفنا الاجتماعي أبشع استغلال

(*) شاعت منذ سنتين اسطورة البطل الخرافي غرايندايزر وصديقه كوجي وسفينته الساحرة ولقيت اقبالاً كبيراً من الأطفال . واذكر انني دخلت غرفة فتية وهو احد الأطفال المعجبين بالبطل الأمريكي فوجدته قد غطى جدران غرفته بصورة البطل وأصحابه ولما أبديت رغبتي لو كان في الغرفة صورة لطارق أو صلاح الدين اجاب باستنكار : وهل تريد أن أعلق في غرفتي صورة لفارس يركب الحصان ؟ أين الحصان من هذه السيارة الأمريكية ؟ وتساءلت آنذاك الا يمكن أن تكون شخصيات التاريخ العربي عصرية ، وكيف استطاعت شعوب أخرى أن تقدم شخصياتها المجيدة القديمة دون أن تضطر إلى تصويرهم داخل السيارات الأمريكية ؟

(**) نظمت اللجنة الاقتصادية لغربي آسيا (اكوا) ـ الأمم المتحدة ندوة في هذا الموضوع وفيها بحثت الاسباب الضمنية لهجرة الكفاءات العربية ثم نشرت البحوث في كتاب بعنوان هجرة الكفاءات العربية . بيروت مركز الدراسات العربية ١٩٨١ .

ولعل « قضية الأدمغة أكبر مشكلة تعاني منها الـدول الحديثـة الاستقلال دون استثناء. فالدول الغربية تضع يدها على ما نبذل الأموال والسنين في تعهده وتربيته من عقول . والطريف أن تساهم هذه الدول وبكل « حماس » في دراسة هذه الظاهرة على أنها ظاهرة عفوية وكأن اغراءات الدعاية الغربية لا تساهم في ذلـك أية مساهمة . فلننظر في هذه العبارة التي أوردتها ـ جون افريك ـ : « ان البعثات الأمريكية تنقب في العالم الثالث بحثاً عن المادة الشديدة الحيوية بالنسبة للاقتصاد المعاصر ـ وهي المادة الرمـادية لـدماغ الرأس . فيتم اغراء الشبان من الاختصاصيين والعلماء والأطباء نحو الولايات المتحدة الأمريكية ، ومثل هذا الوضع يعوق تطور الدول الافريقية ويضيف إلى العائق الذي يسببه نقص الرساميل عائقاً آخر وهو نقص التقنيين المحليين والذي يصبح لازماً استبـدالهم بالاختصاصيين الأجانب ممن يطلبون التعويضات المرتفعة[٢٩]» . ويطول الحديث اذا ما تحدثنا عما يلحق هذا من ضرر بحاضر البلاد ومخططاتها الانمائية نتيجة لهذه الهجرة الهائلة من الأدمغة فـ « بموجب معطيات اليونيسكو فان ما يقارب ١٠ آلاف شخص ، في مقدمتهم العلماء والمهندسون وعلماء الفيزياء والفنيون والطلاب يهاجرون سنوياً من البلدان العربية الثمانية التالية : ليبيا وسوريا والأردن والعراق ومصر وتونس والمغرب والجزائر ، وتسافر أغلبيتهم الساحقة الى الـولايات المتحـدة الأمريكيـة وكندا وفـرنسا وجمهـورية المـانيـا الفيدرالية »[٣١] . فهل كانت هذه الدول قادرة على أن تمتص من بلادنا أية ثروة وبقوة أشد الاسلحة أعظم من هذه الثروة البشرية التي تحققها الدعاية واغراءات الغرب ؟

وقد بينت الاحصائيات أن تسرب الاختصاصيين ، اذا ما أُخذ الآن من زاوية تكاليف تعليمهم فقط ، يكبد بعض الدول النامية من الأموال ما يزيد بمقدار الضعف على المساعدة الأمريكية التي تتلقاها هذه الدول في ميدان التعليم . فاذا اضفنا الى هذا ما يساهم به هؤلاء الاختصاصيون في اثراء العالم الرأسمالي ادركنامَنْ من الجانبين يقدم المساعدة للآخر ـ العالم النامي أم العالم الرأسمالي ؟ ان هذه العقول تلعب الآن بالنسبة للدول الرأسمالية الدور الذي كانت تلعبه ثروات العالم الجديد في تحريك آلته الصناعية ومضاعفة قوته .

* *

وأخيراً فلسنا من دعاة التحجر والانغلاق ، ونحن نؤمن بأن اركان العالم قد تقلصت كثيراً بفضل اجهزة المواصلات والاعلام ، ولم تعد تربية الانسان مقصورة على أسرته أو مدرسته أو المناهج التي تضمنها بلاده ، بل وتساهم في ذلك الوان من التأثيرات العالمية . غير أن ما نتجه اليه هو أن يكون لنا اسهامنا في تربية اجيالنا وان نكون قادرين على مجابهة الغزو الثقافي الاستعماري الذي يجتاح حياتنا ويواكب تدرج أطفالنا من دور الحضانة وحتى ما بعد الكليات الجامعية . ونحن الآن ندق أبواب القرن الحادي والعشرين لكننا نحمل اليه ، مثلما حملنا الى القرون العشرة التي سبقته ، تمزقنا وتخلفنا وتغربنا الثقافي ، بل واتجهنا الى لغتنا التي كانت لغة العلم في مرحلة من التاريخ فسحبناها من ميدان التداول العلمي واستبدلنا بها اللغات الفرنجية ولا تزال المحاولات جادة لفرنجة كل شيء في حياتنا ، وبعض الجامعات التي اجترأت على التعريب الشامل لكلياتها لا تزال تعامل معاملة المارقين وتعاقب على « جنوحها » بالصمت والتجاهل ، وما أكثر ما تخترع من مسوغات لذلك عندما لا تكون قضية التحرر الوطني الأصيل هي المحرك الأساسي لثقافتنا وتوجهاتنا .

اننا لا نتحدث هنا عن الحلم العربي الكبير بانشاء الأكاديمية العربية الجادة التي تشرف على برامجنا التعليمية عبر تخطيط مبرمج شامل وتقوم باصدار الموسوعات العلمية العربية التي تساهم في تكوين التجانس الثقافي القومي* وتقدم الحقائق العلمية الصحيحة للأجيال التي تبحث بصدق عن المعرفة فلا تجد ضالتها الا في مكتبات الغرب وعبر دعايته التي تتفنن في استغلال الفراغ الثقافي الذي نعاني منه . وقبل أن نتحدث عن المجابهة الفعالة للتصدي ، علينا أن نحقق الخطوات الأولى في وحدتنا الثقافية ، فنحن لم نتوصل حتى الآن إلى منهج موحد في تعليم الابجدية لأطفالنا ، ولم نتفق على منهج موحد في تدريس التاريخ أو في البحوث الجامعية أو ميادين الاعلام . إن الهوة المتزايدة الاتساع بيننا وبين الأمم المتطورة تثير الخوف في قلوب أكثر المتفائلين ، وكثير من الخطوات الثقافية التي قطعتها الأمم الأخرى منذ قرون لا يزال بالنسبة لنا حلماً بعيد المنال .

ونحن الآن أمام خيارين لا ثالث لهما : إما أن نسير في الطريق الممهَّد الداعي الى الخمول والدعة وتعطيل فعاليات العقل ونؤمن بأن لا قِبل لنا في التصدي فنقبل بكل ما يجيء به الغزو الثقافي، وهذا طريق سهل لا يكلفنا غير استقلالنا وكرامتنا ، وأما ان نتنبّه إلى ما نحن فيه من خطر فنتفق ونتكاتف ونتصدى معاً لهذا المظهر الخطير من مظاهر الاستعمار الجديد .

جامعة الفاتح (الجماهيرية الليبية)

(*) أدرك رجال التنوير في فرنسا أن أهم العناصر التي يمكن أن تساهم في تكوين التجانس القومي هو اصدار الموسوعة فبدأوا العمل على اصدارها منذ حوالي القرنين ونصف القرن وكانت الموسوعة الانجليزية قد صدرت قبل ذلك .

(١) ملف « وثائق التمهيد للغزو » مركز جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي طرابلس . الوثيقة رقم / ٥ .

(٢) في سنة ١٠٢٠ طلب تجار من امالفيا وساليرنو في ايطاليا من الخليفة السماح لهم باقامة مستشفى في بيت المقدس على اسم القديس يوحنا واجيبوا الى طلبهم بالموافقة فسموا انفسهم بالـ Hospitallers أي فرسان المستشفى وأسماهم العرب بالسبيتارية . ولم يكن المسلمون يعرفون أنهم بتلك الموافقة قد أقاموا طابوراً خامساً بين ظهرانيهم « فأثناء حصار بيت المقدس لعب هؤلاء دوراً بالغ الحيوية » ويروى أن رئيسهم جيرار كان يرمي إلى المحاصرين ـ بكسر الصاد ـ بأرغفة الخبز التي كان المسلمون عن حسن نية أو قصر نظر يحسبونها احجاراً » ـ خمسة أيام في مالطة ، الثقافة العربية . العدد ١٩٧٨/١ ص ٨٩ ، ٩٠ .

(٣) د . محمد بديع شريف ، د . زكي المحاسني د . احمد عزت عبد الكريم دراسات تاريخية في الوحدة العربية ، القاهرة معهد الدراسات العربية . ص ٧٧ .

(٤) عبد الرحمن الكواكبي . طبائع الاستبداد في كتاب عبد الرحمن الكواكبي الأعمال الكاملة تحقيق محمد عمارة ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٧٥ ص ٢٠٨ .

(٥) المدارس الفرنسية في سوريا في نهاية القرن التاسع عشر ت . طلال عريسي . الفكر العربي السنة ٣ العدد ٢١ ص ٣٨٥ والترجمة مأخوذة عن :
Revue des Iniversités du Midi, tome 3 , 19 ème année 1897 pp. 206 - 240.

(٦) عن كتاب د . احمد صدقي الدجاني . ليبيا قبل الاستعمار الايطالي القاهرة ١٩٧١ ص ٢٩٧ .

(٧) ينظر : أميل خوري وعادل اسماعيل . السياسة الدولية في الشرق العربي بيروت دار النشر للسياسة والتاريخ ١٩٥٩ الجزء ١ ص ٢٦ .

(٨) احمد صدقي الدجاني . المرجع السابق ص ١٢٤ .

(٩) محمد مصطفى بازامه « بداية المأساة » بنغازي المطبعة الأهلية . ص ٥١ .

(١٠) السياسة الدولية في المشرق العربي . المرجع السابق ص ٢٥٦ .

(١١) جورج أنطونيوس . يقظة العرب . تر . د . ناصر الدين الاسد ، د . احسان عباس بيروت ، دار العلم للملايين . ط ٤ ، ١٩٧٤ ص ٤٩٨ .

(١٢) ريني دوبستر (هايتي) الأسس الاجتماعية الثقافية لشخصيتنا في كتاب : « الثقافة الافريقية » . ملتقى الجزائر (٢١ يوليو ـ ١ اغسطس ١٩٦٩) الجزائر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ١٩٦٩ ص ٣٠٠ .

(١٣) مذكرات الضباط الأتراك حول معركة ليبيا ـ طرابلس . مركز بحوث ودراسات الجهاد الليبي ١٩٧٩ ص ١٨٥ .

Lois Bertrand , Les Cyclades. Revue des deux mondes , Janvier, Fevrier, 1922 p. 117.

(١٥) من كتاب : باولو مالتيزي « ليبيا أرض الميعاد » ترجمة عبد الرحمن سالم العجيلي ، طرابلس . مركز بحوث ودراسات الجهاد الليبي ١٩٧٩ ص ٥٠ .

(١٦) فرنسيس ماكولا « الغزاة » ترجمة عبد الحميد شقلوف طرابلس . الشركة العامة للنشر والتوزيع والاعلان . ١٩٧٩ ص ٢٩ .

(١٧) مولود فرعون . مقدمة رواية « الدروب الوعرة » .

(١٨) جورج انطونيوس . المرجع السابق ص ٤٩٨ .

(١٩) Maupassant - Au Soliel . Paris 1884, p. 24.

(٢٠) ورد هذا المقتطف في مقال للدكتور عبد الجليل التميمي بعنوان : « التفكير التبشيري لدى عدد من المسؤولين الفرنسيين في الجزائر ، المجلة التاريخية الغربية . تونس عدد جانفي ١٩٧٤ ص ٢١ وللدكتور دراسهة هامة في هذا الخصوص بعنوان : « دور المبشرين في نشر المسيحية بتونس » نشرت في المجلة المذكورة ، عدد جانفي ١٩٧٥ .

(٢١) د . اسماعيل صبري مقلد « الاستراتيجية والسياسة الدولية » بيروت مؤسسة الأبحاث العربية ١٩٧٩ ص ٥٨ .

(٢٢) السلامي الحسيني . الجندي المجهول يموت اغتيالاً . مجلة « الدستور » لندن . العدد ٢١٩ ، ١ شباط (فبراير) ١٩٨٢ ص ٧٨ .

(٢٣) The New York Times 24 - XII - 1962 .

(٢٤) Africa , London, March, 1973, N° 19 .

(٢٥) لا يزال بعض المؤلفين الامريكان ينقمون على الهنود الحمر لأنهم سفكوا دماء الفاتحين ظلماً وعدواناً : فكانت حروبهم مجرد ردة فعل ، ويصرح وليم تيل شتورز بذلك في فصل « الفاتح » من كتابه هذا العالم الجديد ـ القاهرة دار النهضة مصر ١٩٧٠ ، اذ يقول : « كانت وحشية الهنود الحمر تستلزم الرد بالمثل » ص ١٦٣ .

(٢٦)
Z. Brzezinski, The Implication of Change for U. S. Foreign Policy, Washington, 1973, p . 3.

(٢٧)
W. S. Freund. Unterent wicklung in Strukturalisti- scher Sich. « Aspekte der Entwicklungssoziologie» Koln - Opladen, 1969, S, 519

وقد اطلعنا على نظرة هذا المفكر وأمثاله في كتاب : الاستعمار الجديد وافريقيا في السبعينات . موسكو دار التقدم ١٩٧٥ ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥ ، ٣٠٧ .

(٢٨) د . أياد القزاز . صورة الانسان العربي لدى الامريكيين . دراسات عربية السنة ١١ العدد ٨ ، ١٩٧٥ .

(٢٩) د . اياد القزاز . القوالب النمطية عن العرب في أمريكا . دراسات عربية السنة ١١ العدد ٥ ، ١٩٧٥ ص ١٢ .

(٣٠) Jeune Afrique 19 - I - 1971 .

(٣١) الاستعمار الجديد وافريقيا في السبعينات . المرجع السابق ص ٣٢٣ .

ثبت المراجـع

١) جوناتان سويفت . رحلات غولليفر . من كتاب : مدخل الى تاريخ الآداب الأوروبية طرابلس . الدار العربية للكتاب ١٩٧٩ .

٢) ملف « وثائق التمهيد للغزو » مركز جهاد الليبيين . طرابلس الوثيقة رقم ٥

٣) خمسة أيام في مالطة . « الثقافة العربية » العدد ١ ، ١٩٧٨ .

٤) محمد بديع شريف ، د . زكي المحاسني ، د . احمد عزت عبد الكريم دراسات تاريخية في الوحدة العربية . القاهرة . معهد الدراسات العربية .

٥) عبد الرحمن الكواكبي . طبائع الاستبداد ، الأعمال الكاملة تحقيق محمد عمارة بيروت المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٧٥ .

٦) المدارس الفرنسية في سوريا في نهاية القرن التاسع عشر . تر . د . طلال عتريسي « الفكر العربي » السنة ٣ العدد ٢١ .

٧) أميل خوري وعادل اسماعيل . السياسة الدولية في الشرق العربي . بيروت دار النشر للسياسة والتاريخ ١٩٥٩ .

٨) د . احمد صدقي الدجاني . ليبيا قبيل الاستعمار الايطالي القاهرة ١٩٧١ .

٩) محمد مصطفى بازامه بداية المأساة . بنغازي ، المطبعة الأهلية .

١٠) سعيد الافغاني . من حاضر اللغة العربية ، بيروت ، دار الفكر ١٩٧٦ .

١١) جورج انطونيوس . يقظة العرب تر . د . ناصر الدين الاسد ، د . احسان عباس بيروت ، دار العلم للملايين ط ٤ ، ١٩٧٤ .

١٢) العربية والتعريب الى الجزائر . مجلة كلية التربية . جامعة الفاتح العدد ١٩٧٨/٨ .

١٣) ريني دوبستر . الاسس الاجتماعية الثقافية لشخصيتنا . من كتاب : الثقافة الافريقية . الجزائر . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ١٩٦٩ .
١٤) مذكرات الضباط الاتراك حول معركة ليبيا . طرابلس مركز جهاد الليبيين ١٩٧٩ .
١٥) باولو مالتيزي . ليبيا أرض الميعاد . تر . عبد الرحمن سالم العجيلي . طرابلس . مركز جهاد البيبين ١٩٧٩ .
١٦) فرنسيس ماكولا . الغزاة . تر . عبد الحميد شقلوف. طرابلس . الشركة العامة للنشر والتوزيع والاعلان ١٩٧٩ .
١٧) مولود فرعون . الدروب الوعرة .
١٨) مولود فرعون . يوميات معركة الجزائر . تر . عبد العاطي جلال . الهيئة المصرية العامة للنشر والتأليف ، ١٩٧٠ .
١٩) د . عبد الجليل التميمي . التفكير التبشيري لدى عدد من المسؤولين الفرنسيين في الجزائر. المجلةالتاريخية المغربية. تونس عدد جانفي ١٩٧٤ .
٢٠) د . عبد الجليل التميمي . دور المبشرين في نشر المسيحية بتونس . المجلة التاريخية المغربية . عدد جانفي ١٩٧٥ .
٢١) الطيب العقبي . يقولون وأقول . الشهاب قسنطينة ، ١٨ فيفري ١٩٢٦ .
٢٢) عبد الكبير الفاسي . العلماء والطوائف بالمغرب . الشهاب . قسنطينة ٤ سبتمبر ١٩٢٦ .
٢٣) د . اسماعيل صبري مقلد . الاستراتيجية والسياسة الدولية . بيروت مؤسسة الابحاث العربية ١٩٧٩ .
٢٤) فرانتز فانون معذبو الأرض، تر . د . سامي الدروبي ، د . جمال الاتاسي بيروت دار النصر ١٩٦٧ .
٢٥) د . احمد حسن مأمون . لماذا نهمل الترجمة إلى العربية . العربي العدد ٢٦٨ مارس ١٩٨١ .
٢٦) السلامي الحسيني . الجندي المجهول يموت اغتيالاً . الدستور . لندن العدد ٢١٩ في ١ شباط ١٩٨٢ .
٢٧) أوزادوفسكي . الولايات المتحدة وافريقيا ١٩٧٧ .
٢٨) وليم تيل شورز . هذا العالم الجديد . القاهرة . دار نهضة مصر ١٩٧٠ .
٢٩) الاستعمار الجديد وافريقيا في السبعينات موسكو . دار التقدم ، ١٩٧٥ .
٣٠) د . أياد القزاز . صورة الانسان العربي لدى الامريكيين . دراسات عربية السنة ١١ العدد ٨ ، ١٩٧٥ .
٣١) د . اياد القزاز القوالب النمطية عن العرب في أمريكا ـ دراسات عربية السنة ١١ العدد ٥ ، ١٩٧٥ .
٣٢)) هجرة الكفاءة العربية . بيروت . مركز الدراسات العربية ١٩٨١ .

٣٢)
Lois Bertrand Les Cyclades. Revue des deux mondes, Janvier. Fevrier - 1922.

٣٤)
Maupassant. Au Soliel - Paris, 1884.

٣٥)
Africa Report, November, 1970.

٣٦)
The New York Times 24 - XII- 1962

٣٧)
Africa, London, March 1973 N° 19.

٣٨)
Z. Brzezinski, The Implication of change for U. S. Foreign Policy. Wastrington, 1973.

٣٩)
Jeune Afrique . 19 - I- 1971.

الثقافة الصهيونية: ما هي؟

د. هاني الراهب

قد لا تتيسر لنا فاتحة لهذه المقالة أفضل من سؤال هرتزل العصبي الانكاري: «وما هي الثقافة اليهودية؟» وان نستبدل كلمة (اليهودية) بكلمة (الصهيونية)، يصير للانكار أساس أقوى بكثير من نفاد الصبر عند هرتزل.

الثقافة واحدة من الكلمات الكبيرة. والكلمات الكبيرة غالباً ما تتأبى على التعريف الدقيق. لكننا سنؤكد على اثنين فقط من معانيها المتعددة: الشمولي والضيق؛ الأول، باعتباره مجموعة الخصائص المميزة لأمة من الأمم؛ والثاني باعتباره الجانب الفكري لحضارة أمة من الأمم.

في تقديري أننا لا نستطيع أن نتحدث عن ثقافة صهيونية بالمعنى الأول. فالصهيونية، كحركة سياسية تاريخية، لا تتجاوز المئة عام الا قليلاً. وخلال هذه الفترة لم تتمكن من انشاء خصائص مميزة على النحو الذي نلمسه في الثقافة الهندية أو الفرنسية أو العربية. وبالطبع، فان هذا التوكيد يتضمن نفياً لأن تكون الصهيونية واليهودية مترادفتين في المعنى، ونفياً أيضاً لأن تكون الصهيونية تعبيراً حديثاً عن اليهودية. انها شيء آخر تماماً، رغم اتكائها الشديد اللاحق لتكوينها على معطيات يهودية كثيرة وأساسية.

لكننا نستطيع أن نتحدث الى حد ما عن ثقافة صهيونية بالمعنى الثاني. فرغم أن الصهيونية لم تنشىء حتى الآن ما يمكن أن يسمى حضارة، ورغم انها كوّنت دولة وعجزت عن انشاء أمة، ثمة صعيد فكري بارز المعالم يمكن أن نتتبعه في ما اصطلح على تسميته بالحركة الصهيونية العالمية. والى جانب الجهاز الفكري الذي اصطنعته الصهيونية، ينبغي أن نذكر محاولات الصهيونيين الذين هاجروا إلى فلسطين واستوطنوا فيها أن ينشئوا ثقافة خاصة بهم. وهي محاولات مرت بثلاثة أطوار، وكانت على الدوام متوجهة بالمعطيات النظرية والعملية للفكر الصهيوني.

إن الطبيعة الخاصة بهذا الفكر وتلك المحاولات يمكن أن تستشف من ثلاثة مصادر رئيسية. وغني عن القول إن المصادر الثلاثة هذه تعود إلى بيئة أوروبية صرف، اتسمت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بسمات جوهرية لعل أهمها سيادة النزعة القومية، وطغيان الطابع الاستعماري لهذه النزعة، وانتشار الفكر الاشتراكي بأشكاله المتعددة، وخاصة الفكر الماركسي الذي ولد من صميم تناقضات الحياة الأوروبية.

الأصول الطبقية

إن أهم ما يميز الفكر الصهيوني هو كونه نتاج الطبقة المتوسطة من يهود أوروبا. ويجمع الكتّاب الاسرائيليون، الذين أرخوا للحركة الصهيونية، على هذه النقطة اجماعاً لا يترك مجالاً للتسكك فيها. فالهجرة الأولى التي بدأت عام ١٨٨٢، والثانية التي بدأت عام ١٩٠٦، والثالثة التي بدأت بعد اعلان وعد بلفور، جاءت بأفواج من اليهود الساخطين على وضعهم الاجتماعي في روسيا ووسط أوروبا، وهم بأغلبية ساحقة ينتمون إلى فئات الطبقة المتوسطة. كما أن هجرات صغيرة أخرى، حوالي أعوام ١٩٢٥، ١٩٣٣، ١٩٣٧ - ١٩٣٩، لم تخرج عن القاعدة وان كانت أعدادها أقل بكثير من أعداد سابقاتها.

هذه الهجرات هي التي رسمت المسار الفكري للصهيونية، وقامت بالمحاولات التي استهدفت خلق ثقافة صهيونية. أما الهجرات التي تلت قيام الدولة الصهيونية، فلم تستطع، رغم عدد أعضائها الضخم، أن تكون شيئاً سوى عنصر متخلف في البنية الأوروبية لهذه الدولة، فهي في معظمها جاءت من بلدان الشرقين الأدنى والأوسط. وإن هذا التناقض النوعي بين هجرات ما قبل قيام الدولة وما بعد قيامها يفسر الانشطار الجوهري المتزايد حدة في البنية الاسرائيلية بين اشكنازيم وسفارديم.

تؤكد المنبت البرجوازي الصغير للصهيونية دراسات قام بها كتّاب يهود لا صهيونيون لطبيعة العلاقة بين اليهود والمجتمعات الأوروبية خلال قرون مضت . ففي العصر الاقطاعي ، كان اليهودي واحداً من مكونات الحياة الاقتصادية الاقطاعية ، كالقن ومالك الأرض . لقد كان هو رأس المال الذي لم يستطع الاقطاع أن يكونه رغم حاجته له . ولأن رأس المال كان بطبيعة النظام الاقطاعي على هامش الحياة الاقتصادية ، ظل اليهودي على هامش الحياة الاجتماعية . لكنه ظل هناك ، ضرورياً ومطلوباً ، ومتعايشاً مع الفئات الاجتماعية الاساسية بطريقة أو بأخرى . لم يفكر ، رغم كل شيء ، بقومية يهودية ، ولا بدولة يهودية ، ولا « بالعودة » الى فلسطين . وقد ظهر أفراد قليلون ، مثل ساباتي زيبي ، دعوا للعودة إلى أرض كنعان ، فأحرقهم اليهود باعتبارهم مسيحيين زائفين .

غير أن هذا التأقلم لاقى ضربة مميتة على يد الرأسمالية ، التي ما ان تكبّدت الحياة الاقتصادية الأوروبية حتى ألغت الدور الاقتصادي الخاص الذي كان اليهودي يقوم به في عصر الاقطاع ، مثلما ألغت أدواراً أخرى كان يقوم بها غير اليهود . وما ان انتصف القرن التاسع عشر حتى كان اليهود ، مثلهم مثل سكان أوروبا ، قد انقسموا إلى طبقات ثلاث : الرأسماليون القدامى الذين دخلوا في تكوين البرجوازية الأوروبية كجزء لا يتجزأ منها ؛ والطبقة الدنيا التي تحولت إلى جزء من البروليتاريا الأوروبية مندمج فيها ؛ أما الطبقة المتوسطة فقد وقعت في أوروبا الشرقية والوسطى بين مطرقة الرأسمالية النامية وسندان بقايا الاقطاع ، ودفعت جزءاً من الثمن الفادح الذي تطلبه الصراع بين الرأسمالية والاقطاع ، وخاصة في روسيا بعد اصلاحات ١٨٦٣ . وهكذا بدأت موجات هجرة كثيفة ، من روسيا بصورة رئيسية ، ومن بولونيا وألمانيا ودول البلقان .

إلى أين توجهت هذه الهجرة ؟ يعطينا الكتاب الاسرائيليون أرقاماً ذات مغزى بهذا الصدد . ففي سبعينات القرن التاسع عشر هاجر ٦٠ ألف يهودي إلى الغرب الأوروبي والأميركي . وفي الثمانينات هاجر ٢٠٠ ألف . وفي التسعينات ٣٠٠ألف. وبين ١٩٠٠ و ١٩١٤ هاجر مليون وخمسمئة ألف إلى أمريكا . بالمقابل ، لم يكن عدد الذين هاجروا إلى فلسطين خلال هذه الفترة يتجاوز الآلاف . وكان العامل النفسي الذي دفع هذه الآلاف القليلة إلى فلسطين أقوى من العامل الاقتصادي . فهؤلاء كانوا يريدون الاحتفاظ بأوروبيتهم ، ولكن بعيداً عن أوروبا وأمريكا . وكان شعورهم أنهم لا يقلون قيمة ولا امكانات عن أوروبيي الطبقة المتوسطة ، وأنهم قادرون على منافسة الأوروبيين والتخلص من اذلالهم بتكوين دولة وأمة . وقد حافظوا باستمرار على طبيعة الطبقة المتوسطة الفكرية ، من انقسامات عقائدية حادة ، وتذبذب جوهري في التفكير ، وتشكيل أحزاب صغيرة لا عد لها ، وطوباوية مضحكة في تصور الانسان والحياة والمستقبل .

ولعل المثال أن يوضح المنشأ الطبقي المتوسط للصهيونية . ففي أوساط الحركة العمالية الثورية في روسيا ترعرع تنظيم للعمال اليهود ، هو البوند ، وواكب العمل السياسي للحزب الديمقراطي الاشتراكي الذي قاده لينين . كذلك تشكلت في عديد من أنحاء روسيا نوادٍ للصهيونية تدعو للقومية اليهودية واستعمار فلسطين . لكن الحركتين لم تلتقيا قط . فبينما اختار أعضاء البوند الحل الماركسي ، المتمثل في احياء الثقافة اليهودية وعصرنتها في الاطار الشيوعي ، والبقاء ضمن نظام سياسي تعددي اشتراكي ، أصر الصهيونيون على أرض ينشئون فيها دولة وينفصلون بها عن شعوب العالم . وهكذا تحولت جمعية أحباء صهيون ، التي تشكلت من النوادي الصهيونية ، الى حزب سياسي هو الحزب الديمقراطي الاشتراكي العبري ، بويل زيون ، ذي التوجه الماركسي القومي ، بقيادة بن غوريون وبن زفي ، الذي صار فيما بعد حزب العمل الحاكم في اسرائيل .

مؤثرات

طبيعي أن يتعرض فكر الطبقة المتوسطة إلى مؤثرات عديدة ، ومتضاربة أساساً . فهذه الطبقة المخلخلة كبنية تستطيع امتصاص تيارات فكرية متنوعة ، على نحو يلعب فيه الخيال دوراً أكبر بكثير مما يلعبه ادراك الواقع الموضوعي .

ومن المؤكد أن الفكر القومي كان أهم ما تأثر به أحباء صهيون ، ومن بعدهم بويل زيون . ان القرن التاسع عشر هو عصر القومية في أوروبا ، وبتحديد أكبر ، هو عصر القومية الاستعمارية ، التي أرادت تنمية حسّ قومي متضخم لتحتفظ بتفوق اقتصادي وبالسيطرة على أسواق تجارية ومصادر ثابتة للمواد الأولية . وقد يبدو من المفارقة أن يعتنق صهيونيون من الطبقة المتوسطة فكراً قومياً له هذه الصفة ، وهم جماعة لا تملك وسائل انتاج أساساً . غير أن الفكر الصهيوني ، الرجراج بطبيعته ، سرعان ما استدرك هذا الخلل ، وبدلاً من توجه مستحيل نحو السيطرة على الاسواق ومصادر المواد الأولية ، أوغل في توجهه الاستعماري نحو امتلاك الأرض نفسها التي كان رأسماليو أوروبا يكتفون باستعمارها . وكنتيجة لهذه

المعادلة صارت الأرض تشكل العمود الفقري في منظومة الفكر الصهيوني ، واخترعت لأجلها الاساطير وزوّرت الحقائق التاريخية ، كما سنرى بعد قليل .

هذا التوجه الاستعماري جاء نتيجة منطقية لتشرب الرؤ ية القومية في روسيا القيصرية وألمانيا وفرنسا وانكلترا . اننا هنا أمام ظاهرة تاريخية أكدت على الطابع الغيبي لشخصية الأمة ، على أن الأمة سر من أسرار الطبيعة ، تمتلك روحاً خاصة بها ، وتحمل تفوقها الضمني على بقية الأمم . وهكذا قام المفكرون الصهيونيون بتوكيد مماثل على عزة أمتهم ، وتفرّدها بين الأمم ، على أن لها « روحاً قومية » تماماً كما للروس والبولونيين والالمان وغيرهم . وأضافوا أن الشتات وضياع الأرض هما العاملان الحاسمان في ابطال مفعولها الخلّاق ، وان وضع حدّ للشتات باستعادة الأرض هو وحده الكفيل باستعادة روح الأمة اليهودية وتفعيلها . وكان الطابع الرومنتيكي ، وخاصة في الرومنتيكية الالمانية ، قد جعل من فكرة الأمة كياناً عضوياً ، فوق بشري مفعماً بالغيبية والأصول العرقية الواصلة الى ما قبل التاريخ . وكان لنيتشه أكبر الأثر في صياغة الصهيونيين لفكرتهم عن الأمة .

على أن ثمة فرقاً جوهرياً في الممارسة بين قومية المفكرين الصهيونيين وقومية المفكرين الرأسماليين . فحيث كان المفكرون الرأسماليون يفكرون باسم طبقة تسيطر على مقدرات أمة ، وتستطيع أن تدعي أنها تتكلم باسمها ، كان المفكرون الصهيونيون بعيدين جداً عن هذا الموقع الاجتماعي الاقتصادي الحاسم . كان هؤلاء أقلية ضمن طبقتهم نفسها ، ولم يكن بوسعهم أن يتكلموا حتى باسم هذه الطبقة ، ناهيك بالطبقتين الأخريين ، البرجوازية والعاملة ، اللتين اندمجتا بالبنية الاقتصادية لأمم أوروبا . وبدلاً من أن يدركوا عقم أية محاولة لاجتذاب اليهود الآخرين ، ازدادوا شططاً وتطرفاً في ابراز القومية اليهودية ، وجعلوا من أنفسهم رسلاً لها يحق لهم التكلم باسمها ومطالبة الآخرين بالانضواء تحت لوائها . ان هذه الممارسة ليست بعيدة عن فكر الطبقة المتوسطة ، فهي ، لكي تحتفظ بمصالحها ، تعمد إلى التكلم باسم الأمة كلها ، عن مصير الأمة وقدرها ونضالها ، وضرورة الالتفاف حول قيادتها ، الخ . . وهذا ما يعلنه منشور أصدرته جمعية احباء صهيون ، اذ جاء فيه : « نحن المتعلمين يجب أن نكون الأبطال الذين يدخلون المعركة على رأس شعبهم » .

من جانب آخر ، كان الفكر الأوروبي الاشتراكي مؤثراً لا يقل أهمية عن الفكر القومي ، على الأقل في المرحلة التكوينية فالتأسيسية للحركة الصهيونية . وتلك هي واحدة من أبرز غرابات الفكر الصهيوني . وسنرى بعد قليل كيف اشترع بوروخوف توحيداً فكرياً بين النظرية القومية الأوروبية والاشتراكية . أما الآن فسنشير إلى الأدبيات والمنشورات التي كانت تصدرها النوادي الصهيونية في روسيا وأوروبا الوسطى ، والتي كانت متأثرة تأثراً طاغياً بالفكر الاشتراكي . يقول ديفيد هوروفتز ، الحاكم السابق لمصرف اسرائيل : « في (حركة الشباب الصهيوني العمالي) خلقنا لأنفسنا عالماً مثالياً ، جديداً وحراً ونبيلاً . حلمنا بيوتوبيا ـ وكانت حركة العمل الصهيوني بوابتنا التي قادتنا اليه » . وواضح أن التركيز على « العمالي » و « العمل » في هذه اليوتوبيا ينم عن توجه اشتراكي في الفكر .

ويقول منشور صدر في لفوف عام ١٩٠٤ :

« أيها العمال اليهود في كل البلدان اتحدوا وراء راية بويل زيون . أيها الاخوة والأخوات من الطبقة العاملة ! اننا نرى أمامنا حركتين قويتين عظيمتين : الاشتراكية التي تنشد تحريرنا من العبودية الاقتصادية والسياسية ، والصهيونية التي تنشد تحريرنا من نير الشتات . كلتاهما تؤثران علينا تأثيراً عظيماً . كلتاهما تعداننا بمستقبل مجيد . كلتاهما حيويتان بالنسبة لنا كالحياة نفسها » .

ليس الطابع الاطنابي الاعلاني عصياً على الالتقاط في هذا المنشور . وليست عصية أيضاً محاولة الصهيونيين التماس الدعم من الطبقة العاملة اليهودية ، التي انصرفت عنهم ، كما رأينا . وقد وصل بهم الأمر إلى حد صياغة شعارات سائرة كنوع من غسيل الدماغ . ففي منشور آخر نقرأ ما يلي :

« أيها العمال والعاملات اليهود ، أيها المستغلون ، المضطهدون ، الذين يعيشون بعرق حاجبهم . . لنتوحد ونعلن : يسقط الاندماج ! تسقط الرأسمالية ! تسقط اللاسامية ! لتعش البروليتاريا الدولية ! لتعش الحرية اليهودية ! لتعش الاشتراكية ! لتعش الصهيونية ! » .

وبالطبع تجدر الاشارة هنا إلى الأثر الخاص والعميق الذي تركته الحياة الوطنية الروسية على الحركة الصهيونية . فالمناخ الثوري الجائش في روسيا بين ١٨٨٠ و ١٩٢٠ كان المهد الذي ولدت فيه الصهيونية وترعرعت ، دون أن يكون بالطبع مسؤ ولاً عنها أو متبنياً لها . فمن روسيا جاء مؤسسو اسرائيل . وفي (منسك) ولدت حركة العمل الصهيوني عام ١٩٠٢ . وعموماً ، فان الصهيونية ، كما يقول كتّاب اسرائيل ، كانت نتاجاً أوروبياً صرفاً ، مثله مثل الشعبية في روسيا والعرقية في ألمانيا .

في تاريخ الفكر الصهيوني ، ثمة أسماء صنعته أو بلورته الى حد كبير ، وأعطته زخماً واستمرارية ، وزودت الحركة الصهيونية بالقناع الايديولوجي اللازم لخوض معركتها الاستعمارية . ومن الملاحظ أن معظم هؤلاء ، ان لم يكن كلهم ، انقلبوا إلى الصهيونية انقلاباً مفاجئاً ، بعد أن كانوا أفراداً مندمجين في مجتمعاتهم الأوروبية . ويتضح من تكرر هذه الظاهرة أن اعتناق الصهيونية من قبلهم كان فعلاً نفسياً ، لا موقفاً فكرياً تاريخياً ، انهم لو صبروا قليلاً لسارت الأمور على ما يرام في المناخ الليبرالي المتزايد قوة واتساعاً في أوروبا وأمريكا ، ان عقيدتهم الجديدة كانت وليدة عوامل شخصية ، وليست سياقاً تاريخياً تفترضه وتنشئه قوانين التاريخ . ولعل أبرز مثال على هؤلاء تيودور هرتزل نفسه ، مؤسس الحركة الصهيونية العالمية . فهذا الصحفي النمساوي المتأنق ، الذي كان يكتب المسرحيات كمواطن نمساوي يزدري اليهودية والتشبث بها ، سرعان ما أصدر كتابه الشهير (الدولة اليهودية) بعد عام من مشاهدته لأحداث قضية دريفوس ، وأسس حركة قومية يهودية ، بعد عام آخر . ولأنه كان الوحيد المتشبع بليبرالية أوروبا الغربية ، كان أبعد الصهيونيين عن فكرة أرض الميعاد والتراث اليهودي . كان يريد مكاناً ، أي مكان ، يقطنه اليهود بعيداً عن اذلال الأوروبيين لهم . إن دوره الفكري ، بعكس دوره السياسي ، ضئيل للغاية ، وقد انحسر نهائياً بعد زمن قصير من وفاته .

أما ليب ليلينبلوم فكان المفكر الذي ألهم المهاجرين من روسيا عام ١٨٨٢ أن يستوطنوا فلسطين . وكان قبل سنوات قد أدار ظهره لليهودية . لكن أحداث ذلك العام غيرت رأيه فجأة وجعلته ينشىء تفكيراً قومياً ذا توجه عملي ، هو الهجرة إلى فلسطين والاستيطان فيها .

وكان موزس هس أيضاً يهودياً مندمجاً وألمانياً اشتراكياً من الطبقة المتوسطة . بل ويقال إنه كان يتعاون مع ماركس وانغلز . ورغم أن كتابه (روما وأورشليم) صدر عام ١٨٦٢ ، فلم يلق اهتماماً الا بعد ربع قرن أو يزيد . وقد أضاف هذا الكتاب إلى الفكر الصهيوني مسحة رومنتيكية في دعوته الطوباوية إلى تأسيس دولة يهودية على أساس « خلق عملي » من الحب والطوعية والتعاون المنسجم بين الناس الأحرار . وقد رأى في التاريخ صراعاً بين القوى الغيرية للحب والعدل والقوى الانانية الاضطهادية . ورأى أن على اليهود في دولتهم القومية أن يهيئوا « لسبت التاريخ » الاشتراكي ، الذي سيحررهم والبشرية معهم . وسيكون هذا ممكناً عبر عودة اليهود إلى العمل « المنتج » في الأرض ، ضمن إطار من النظام العادل الخالي من الهرمية الاجتماعية ، والمكون من وحدات تعاونية .

كذلك تحول الى الصهيونية فجأة ليو بنسكر الروسي ، وسرعان ما رأى في اللاسامية داء عضالاً ليس له دواء . وفي كتابه (الانعتاق الذاتي) ، ١٨٨٢ ، دعا بحماسة شديدة الى أن يمتلك اليهود أرضاً خاصة بهم . لم يكن بالنسبة له أين تكون الأرض ، وانما أية أرض يمكنها أن تنقذ اليهود من الانقراض في أوروبا .

على أن أهم مفكر منح للحركة الصهيونية ما تحتاج اليه من صيغ عقائدية ضرورية هو بير بوروخوف ، الذي فصله الحزب الديمقراطي الاشتراكي الروسي من عضويته بسبب انحرافاته الصهيونية . لقد أنشأ بوروخوف نظرية تدمج الماركسية الاساسية والصهيونية ، الثورة الاشتراكية والقومية اليهودية . وهذه النظرية هي التي مكنت الصهيونيين من الاعتقاد بأن استعمارهم لفلسطين سيكون تطبيقاً للاشتراكية الماركسية .

لقد رأى بوروخوف أن البؤس اليهودي نتيجة « لسيرورة انتاج » مناوئة لليهود . وهذه فكرة صحيحة ، سوى أنها لم تحدد أن اليهود الذين « ناوأتهم الثورةالصناعية الأوروبية هم فئات من الطبقة المتوسطة فقط ، وليس اليهود قاطبة . وفي كتابه الصغير (المسألة القومية والصراع الطبقي) ، يشير إلى أن اليهود ، لكونهم لا أرض لهم ، قد أخرجوا بالضرورة من ميادين الاقتصاد الأولية ، كالزراعة والتعدين ، ودفعوا إلى الميادين الهامشية ، كالتجارة والصناعة الخفيفة . وهذا صحيح أيضاً ، سوى أنه ينطبق على الطبقات المتوسطة الأوروبية كلها ، وليس فقط على اليهود . وتأتي النقلة الحاسمة في فكر بوروخوف عندما يسقط الطبقة الوسطى نهائياً من حسابه ، ويستبدلها بالبروليتاريا اليهودية ، بأسلوب من الخداع الفكري الذاتي ، فيقول : ان كون البروليتاريا اليهودية غير منتجة جعلها عاجزة عن التجمع كقوة اجتماعية ، فقد ضاعت منها القاعدة الاستراتيجية للصراع الطبقي . وواضح أن كلمة (بروليتاريا) مقحمة اقحاماً في هذه العبارة ، وأن القاعدة الاستراتيجية للصراع الطبقي ليست أرضاً قومية بحسب الماركسية ، وانما هي الميدان الدولي بأكمله . وتابع بوروخوف تحليله فأكد على ضرورة الاشتراكية العلمية ، التي ستجعل اليهود بشراً منتجين ، ولكن فقط على أرض خاصة بهم .

لم يكن بوروخوف يؤمن بالتراث اليهودي . وكان ينظر إلى

التاريخ نظرة جدلية ، فيرى أن القوى الاجتماعية التي جعلت الحياة مستحيلة بالنسبة لليهود في الشتات هي نفسها القوى الحتمية التي ستخلق منهم بروليتاريا منتجة ، ولكن على أرض فلسطين . وقد اختار فلسطين ليس لأنها أرض الآباء والأجداد ، بل لأنها أرض فقيرة ، لن تهتم بها الرأسمالية الدولية ، ولن تحاول طرد اليهود منها . وقد رأى أن العرب سيرحبون جداً بمجيء اليهود اليها . فالعرب المحرومون في رأيه من شخصية ثقافية واقتصادية خاصة بهم لن يستطيعوا أن يكونوا أمة - بعكس اليهود تماماً . ولأنهم ليسوا أمة ، لن يكونوا قادرين على معارضة منظمة لمؤثرات خارجية . كان نوعاً من الحتمية التاريخية في تصوره أن العرب عاجزون عن تنمية قومية خاصة بهم . وما دامت فلسطين في مأمن من خطط الرأسمالية الدولية الشريرة ، فسيندمج العرب في اليهود ويصيرون قومية واحدة .

لقد تلقف الصهيونيون أفكار بوروخوف المتمركسة ، واعتبروها انجيلاً صهيونياً . فلأول مرة يأتيهم مثل هذا التصور الذي يريحهم من الاشكال الجوهري بين ايمانهم بالاشتراكية وضرورة استعمار فلسطين ، ويريحهم من المسؤولية الأخلاقية المترتبة عليهم تجاه العرب . وكان بوروخوف قد رسم خمسة شروط أساسية لنجاح الاستعمار لا تنطبق الا على فلسطين ، هي :

١ - يجب ألا يكون في الأرض اقتصاد رأسمالي متطور .

٢ - يجب ألا تكون حكومتها في أيدي واحدة من القوى الرئيسية الامبريالية .

٣ - يجب أن تكون فيها بدايات جماعة يهودية راغبة في سيرورة التحول الى بروليتاريا .

٤ - يجب ألا تكون قريبة جداً من المراكز الرئيسية للرأسمالية العليا .

٥ - لا بد للسكان الاصليين من أن يتشابهوا مع اليهود نفسياً وعرقياً بحيث يصيرون ، « تحت ادارة فعالة » ، متكيفين مع القادمين الجدد و « ثقافتهم الروحية الأسمى » .

وفي مكان آخر ، كتب بوروخوف أن « العوام فقط يعتبرون السكان عرباً أو أتراكاً . . وليس لديهم سبب يجعلهم يلاقون بالعداء فوراً . على العكس ، هم يعتقدون أن الأرض حق لليهود ، وهم أنفسهم يسمونها « أرض اليهود » .

اننا في هذه الأيام نقرأ كثيراً من الكتابات الاسرائيلية التي تؤرخ للحركة الصهيونية ، والتي تزعم أن القادة الصهيونيين أنفسهم لم يكونوا واعين بمشكلة اسمها العرب . ان نظريات بوروخوف هذه ، التي مارست تأثيراً طاغياً على الحركة الصهيونية حتى عام ١٩٠٦ ، والتي أساساً للنشاط الصهيوني حتى عام ١٩٢٠ ، تنفي نفياً قاطعاً أي جهل أو غياب وعي بالمشكلة العربية .

أسطورتان

هذه المصادر والمؤثرات الفكرية في الحركة الصهيونية سرعان ما تبلورت في أسطورتين قويتين تشكلان الاساس العقائدي للحركة الصهيونية . ونحن نعلم أن كل حركة سياسية تنشىء أساطيرها الخاصة بها لكي تستمد منها مبرر بقائها ووجودها ، ولتبقي معنويات أفرادها عالية وزخمها الخاص مستمراً . ويمكن أن نصنف هذه الأساطير في مجموعتين ، ترتبط الأولى بالأصول ، والثانية بالرسالة .

لقد اعتمد الفكر الصهيوني أسطورة الأصول بسهولة . وانطلاقاً من الفكر القومي الأوروبي ، الذي جعل كل أمة أوروبية كياناً عضوياً مغرقاً في القدم ، صار عمر الأمة اليهودية في نظر المفكرين الصهيونيين يقارب أربعة آلاف عام . فابراهيم الذي هو منشىء الأمة اليهودية ، وجد بحسب مقولاتهم في القرن الثاني والعشرين قبل الميلاد . ولم يكونوا في توكيدهم للهوية القومية بحاجة الا لتحويل التوراة من كتاب ديني إلى كتاب تاريخي ، رغم ما فيه من تزوير وانتحال ومبالغات وكذب ، والايمان بأن ما سجل فيه حقائق تاريخية موثقة لا يأتيها الباطل . وتحولت المشكلة اليهودية ، التي هي نتاج رأسمالية القرن التاسع عشر ، الى مشكلة أزلية ، كونية ، وستظل أبدية ، تعم اليهود كلهم ، وسببها الأولي الوحيد هو الشتات .

لهذه الأسطورة تفرعات وامتدادات كثيرة لا مجال للتطرق اليها هنا . غير أن ثلاث نقاط هامة ترتبط بها لا بد من ذكرها . أولاها اضطرار المفكرين الصهيونيين إلى تبني نظرية مستحيلة في الصفاء العرقي لليهود ، سرعان ما آمنوا ايماناً دينياً ، مغلقاً دون العقل والمحاججة . وبذلك اقترب الفكر الصهيوني من عرقية فاشية سبقت تاريخياً ظهور النازية ، وتفوقت عليها في جيل الصابرا الذي جاء بعد جيل الرواد .

والنقطة الثانية هي العداء المحكم لكل ما هو ديني في تاريخ اليهود ، سواء في التوراة أو التلمود أو الكتابات اليهودية الأخرى . والحقيقة أن العداء الشديد كان متبادلاً بين الصهيونيين والتراثيين الدينيين . فالحاخامون ، الذين حافظوا على التراث اليهودي ، اعتبروا الصهيونية نهاية لليهودية ،

وقاوموها بكل ما يملكون من امكانات . أما الصهيونيون فاعتبروا الانبياء والحكماء في بني اسرائيل حفاري قبور لليهودية « الحقيقية » ، وراحوا يمجدون الملوك الذين « عملوا شراً في عين الرب » . ونظروا الى الرب نفسه كإله للبراكين ، يمشي أمام الجنود في الحرب ويقاتل معهم . ورأوا في يهودي الشتات ما يستدعي اشمئزازهم واحتقارهم لأنفسهم ، وأصروا على اعتبار أنفسهم « عبريين » ، مسترجعين ذكرى القوة الغازية لأرض كنعان التي أسست مملكة بحد السيف ، ووضعت ، في تصورهم ، البذور الأولى للقومية اليهودية . وواضح أن هذا الموقف متأثر بفكر نيتشه أساساً ، وفاغنر إلى حد ما

النقطة الثالثة جديرة باهتمام خاص من المثقفين العرب . وهي أن الصهيونية قديمة قدم اليهودية . ان بعضنا يؤمن بها الى حد ، ويرى فيها تعبيراً تاريخياً عن الشر المتأصل في اليهود . ومثل هذا الموقف ليس بعيداً عن اللاسامية ، كما أنه يغفل حقائق التاريخ التي تثبت أن الصهيونية كفكر وحركة امتداد للفكر الأوروبي الاستعماري . والفكر الصهيوني يرى أنه منذ سقوط أورشليم عام ٧٠ (وكانت في الحقيقة محتلة من قبل الرومان منذ عهد بعيد) ، بدأت الصهيونية ، واستمرت على شكل ايمان لا يتزعزع بالعودة الى كنعان وبناء المعبد من جديد . وليس اختتام الصلاة في عيد الفصح اليهودي بعبارة (العام القادم في أورشليم) الا تعبيراً عن صهيونية تاريخية لم تستطع القوى اللاسامية أن تمحوها . ان العنصر الأسطوري والتلفيقي واضح هنا . وان القفز فوق حقائق التاريخ لا يضلل أحداً الا الذين يقوسون به . فقد انتشر اليهود في أرجاء الامبراطورية الرومانية ، وبعد وقت قصير وجدوا وضعهم الاقتصادي فيها مريحاً أكثر بكثير مما كان عليه في فلسطين . لذلك آثروا الشتات على العودة . والحقيقة أنه لم يكن ثمة شيء يعيق عودتهم لو أرادوها ، فهم لم يكونوا واحداً من الهموم الكبيرة للامبراطورية الرومانية ، ولا ذاكرة قوية في تاريخها . لكن وضعهم الاقتصادي الممتاز جعلهم يؤثرون أوطاناً جديدة ويستقرون فيها . وقد ذكرنا الشيء نفسه عن وضعهم الاقتصادي المماثل في عصر الاقطاع الأوروبي . ويهمنا أن نذكر وضعاً ثالثاً فاق كل توقعاتهم في ظل الامبراطورية العربية ، وخاصة في الاندلس حيث كانت لهم حرية ثقافية واجتماعية كاملة جعلت فكرة العودة هذه ضرباً من الجنون .

لكن الصهيونيين رفضوا هذه الوقائع كلها ، واعتمدوا عبارة (العام القادم في أورشليم)، المرتبطة أساساً بتصور ديني عن القيامة ونهاية العالم، كدليل على توق قومي أصيل. كانوا محتاجين إلى أسطورة أصول فصنعوها . ولم يحاولوا قط أن يجيبوا عن الأسئلة التالية التي وضعها اليهودي الماركسي ابرام ليون : لماذا ، خلال ألفي عام بعد سقوط أورشليم ، لم يحاول اليهود العودة إلى تلك البلاد ، ما دامت الصهيونية قديمة كاليهودية ؟ لماذا كان ضرورياً الانتظار حتى نهاية القرن التاسع عشر كي يظهر هرتزل ويقنعهم بضرورة العودة ؟ لماذا ليس قبل ذلك أو بعده ؟ لماذا عومل أمثال هرتزل من قبل كمسيحيين زائفين وحرقوا ؟

أما الأسطورة الثانية ، أسطورة الرسالة ، فقد تقدمت من اليهود بصورة طوباوية ليهودي المستقبل . انه اليهودي اللايهودي ، الذي سيعود إلى فطرة الانسان متخلصاً من تشويه الشتات ؛ اليهودي القوي ، المحارب ، الذي يعيش في مجتمع الحرية والعدل والكرامة والأمن ، ويتمتع بصحة نفسية أفضل حتى مما لدى الأميين، ويجرد أعداءه اللاساميين من أي مسوغ لكراهيته واحتقاره .

لقد استهدفت أسطورة الرسالة أساساً اعلان الحرب على عدوين اعتبرتها نوعين من المطلق : الشتات واللاسامية . لقد كان الحس اليهودي بالشتات شبه مفقود حتى أواسط القرن التاسع عشر . وفي هذا القرن بالذات أيضاً اتخذ التنافر الديني بين مسيحي ويهودي هوية سياسية ، بسبب انقلاب البنية الاقتصادية الأوروبية . لكن الفكر الصهيوني اعتبر الشتات ظاهرة سياسية بدأت منذ عهد الرومان ، واللاسامية موقفاً أزلياً من الأمميين إزاء اليهود ، وأعلنت أن لديها الحل الأبدي لمشكلة أبدية .

وهكذا تقدمت أسطورة الرسالة من اليهود بدين جديد هو مزيج من عبادة الأرض وعبادة العمل . فأرض اسرائيل هي البيئة الوحيدة في العالم التي يمكن لليهودي فيها أن يكتسب صحة نفسية وانسانية ، خسرها مذ خسر الأرض . كذلك فان هذه الأرض نفسها فقدت صحتها وانتاجيتها مذ تركها اليهودي ، وتحولت إلى صحاري ومستنقعات على أيدي أناس لم يخلقوا لها ولم تخلق لهم . ان صورة الصهيوني الذي يجفف المستنقعات ويخصب الصحاري واحدة من أبرز الصور الثقافية في أذهان المهتمين بها في الغرب . وكان الاصرار على العمل اليدوي في الأرض يقارب حد الهوس عند المهاجرين الأوائل . فالعمل اليدوي هو الذي سيعيد الصحة لكلا الأرض وأصحابها التاريخيين . وهو الذي سيحقق العدل ، إذ يحول دون استغلال العرب استغلالاً رأسمالياً . وهو الذي سيثبت حقهم التاريخي في الأرض بتحويله إلى حق عملي . وكما أشرنا

سابقاً ، كان الصهيونيون في حاجة إلى قوة تكفي للسيطرة على الأرض ، لم يكونوا يملكونها لا في ميدان الصناعة ولا رأس المال ولا التجارة ، على نحو ما توفر للاستعماريين الأوروبيين . وكان لا بد لهذه الحاجة العملية من غطاء عقائدي ، فاخترعوا الغطاء وصنعوا منه أسطورة .

ثلاثة أطوار

مر هذا الفكر الصهيوني والمحاولات المبذولة لخلق ثقافة صهيونية بثلاثة أطوار . ونحن نستمد التواريخ من وقائع الهجرات الصهيونية إلى فلسطين . فبين ١٨٨٢ و ١٩٠٦ كان الطابع الغالب للهجرة الصهيونية استعمارياً بالمعنى التاريخي المتداول . ان أثرياء اليهود من أمثال روتشيلد ، رأوا من الحكمة مطامنة غليان فئات الطبقة المتوسطة من اليهود بارسالهم خارج أوروبا . لذلك دفعوا بسخاء لأجل اقامة مستعمرات صهيونية في فلسطين يهاجر اليها نافدو الصبر من أفراد هذه الطبقة ، فيتوقفون عن مهاجمة الرأسمالية ، وخاصة اليهودية منها . إن مستعمرة ريشون لو زيون أشهر من أن تُعرف . وفي جميع هذه المستعمرات ، كان الصهيونيون يمارسون نشاطاتهم الفكرية كأسياد أوروبيين ، بينما يقوم بالعمل المؤجرون العرب .

هذا الوضع أثار سخطاً شديداً لدى أفراد الهجرة الثانية ، الذين جاءوا بعد فشل الثورة الروسية عام ١٩٠٥ . لقد رأوه وضعاً لا صهيونياً ، رأسمالياً وبرجوازياً عفناً ، عاجزاً عن خلق ثقافة صهيونية . ومنذ هذا التاريخ حتى انفجار الثورة الشعبية الفلاحية في فلسطين ضد الانكليز والصهيونيين عام ١٩٣٦ ، تنتقل الحركة الصهيونية إلى الطور الثاني ، الذي هو بحق محاولتها الجدية العملية لخلق ثقافة صهيونية ، ووضع نظرياتها موضع التطبيق . وسرعان ما بدأت حركة نشطة لاقامة تعاونيات زراعية شيوعية ، يعمل سكانها بأيديهم ، وينتجون حاجاتهم كلها دون أن يملكوا شيئاً كأفراد ، وخاصة المال . لقد أرادوا أن يخلقوا اليهودي الجديد ، يحرروه من لا انتاجيته وعبوديته للأمميين ، وان « المجتمع الخيّر العادل والكامل أخلاقياً » . وقد اختاروا عزلة مطلقة عن العالم الخارجي كي ينصرفوا انصرافاً كلياً إلى تكوين شخصيتهم الجديدة .

وكان أبرز انجاز ثقافي حققوه هو احياء اللغة العبرية وجعلها لغة محكية ، وتطويعها ما أمكن لمتطلبات العصر . وكان بن يهودا ، الذي حل في فلسطين عام ١٨٨٢ أول من بدأ هذا الاحياء برفضه التكلم مع زوجه وأمه ووليده الا بالعبرية . وقد تابع صهيونيو الهجرة الثانية محاولته بدأب كامل ، الى أن تمكنوا من خلق جمهرة لا بأس بها من المتكلمين بالعبرية ، وأوصلوا العبرية الى أن تكون لغة الدولة الرسمية عام ١٩٤٨ ، وتقف جنباً إلى جنب مع الانكليزية والروسية .

كذلك حققت محاولة الاستقلال الاقتصادي ضمن التعاونيات الزراعية نمطاً جديداً للحياة ، وخلقت علاقات جديدة بين سكان هذه التعاونيات . ومن البديهي أن يكون الهم الوحيد لديهم تكوين نوع من الاحترام الذاتي ، والشعور بالجدارة ، نابعين من تحول هؤلاء السكان إلى عمال منتجين لا يعتمدون على أحد في كسب عيشهم وتأمين استمرارهم . أما مسألة علاقتهم بالقوى الكبرى وبسكان الأرض الاصليين فقد أبعدت عن أذهانهم . وتعاموا بتتبع أهدافهم عن النظر بجدية إلى تناقضات صميمية في مشروع وجودهم وفي علاقتهم بالعالم ، رغم أن هذه التناقضات كانت ماثلة أمامهم وتذكرهم بنفسها يومياً عبر السلطات التركية التي كانت تعتقل بعضهم ، وعبر الاغارات العربية المخفقة على مستوطناتهم . فالى جانب المعول ، كانت البندقية الجيدة جاهزة باستمرار لاطلاق النار .

إننا في هذه الفترة نلتقي بكلمات عديدة دخلت في كثير من لغات العالم . ثمة بالتحديد الكيبوتز ، والحالوتزيم ، والصابرا . ولعلنا بشيء من التعميم نستطيع القول بأن هذه الكلمات الثلاث تشير إلى كل ما استطاعت الحركة الصهيونية أن تنجزه على الصعيد الثقافي . فالكيبوتز بيئة مختلفة . انه أول تجربة زراعية شيوعية ، وأول محاولة لازالة حس الملكية واحلال المشاعية والعلاقات الحرة محل قوانين المجتمع البرجوازي . ولأن سكان الكيبوتز لم يكونوا يرون سوى أنفسهم ، فقد انصرفوا إلى خلق حياتهم الجديدة بتكريس كامل . هؤلاء السكان هم الحالوتزيم ، أو الرواد ، أبناء الطبقة المتوسطة في أوروبا ، الذين صمموا على خلع أنفسهم من ثقافتهم الأوروبية واليهودية وتطبيق الماركسية على صعيد زراعي . كانوا يستيقظون مع شروق الشمس ، ويقضون سحابة نهارهم في العمل على الأرض . وفي المساء يجتمعون في ندوة بنوها بأنفسهم ليتناقشوا في الماركسية ، والرأسمالية ، والدولة اليهودية ، والعرب الذين سيندمجون فيهم ، ومختلف الموضوعات الدولية الأخرى . وفي ساعة مبكرة يخلدون الى النوم في مهاجع جماعية بنوها أيضاً بأنفسهم ، فمن شاء نام للتو ، ومن شاء مارس الجنس دونما رقابة . وكانت المستوطنة حصناً زراعياً ، قادراً على الدفاع عن نفسه ، له حرسه الليلي ، ومستودع أسلحته وذخيرته . حتى اذا ما هاجم العرب ببواريدهم الصدئة كانوا خاسرين على الدوام .

هؤلاء حاولوا أيضاً خلق جيل نقي تماماً من أية مؤثرات برجوازية مهما كانت ، جيل ينهض وحده كالصبار في الأرض الصحراوية . هذا الجيل هو ما يسمى بالصابرا ، جيل الابناء الذين ولدوا في فلسطين ، التعبير العملي الحي عن اليهودي الجديد المعافى ، اللايهودي ، المستقر في وطن العدل والخير والسلام والحرية ، الذي يرقص (الهورا) ، ويتمتع بخصائص تميزه عن يهودي الشتات وبقية شعوب العالم .

يجب ألا تخدعنا أهمية الكيبوتز وسكانه . فعلى الصعيد الانساني ، كان النتاج معاكساً تماماً للصورة الدعائية التي مهر الاسرائيليون في تقديمها للعالم. إن الجيل اليهودي الجديد ، أو الصابرا ، أكثر مرضاً من أنداده في بلدان أوروبا ، وبالتأكيد أبعد ما يكون عن أية انسانية منشودة . فهذه الطرزانات العبرية ، كما يسميهم آرثر كوستلر ، بدائية الى حد الهمجية ، فاقدة لأيما قدرة على الحب والتعاطف والتواصل الانساني ، مؤمنة بالقوة والعنف ، كارهة لبني البشر قاطبة . والذي يقرأ عن الصابرا في روايات يائيل دايان وغيرها من كتاب اسرائيل يجد نفسه أمام حالات نفسية مَرَضية ، أين منها التبشيرات الأسطورية بالانسان الجديد التي أطلقها الفكر الصهيوني .

لقد كان جيل الصابرا هو المحك والمعيار لنجاح الصهيونية انسانياً . ومما لا جدال فيه أن الفشل قد توج محاولة الصهيونيين لخلق أنماط جديدة لحياة مختلفة تؤسس لثقافة صحية ومعافاة . كذلك فشلت محاولة جعل التعاونيات الزراعية طابعاً قومياً لاسرائيل . فسكان الكيبوتزات لم يتجاوزوا في أفضل الحالات ثمانية بالمئة من البنية الاقتصادية والسكانية لاسرائيل . وفي معظم الحالات ، كانت نسبتهم لا تتجاوز أربعة بالمئة . بمعنى آخر ، ان كثيراً من الدعاية قد دخل في تصورنا لهم ، وان الحقيقة المتعلقة بما نسميه تجاوزاً ثقافة صهيونية ، كانت في مكان آخر ، في الاعداد الغفيرة قياساً من ساكني المدن الذين حافظوا على الطابع الاستعماري التقليدي لمهاجري الموجة الأولى ، والذين شكلوا العمود الفقري لجيش محارب بدأ بن غوريون وبن زفي ينشآنه منذ عام ١٩٠٩ . ان التفكير بانشاء هذا الجيش ، يعني ادراك القادة الصهيونيين أن محاولات خلق ثقافةجديدة ويهودي جديد لم تكن غير تبرير عقائدي واسطورة ضرورية لمعركة استعمارية صرف . وينبغي التوكيد على هذه النقطة ما أمكن . لأن الفكر الصهيوني ما فتىء يؤكد على براءة المهاجرين ، وطوباويتهم ، وانصرافهم إلى الاحلام انصرافاً انساهم الواقع ، لكي يخفف من استنكار المفكرين العادلين للحركة الصهيونية . وان خير دليل على ما نقول هو المآل الذي وصلت اليه محاولات خلق هذه الثقافة وهذا اليهودي الجديد .

صحيح أن الرواد أعطوا صورة ثقافية مختلفة لاسرائيل ، لكنها ظلت صورة دعائية ، وكان الواقع شيئاً آخر . فمنذ ١٩٣٦ راحت اسطورة الرسالة تتلاشى ، وراح بروز الطبيعة الاستعمارية للحركة الصهيونية يطيح بالاحلام المزعومة ويضع حداً لكل ما هو ليس مقاتلاً أو عنصرياً أو أداة بيد الامبريالية العالمية . واذا كانت أسطورة الأصول قد بقيت كحاجز نفسي ضد الانهيار النهائي ، فان وقوع الكيان الصهيوني في القبضة الاقتصادية الامبريالية ـ بعكس ما أراده بوروخوف ـ قد ألغى كل امكان لقيام ثقافة صهيونية متميزة . ان سقوط أسطورة الرسالة ، وخاصة ايجاد حل للمسألة اليهودية ، قد أوصل الاسرائيليين إلى وضع معاكس تماماً . فبينما حلت المسألة اليهودية في جميع أنحاء العالم ، بقيت في اسرائيل . وبقي هذا المجتمع الاسبارطي نموذجاً جديداً للغيتو اليهودي الأوروبي السابق ، مع فرق واحد هو أنه متخم بالسلاح . لقد ابتعدت البنية الاسرائيلية باطراد وبشكل حاسم عن كل ما هو شيوعي واشتراكي ويساري ، وتقلصت فكرياً وثقافياً إى معطيات برجوازية صرف ، وادعاءات تاريخية عجزت عن خلق تيار ثقافي حتى بين الأدباء الاسرائيليين أنفسهم . إن أبرز أدباء اسرائيل اليوم هم الذين يكتبون بضغط شعور طاغ بخطأ تاريخي فادح ، بما يشبه جريمة سيق إلى اقترافها من يسمون الآن اسرائيليين ، بوعي ممزق بأن الدولة الاسرائيلية صنيعة اسرائيلية محض لا تستطيع أن تتنفس الا بمضخة أمريكية . وقد بلغ هذا التحول ذروته باستلام أقصى اليمين الاسرائيلي للسلطة ، ممثلاً بمناحيم بيغن .

إن مناحيم بيغن رمز سياسي ، ورمز ثقافي أيضاً . فهو ، وسلفه جابرتنسكي ، والحركات الارهابية التي أسساها ، كانوا الصوت الصادق الوحيد في الحركة الصهيونية . هؤلاء لم يتستروا بالايديولوجيا ولا بالأساطير على غزوهم لفلسطين . لقد أعلنوا منذ البداية انهم سيأخذونها بالقوة . ولم يكونوا في هذا بعيدين عن بن غوريون وحزبه الاشتراكي . فبن غوريون ، يوم أسس الجيش الصهيوني ، جعل شعاره العبارة التالية : « بالنار والدم سقطت يهوذا ، بالنار والدم ستنهض يهوذا ثانية » . غير أن بن غوريون كان أذكى ، فعرف كيف يزود الحركة الصهيونية بالغطاء الفكري المناسب .

الغزو الثقافي الامبريالي الصهيوني وسياسة تطبيع العلاقات مع مصر

د. رضوى عاشور

بدأ التمهيد لما نحن عليه الآن في مصر من تبعية للغرب الامبريالي والكيان الصهيوني منذ الأيام الأولى لانقلاب مايو ١٩٧١ ، تم نقل عدد من الكوادر الاعلامية ثم بدأ اقصاء المثقفين الوطنيين والديمقراطيين عن مراكز التأثير الاعلامي وأغلقت المنابر الثقافية الجادة واحداً تلو الآخر . بعد ذلك تتالى ظهور المسرحيات والأفلام والكتب والمقالات التي تعلن بيانات العهد الجديد . وكانت الأرضية تعد لربط البنية الاقتصادية بالرأسمالية العالمية وتفكيك المؤسسات الوطنية واقتلاع مصر من موقعها في حركة التحرر الوطني .

إذن فالمسافة بين القاهرة في منتصف الستينيات والقاهرة في منتصف السبعينيات ليست فقط هي تلك التي تفصل بين سلطتين في الحكم احداهما وطنية والأخرى تخون ، ولكنها أيضاً هي المسافة بين مناخين ثقافيين يساعد كل منهما على استتباب السلطة القائمة . ولما كانت سلطة مايو ذات طبيعة طفيلية يرتكز وجودها على النهب والاثراء الفاحش في اغماضة عين فلقد اخذت تفرز ما ينسجم مع طبيعتها من فكر رث وقيم هدامة وفن هابط وراحت تنقض على أية قيم ايجابية بدءاً من المنطلقات النضالية للشعب المصري وانتهاء بقيم العمل والشرف والامانة والاجتهاد . وعلى هذه الأرضية ، أرضية تشويه وطمس كل السمات الايجابية في الثقافة الوطنية سوف تلتقي السلطة الطفيلية مع حليفتيها الامبريالية والصهيونية .

المعاهدة وشرط التعاون الثقافي

في ٢٦ مارس ١٩٧٦ تم توقيع معاهدة « السلام » بين مصر واسرائيل التي تنص على انهاء حالة الحرب بين البلدين واقامة علاقات طبيعية بينهما تتضمن « الاعتراف الكامل والعلاقات الدبلوماسية والاقتصادية والثقافية وانهاء المقاطعة الاقتصادية والحواجز ذات الطابع التمييزي المفروضة ضد حرية الانتقال والسلع » . وتنص مواد الملحق رقم ٣ « بروتوكول بشأن علاقات الطرفين » على اقامة علاقات دبلوماسية واقتصادية وتجارية وثقافية وضمان حرية النقل البرّي والبحري والجوي واقامة طريق برّي بين البلدين وطرق سكك حديدية ووسائل اتصالات بريدية وبرقية وتلفونية ، والتعاون في سبيل التنمية وحسن الجوار[١] .

وتنفيذاً لما جاء في المعاهدة شكلت لجان « للتطبيع » للاعداد لعقد اتفاقيات تعاون في مختلف المجالات المشار اليها . ولقد تم في النصف الأول من العام ١٩٨٠ توقيع تسع اتفاقيات للتعاون في مجالات الزراعة ، والتربية والثقافة والعلوم ، والتجارة ، والصناعة ، والسياحة ، والنقل الجوي ، والمواصلات البرّية والبحرية ، وتبادل الشبيبة ، واتفاقية طيران واخرى خاصة بتزويد اسرائيل بالنفط .

وكان من أبرز ما نصت عليه هذه الاتفاقيات حرية مرور البضائع بين البلدين ، واقامة المراكز التجارية والاشتراك في المعارض والأسواق ، واصدار رخص الاستيراد ، وتبادل الوفود والخبراء والمطبوعات ، والتعاون في مجالات البحث التطبيقي واقامة المشروعات المشتركة ، والسماح لمواطني الدولتين بحرية التنقل عبر الطرق البرية والبحرية والجوية ، وتسيير ثلاث رحلات طيران اسبوعية لكل من شركتي العال ونفرتيتي (انشئت هذه الأخيرة خصيصاً لتفادي المقاطعة العربية لمصر للطيران في حالة قيامها برحلات الى اسرائيل) وتزويد اسرائيل بمليوني طن من النفط المصري سنوياً .

ولما كان قبول المصريين بوجود اسرائيل والنظر إلى التعاون معها كأمر « طبيعي » هما الضمان لاستمرار واستقرار كافة اشكال التعاون الأخرى ، الاقتصادي منها والسياسي ، فلقد

حظيت مسألة التطبيع الثقافي بقدر كبير من الاهتمام فنصت المادة الثالثة من « بروتوكول بشأن علاقات الطرفين » المشار اليها سالفاً على ضرورة ان « يتفق الطرفان على أن التبادل الثقافي في كافة الميادين أمر مرغوب فيه وعلى أن يدخلا في مفاوضات في أقرب وقت ممكن وفي موعد لا يتجاوز ستة أشهر بعد اتمام الانسحاب المبدئي بغية عقد اتفاق ثقافي» كما نصت المادة الخامسة على ضرورة « تنمية علاقات حسن الجوار » و « انماء السلام والاستقرار » في المنطقة والعمل « على تشجيع التفاهم المتبادل والتسامح » وان « يمتنع كل طرف عن الدعاية المعادية للطرف الآخر » .

وفي ٨ مايو ١٩٨٠ تم توقيع اتفاقية التعاون في مجال التربية والثقافة والعلوم في مبنى الاذاعة والتلفزيون بالقاهرة . ولم تنشر هذه الاتفاقية في أية جريدة مصرية ولم تعرض على مجلس الشعب كما أعلن ساعتها وضربت عليها سرية كاملة . وكتبت جريدة **دافار** الاسرائيلية في ٨٠/٦/٢ أن هذه الاتفاقية تتضمن « اسس الاتصالات وتبادل الزيارات بين خبراء الدولتين في حدود الثقافة والفن والتقنية والعلوم والطب ، وتبادل المطبوعات والمكتشفات الأثرية واقامة المعارض والبرامج الاذاعية والتلفزيونة والافلام الثقافية والعلمية ، ومعادلات الشهادات والالقاب العلمية وتبادل وفود الشباب والوفود الرياضية ومدة الاتفاقية خمس سنوات قابلة للتجديد »[٢] .

ولم تنتظر اسرائيل عقد هذه الاتفاقية لكي تنشط في الاعداد « للتطبيع » فراحت المؤسسات ومراكز الأبحاث تدرس مختلف جوانبه وتعد تصوراتها لامكاناته ومساراته وتقيم الندوات لمناقشته . وظهرت دراسات عن الموضوع كتلك التي نشرها معهد فان لير في القدس **اذا جاء السلام . . . اخطار واحتمالات** التي تضم مجموعة من الابحاث لكتّاب اسرائيليين وتفرد فصلين لقضية التعاون في مجالات الثقافة والتعليم والعلوم يتضمنان مناقشة « اشاعة قيم السلام » عبر اعادة النظر في المناهج التعليمية واعادة تقييم الحقائق التاريخية وتبادل العلماء وتكوين مجموعات بحث مشتركة[٣] .

وما ان تم توقيع المعاهدة حتى انهال على مصر سيل من كبار الباحثين والخبراء والكتاب والفنانين الاسرائيليين . جاء أبا ايبان وزير خارجية اسرائيل السابق ومترجم **يوميات نائب في الأرياف** ، ويائيل دايان الروائية الاسرائيلية وييغال يادين نائب رئيس الوزراء السابق الذي قدم كعالم آثار ، وايلي ريخس مدير معهد شيلواح التابع لجامعة تل أبيب وايتامار رابيندفتش رئيس دائرة تاريخ الشرق الأوسط في المعهد وحاييم شيكو عميد كلية العلوم الانسانية . ولقد زار هؤلاء الاكاديميون مصر لبحث امكانيات التعاون في مجال الدراسات المتعلقة بالشرق الأوسط كذلك زارها شمعون شامير المتخصص في الدراسات العربية ومناحيم ميلسون استاذ الأدب العربي في جامعة القدس ويوسف تكواع رئيس جامعة بن غوريون على رأس وفد من الجامعة .

كما تم التنسيق بين كليات الطب في جامعتي القدس وبئر سبع في اسرائيل وبين جامعة عين شمس في مصر بهدف اجراء ابحاث علمية مشتركة للقضاء على مرض حمو النيل وذكرت جريدة **هاآرتس** التي أوردت الخبر في ١٩٨٠/١١/١٢ انه تم تمويل هذه الأبحاث من قبل الحكومة الامريكية التي خصصت لذلك ما قيمته ٦ ملايين دولار[٤] .

وكتبت جريدة **يديعوت إحرونوت** الاسرائيلية في ٨٠/١٢/١ عن زيارة دكتور يوسف شنكر مدير قسم النساء والولادة في مستشفى هداسا بالقدس لجامعة عين شمس لحضور مؤتمر دولي يعقد بها وانه أعد له برنامج لزيارة جامعات أخرى والمحاضرة فيها[٥] .

أما الولايات المتحدة « الشريك الكامل » في اتفاقيات كامب ديفيد فقد راحت عبر هيئاتها ومؤسساتها تدفع في اتجاه هذا التعاون وتشجع عليه فرصد الكونغرس الأمريكي في ميزانية عام ١٩٧٩ خمسة ملايين دولار للتعاون الثقافي المباشر بين مصر واسرائيل ثم رُحّلت الميزانية للعام التالي للفشل في بدء مشروعات ثقافية مشتركة[٦] . ورصدت هيئةالتنمية الدولية ٦٠ مليون دولار لتقديمها الى الجامعات ومراكز الأبحاث المصريةوكلفت احدى الشركات الامريكية ابا ايبان بكتابة ٤٢ حلقة تلفزيونية عن الحضارة اليهودية على أن يتم تصوير هذه الحلقات في مواقعها التاريخية أي في مصر واسرائيل[٧] .

وانهالت الدعوات على المثقفين المصريين إلى مؤتمرات في الولايات المتحدة وأوروبا الغربية تعقد تحت شعارات « التعاون الحضاري » و « انفصال العلم عن السياسة » و « اقرار السلام عن طريق المعرفة » ونبتت بشكل شيطاني مفاجىء معاهد ابحاث وهيئات مشبوهةتعقد لقاءات وندوات تضم مصريين واسرائيليين « كنادي البحر المتوسط » و « منظمة الشرق الأوسط »[٨] .

ولم تعدم اسرائيل بين مثقفي مصر من ينخرط الى جانبها في معركة التطبيع تلبية لنوازع انتهازية أو عنصرية أو مصالح طبقية تعميه عن مصالح الوطن . فبعث توفيق الحكيم ببرقية إلى السادات في ٧٩/٥/٦ نشرتها الصحف المصرية في اليوم

التالي ، قال فيها « تحية لموقفكم الراسخ أمام الأقزام . لقد افزعهم صلح الفئتين المتحضرتين بعد اطمئنانهم الى ضعف مصر لتذل تحت أقدامهم ، ما لهم وجهلهم سر المقاطعة والتخريب وخوفهم من قومة مصر بعد الصلح لأنهم يريدونها منهكة القوى بالحروب لتستنجد بهم وتتملقهم فيحتقرونها . الى الامام نحو الكرامة والحضارة . وخطوة من المتحضرين نقابلها بخطوتين ولن ترجع مصر مع المتخلفين للوراء . فالتقدم دائماً لمصر المتحضرة » .

وقبل الدكتور حسين فوزي دعوة إلى جامعة حيفا حيث صرح في مؤتمر صحفي عقده في حيفا في ٢٨ أكتوبر ١٩٧٩ « ان الفراعنة لم يكونوا عرباً وكذلك الشعب المصري » وان « عبد الناصر لم يأخذ التاريخ بعين الاعتبار »[٩] .

وصرح الدكتور رشاد رشدي المدير السابق لأكاديمية الفنون ومقرر شعبة الفنون في المجلس الأعلى للثقافة والذي كان زار السادات برفقة سينمائيين اسرائيليين أن الاسرائيليين يعرضون « مشروعات ممتازة » يجب الا توضع أمامها العراقيل وانهم رصدوا مبالغ كبيرة من المال لانتاج سينمائي مشترك بين مصر واسرائيل عن رسالة السلام وعرضوا ١٢ مليوناً بصفة مبدئية لذلك[١٠] .

وعهدت جريدة الاخبار القاهرية إلى الدكتور ابراهيم البحراوي المتخصص في اللغة العبرية وآدابها والاستاذ بجامعة عين شمس بالاشراف على صفحة اسبوعية تنشر مقتطفات وطرائف من الصحافة الاسرائيلية ونماذج من الأدب العبري الى جانب مقال حول ما يستجد من أمور العلاقة بين مصر واسرائيل .

ولبى الدكتور حسين شعلان استاذ الطب النفسي بجامعة الأزهر والدكتور عادل صادق استاذ الطب النفسي بجامعة عين شمس دعوة لحضور ندوة عقدت في الولايات المتحدة حول موضوع « مقاومة السلام وأسبابه السيكولوجية » شارك فيها اخصائيون نفسيون أمريكيون واسرائيليون . ثم بدأ الطبيبان بعد عودتها الى مصر في نشر سلسلة من المقالات في مجلة أكتوبر وجريدة الاخبار يرجعان فيها مواقف المعارضة الوطنية الى أسباب نفسية كالاحباط والنكوص والاغتراب وعدم القدرة على التكيف[١١] .

ويكتب محمد حسن معلقاً على المشروع الاسرائيلي للتعاون الثقافي وما يرتكز اليه من إقامة حوار بين المثقفين المصريين والصهاينة :

« وربما يكون الأهم من ذلك (الحوار) الاطار الذي تحاط به هذه اللقاءات . فلقاءات الحكيم وايبان تتم بوصفها امتداداً للقاءات أخرى سابقة على عام ١٩٤٨ وزيارة الدكتور حسين فوزي لاسرائيل تعرض بوصفها الزيارة الثانية له بعد زيارة سابقة قام بها عام ١٩٤٤ بصحبة المرحوم الدكتور طه حسين . وعندما يزور مناحيم ميلسون مصر يناقش على صفحات الجرائد المصرية أعمال الأدباء المصريين ويبرز تذوق المثقف الاسرائيلي لأدب الاستاذ نجيب محفوظ . . . الخ ويعطي ذلك كله انطباعاً بأن ثلاثين عاماً من العدوان الاسرائيلي على أراضينا وحرماتنا لم تكن الا جفوة بين أبناء عم . مجرد « فتق » في نسيج العلاقات الانسانية المنسابة عبر التاريخ بين الثقافتين العبرية والعربية »[١٢] .

ولم يقتصر تبادل الزيارات على العلماء والخبراء والكتاب فعلاقات « حسن الجوار » تتطلب زرع المودة والمحبة في الصغار أيضاً . ولقد ذكرت جريدة **هاآرتس** الاسرائيلية في ١٩٨٠/١١/٤ أن اتفاقية التعاون في مجال التربية والثقافة والعلوم تنص على تبادل الوفود بين البلدين . كما ذكرت نفس الجريدة في ١٩٨١/٣/٣ أن اتفاقية لتبادل الشبيبة قد وقعت بين مصر واسرائيل بناء على طلب الرئيس نافون من الرئيس السادات وانه تنفيذاً لهذه الاتفاقية سافر إلى اسرائيل وفود شبابية تتراوح أعمار المشاركين فيها ما بين ١٥ و ١٨ سنة وستزور مصر وفود اسرائيلية مماثلة[١٣] .

وتقدم مجلة **اكتوبر** في عددها الصادر في ١٩٨٢/٢/١٤ تحقيقاً صحفياً تحت عنوان « طلائع السلام عائدون من اسرائيل » ويستهل التحقيق بالمقدمة التالية :

« اذا كان صرح السلام المصري - الاسرائيلي قد قارب الاكتمال ، فان الاساس الخرساني الذي هو التطبيع الفعلي للعلاقات يلزمه الحقن . وهو لا يتأتى الا بلقاء الشعبين وهو ما كان في زيارة وفد الطلائع إلى اسرائيل ، وما سيكون » .

زار الوفد الذي ضم ٦٠ من « الطلائع » و ١٥ مرافقاً اسرائيل في الفترة من ٧ إلى ٢٤ يناير وتضمن برنامج الزيارة لقاءات مع الشبيبة الاسرائيلية وزيارة للكيبوتسات والأماكن الأثرية ومتحف الكارثة النازية وبعض المدارس والمصانع الاسرائيلية ووضع أكاليل الزهور على النصب التذكاري للجندي المجهول .

وقالت سحر زهّار (١٦ سنة) ان الاستقبال « كان رائعاً » وقالت عبير عمّار (١٦ سنة) انها وجدت الاسرائيليين « محبين للسلام » وانهم « شعب . . يعتز ببلده ويحاول دائماً اظهارها

بالمظهر اللائق»أما سحر حشمت الطالبة بالمدرسة الالمانية بالدقّي فقالت « زملائي وزميلاتي في المدرسة سعدوا بخبر زيارتي لاسرائيل وتخيلوا أنني سأعود أتحدث بالعبرية » . ووصف الطالب سمير ندا (١٨ سنة) الزيارة بأنها أول خطوة على المستوى الشعبي بين البلدين بعيداً عن المسؤولية ، تأكدنا خلالها أن الغالبية العظمى من الاسرائيليين يريدون العيش في سلام » ثم استطرد قائلاً : « تأثرت للغاية بالاستقبال الرائع والحفاوة التي قوبلنا بها في منزل الرئيس نافون حيث أخذ يستفسر عن انطباعات كل منا بعد زيارة اسرائيل » .

اعادة النظر في مناهج التعليم

وعملاً بالبند الثالث من المادة خمسة من الملحق رقم ٣ للمعاهدة والذي نص على أن « يعمل الطرفان على تشجيع التفاهم المتبادل والتسامح ويمتنع كل طرف عن الدعاية المعادية للطرف الآخر » ، وتنفيذاً لبنود أخرى نجهلها في اتفاقية التعاون في مجال التربية والثقافة والعلوم بسبب سريتها بدأت الحكومة المصرية في اعادة النظر في المقررات والكتب المدرسية وحذف كلِ ما لا « يتناسب مع السياسة الجديدة . وتشير المواجهة الصادرة عن لجنة الدفاع عن الثقافة القومية في مقال بعنوان « مناهج التعليم تواكب عصر السلام » الى بعض التعديلات التي تمت في الكتب المدرسية المقررة على مختلف المراحل التعليمية والتي منها حذف النصوص الدينية التي تتعرض لبني اسرائيل بأية اشارات سلبية واضافة آيات قرآنية وأحاديث نبوية تدعو للتسامح مع الأعداء .

بمقارنة كتب عام ١٩٧٩ بكتب عام ١٩٨٠ لوحظ حذف كلمة « رمضان العبور » المقررة على الصف السادس الابتدائي وموضوع عن حرب الدبابات من كتاب النحو للصف الأول الاعدادي وموضوع « عهد جديد » في كتاب النحو للصف الثالث الاعدادي وفي هذا الموضوع الأخير ادانة للاعداء ومدح للمصريين على شجاعتهم وحث على العمل والنضال . كذلك حذفت من نفس الكتاب قصيدة « مصر والمعتدون » . وحذفت من موضوع « العبور العظيم » الفقرة التالية : « وانتصرت مصر ولكن المعركة ما زالت مستمرة وستظل كذلك ما دامت بعض المواقع محتلة يدنسها الوجود الاسرائيلي » وحلت محلها هذه الفقرة : « وانتصرت مصر ، وسعت إلى السلام من منطلق القوة ، وما زالت ساعية إليه وستظل كذلك ما دامت مؤمنة بتحقيق آمالها ، وآمال الأمة العربية في سلام عادل وشامل » .

وفي كتاب الجغرافيا المقرر على الصف السادس الابتدائي حذفت الفقرة التالية من الدرس الخاص بفلسطين : « تمكن اليهود والصهاينة بمساعدة الدول الاستعمارية من اغتصاب أرض فلسطين منذ عام ١٩٤٨ ، وشردوا معظم أهلها العرب واستولوا على ممتلكاتهم ، غير أن الفلسطينيين وسائر العرب يعملون على تحرير الأرض وعودة الشعب الفلسطيني إلى وطنه »[١٤] .

الدور الاعلامي في التطبيع

أما بالنسبة لدور الاعلام في عملية التطبيع فلم يقتصر على جعل التصالح مع وجود الدولة الصهيونية واستمرارها ممكناً ولكنه قام بما هو أهم من ذلك وأسبق الا وهو خلق نسق كامل عن الوعي الزائف يجعل هذا القبول تلقائياً وسهلاً .

لقد قام اعلام السلطة المصرية وعلى مدى سنوات بالتركيز على فقر المصريين وثراء العرب ، وتقدم المصريين وتخلف العرب بهدف تحويل الشعور بالظلم الطبقي إلى شعور بظلم اقليمي ، وصرف معادلة فقير ضد غني الى مصري ضد عربي غني وخلط الاعتزاز الشعبي المشروع بتاريخ مصر القديم وانجازاتها الحضارية بتعالٍ عنصري إقليمي آثم كما عمل الاعلام في الوقت ذاته على تشويه فترة الحكم الناصري وارجاع كل مثالب الحاضر ومشاكله الاقتصادية والاجتماعية والسياسية الى تلك الفترة . ورافق ذلك هجوم شرس على الاشتراكية والاشتراكيين وربط كل آفاق للتقدم بأمريكا « الجميلة » ونهجها الرأسمالي . والتزمت وسائل الاعلام من صحافة واذاعة وتلفزيون بسياسة يومية تقلب الحقائق وتمتهن القيم الوطنية أو تميعها . وضمن هذا السياق تمت زيارة السادات لاسرائيل عام ١٩٧٧ وتم توقيع اتفاقيات كامب ديفيد عام ١٩٧٨ ثم المعاهدة المصرية ـ الاسرائيلية عام ١٩٧٩ .

قبل أيام من زيارة السادات لاسرائيل تكتب جريدة الاهرام القاهرية « قلنا بأعلى الصوت إننا نحن العرب كنا نخاصم العقل عندما سجنا أنفسنا أسرى مفاهيم بالية كانت هذه المفاهيم التي تبدو كبديهيات غير قابلة للنقاش تتعلق بالشكل أكثر مما تتعلق بالمضمون . كنا نرفض الجلوس إلى الاسرائيليين وكان ذلك يأخذ شكل البديهية السياسية . والآن بعد اكتوبر كان هناك عقل عربي أكثر علمانية وأكثر جسارة وأكثر تحضراً . كنا غارقين في سفسطات وهمية ».(الاهرام ١٢/١١/١٩٧٧) .

كان عداؤنا لاسرائيل وتشبثنا بالحق الوطني اذن وهماً

ومشكلة نفسية . أما الآن فنشب عن الطوق « ونعقل » ونبرهن على نضجنا وتقدمنا الحضاري حين نجلس إلى مائدة الصلح وبذلك ، بذلك فقط نتجاوز « الاسلوب العشائري الجاهلي » و « نصبح قطعة من أوروبا » (ثروت اباظة ، الأهرام ١٩٧٧/١١/٢٢) ، ولما عقدت المعاهدة واستفتي الشعب عليها وظهرت النتيجة (المزيفة طبعاً) كانت (كما جرت العادة) ٩٩,٩٠ ٪ موافقين . أما المعارضون فليسوا إلا « قلة حاقدة » و « عناصر مشبوهة » و « عملاء لموسكو » متجرين بقضايا الشعب .

إن الدور المنوط بأجهزة الاعلام المكتوبة والمسموعة والمرئية في مرحلة تطبيع العلاقات شامل ومتنوع وهو يمتد من اذاعة القرآن الكريم حيث تم حظر اذاعة الآيات التي تتعرض لبني اسرائيل بشكل سلبي وتلك التي تدعو للحرب إلى التمثيليات التي لا تتناول الا النسخة المعدلة من الصراع العربي الاسرائيلي الى المواضيع والمقابلات عن هذا الكاتب الاسرائيلي أو ذاك . وتقدم جريدة الاخبار كما سبق وأشرنا صفحة كاملة كل أسبوع بها أخبار وطرائف منقولة عن الصحافة الاسرائيلية ونماذج مترجمة من الأدب العبري . أما مجلة اكتوبر الالصق بالنظام الحاكم فقد كانت ولا تزال منبراً أسبوعياً لأكثر الأفكار تخلفاً وانحطاطاً ولسياسة التطبيع أيضاً . وفي عدد واحد مثلاً كالعدد الصادر في ١٤ فبراير الماضي نطالع تحقيقاً صحفياً عن زيارة وفد من الشباب المصري لاسرائيل ، وخبراً عن افتتاح وزير الثقافة المصري لمعرض للفنانين التشكيليين المصريين في اسرائيل يضم لوحات لمحمود سعيد . وعلى الغلاف اعلان عن مسابقة جوائزها « شقق تمليك ، جهاز العروسة ، حفل زفاف مجاناً ، شهر عسل مجاناً » وتحمل المجلة في صفحتها الأولى السؤال الأول في المسابقة : « من هو مطرب مصري مسلم جاء أحفاده من اسرائيل ليروه لأول مرة » .

تحت هذا العنوان تعلن المجلة عن « أضخم مسابقة في تاريخ الصحافة المصرية » ثم تستطرد : « الحلقة الأولى سؤال عن مطرب مصري تزوج ضمن زيجاته الكثيرة بيهودية من يافا . وقطعت حرب فلسطين العلاقة بينهما وبعد مبادرة السلام جاء أحفاده اليهود لزيارته » .

والمطلوب طبعاً في منطق المجلة ومن تمثلهم أن يشعر القارىء برفع هذه الحرب التي فرقت بين مصر واسرائيل في شخص الجد وأحفاده وان يبصر أن العلاقة بين البلدين ليست علاقة عداء أو حتى جيرة ولكنها علاقة قرابة دم ، ومطلوب أخيراً أن يفرح القارىء وتقر عينه بهذا السلام الذي أعاد كل الأمور الى نصابها .

مقاومــة

بالرغم من هيمنة وسائل الاعلام المصرية وترويجها للصلح ولسياسة التطبيع المرتبطة به الا ان الأصوات قد ارتفعت منذ اللحظة الأولى ترفض هذه السياسة وتحذر من مخاطرها على حاضر البلاد ومستقبلها . وأصدرت الأحزاب والهيئات الوطنية بيانات تعلن فيها معارضتها ومقاطعتها للوجود الاسرائيلي على أرض مصر .

ولقد رفض المعاهدة اليسار المصري بجميع فصائله المنظمة ممثلة في حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي والحزب الشيوعي المصري ، وحزب العمال الشيوعي ، و ٨ يناير . كما رفضها الناصريون واصحاب الاتجاه الاسلامي واعضاء مجلس قيادة ثورة ٢٣ يوليو . أما البابا شنوده بابا أقباط مصر الذي عزله السادات في سبتمبر الماضي فرغم أنه لم يعارض المعاهدة في مجملها الا انه أصدر « حرمان » (أي تجريداً من الانتماء للكنيسة) على أي قبطي يزور القدس معلناً بذلك عن رفضه القاطع للتطبيع . وفي الذكرى الأولى لفتح سفارة اسرائيلية في القاهرة أعلن حزب العمل سحب موافقته على اتفاقيات كامب ديفيد وما ترتب عليها واعلنت عدة نقابات وتجمعات شعبية رفضها للتطبيع ورفعت شعار المقاطعة منها نقابات المحامين والصحفيين والأطباء والصيادلة والبيطريين وشعبة الهندسة الكيمياوية والنووية بنقابة المهندسين والاتحاد العام للعمال ونقاباته العامة ، واتحاد طلاب الجمهورية واتحاد نقابات المهن الفنية (المهن السينمائية والممثلين والموسيقيين) ولجنة مقاطعة السينما الصهيونية وجمعية النقاد ، ومؤتمر نوادي أعضاء هيئات التدريس بالجامعات المصرية ، ولجنة الدفاع عن حقوق الانسان بالدقهلية ، ولقد عبر العديد من كتاب مصر ومثقفيها عن رفضهم لذلك الانقلاب في علاقة مصر بالدولة الصهيونية مما دعا الياهو بن اليسار أول سفير باسرائيل في مصر والذي أطلقت عليه الصحافة الاسرائيلية « سجين المقاطعة الشعبية المصرية » للتصريح التالي قبل مغادرته للقاهرة :

« ان المثقفين المصريين لم يغفروا لنا مجيئنا وكوننا في مصر ، وهم لا يعارضون السلام بل ينشدونه ولكنهم كانوا يفضلون أن يكون هذا السلام مع أي كيان غير محدد ، مع القطب الشمالي مثلاً ، ومن الصعب عليهم حتى الآن أن يسلموا بأن السلام قد تم توقيعه مع اسرائيل . ان المثقفين المصريين لم يغفروا لنا وجودنا وكياننا ، وهم عندما يرون علماً اسرائيلياً فانهم يشعرون بأن هذا العلم يأكلهم »[١٥] .

لجنة الدفاع عن النقابة القومية

تعمل هذه اللجنة ذات الصفة الجبهوية والمكونة من اعضاء حزبيين وغير حزبيين داخل اطار حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي . ولقد تكوت عقب مؤتمر للمثقفين المصريين دعا له حزب التجمع في ٣١ مارس ١٩٧٩ أي على اثر توقيع المعاهدة المصرية ـ الاسرائيلية . استهلت اللجنة أعمالها ببيان بعنوان « نداء دفاعاً عن الثقافة القومية » أوضحت فيه المخاطر المترتبة على تطبيع العلاقات مع اسرائيل ومن أبرزها ضياع هوية مصر الحديثة المتركزة الى منطلقات وطنية تحررية وعزل الثقافة المصرية عن سياقها العربي . وقال البيان ان المثقفين المصريين مطالبين بحماية تراثهم الوطني والدفاع عن ثقافتهم بكشف هذه المخططات والتصدي لها ورفض كل أشكال التبعية وتمكين رجال الدين من القيام بدورهم النضالي التقليدي والوقوف في وجه تشويه تاريخ البلاد وتراثها الروحي وتأكيد الوحدة الوطنية . كما طالب البيان بالغاء كافة القوانين المقيدة للحريات ودعا إلى تشكيل هيئات للدفاع عن الثقافة القومية[١٦] . وكان أول ما أصدرته اللجنة من مطبوعات كراسة بعنوان « حوار آخر مع توفيق الحكيم حول العرب والصهيونية » ، وذلك ايماناً منها بأن « الخطر يكمن في الداخل أكثر مما يكمن في الخارج ، وهو يأتي على وجه الخصوص ممن يروجون للمنطلقات الفكرية للاستعمار والصهيونية سواء عن وعي أو بلا وعي »[١٧] .

ثم أصدرت اللجنة كراسة أخرى تحتوي على بيان بعنوان (لا للصهيونية) جاء فيه ان « المثقف المصري مطالب اليوم أن يختار بين انتمائه الوطني والقومي وبين التنكر لوجوده ولكيانه وهويته وتراثه القومي وتاريخه النضالي التحرري ولكل المنطلقات التي ارتكزت عليها ابتكاراته وابداعاته ومنجزاته الفكرية والفنية والتقنية ، والقاعدة العريضة (المقصود الشعوب العربية) التي احتضنت وما زالت تحتضن بامتنان عميق هذه المنجزات .

« ان المثقف المصري مطالب بالاختيار بين أن يكون أو لا يكون وقد اختار فعلاً متبنياً سلاح المقاطعة » .

وأوضح البيان ارتباط الاستراتيجية الصهيونية الامبريالية في المنطقة بايجاد « طبقة مصرية . . . ترتبط مصالحها الاقتصادية ارتباط عضوياً بالمصالح الصهيونية والاستعمارية . . . وفئة من المثقفين المصريين قادرة على التأثير على الرأي العام وعلى تحوله لتقبل الوضع » كما أوضح الدور الذي تقوم به المراكز الثقافية العربية والهيئات المشبوهة من أمثال هيئة التنمية الأمريكية ومشاريع الابحاث التي تتم تحت اشراف هذه الهيئات .

وأضاف البيان أن المقاطعة « لا تعني السلبية في وجه المخططات بل تعني الحفاظ على كل منطلقاتنا الوطنية والقومية والتحررية والترويج لها وترسيخها في ضمير . شعبنا ، وتعني التصدي لدحض هذه المخططات أولاً بأول. ولكن هذا التصدي لا يعني بحال الوقوع في الفخ الصهيوني الذي يتلخص في عبارة ، تعال الينا وخذ رأيك بحرية اذ أن المؤسسة الصهيونية تلهث وراء الاتصال بالمثقفين المصريين من كل الاتجاهات والتيارات الفكرية وتحرص على أن تنال أول ما تنال من أشرفهم وأكثرهم صلابة وقومية ووطنية لادراكها أنهم يشكلون الطليعة الحقة والدرع القومي والحصن الذي يصعب اختراقه »[١٨] .

كما أصدرت اللجنة بعد ذلك كراسين آخرين هما « النشاط الثقافي الأجنبي في مصر » و « المثقفون المصريون ضد الجامعة العبرية ». ونشرة غير دورية باسم « المواجهة » صدر منها عددان .

ومن الجدير بالذكر أن جملة الاعتقالات التي شنها نظام السادات على المعارضة في سبتمبر الماضي قد شملت رئيسة اللجنة الدكتورة لطيفة الزيات ومعظم أعضائها البارزين ولم يفرج عنهم الا بعد ثلاثة أشهر .

المعرض الدولي للكتاب : القاهرة ٨١ ، القاهرة ٨٢

على مدى العامين الأخيرين كان معرض القاهرة الدولي للكتاب مسرحاً للمواجهة بين المثقفين المصريين والوجود الاسرائيلي في مصر . في المعرض الثالث عشر ، العام الماضي ، لم تتمكن اسرائيل بسبب جهود بعض القائمين على هيئة الكتاب من أن يكون لها جناحها الخاص بها ولكنها استطاعت أن تفرض وجودها كجزء من جناح مكتبة « هاشيت » التي يملك صاحبها توكيل دور النشر الاسرائيلية في مصر . قاطع المثقفون المصريون الجناح وقاموا بتوزيع آلاف الشارات التي تحمل اعلام فلسطين « يقدر عدد الشارات التي وزعت في اليوم الأول للمعرض بعشرين الف شارة » كما وزعوا بياناً يدعو إلى عدم دخول جناح امكو في المعرض ويطلب من دور النشر المصرية والعربية رفع العلم الفلسطيني على اجنحتها . ووقع البيان ممثلون عن حزب التجمع وحزب العمل نقيب الصحفيين وعضو من مجلس نقابة المحامين وصاحب دار نشر الثقافة الجديدة وصاحب دار الموقف العربي وعضو من مجلس ادارة الفنانين والكتاب ولجنة الدفاع عن الثقافة القومية .

ورغم ان مباحث أمن الدولة القت القبض على الكاتبين التقدمين حلمي شعراوي وصلاح عيسى فقد استمر توزيع اعلام فلسطين والبيان وتجمهر مئات المواطنين وراحوا يهتفون ضد الصهيونية والعدو الاسرائيلي[١٩] .

كذلك قدم عدد من المثقفين المصريين للتحقيق لتوقيعهم على البيان كان من بينهم كامل زهيري نقيب الصحفيين والمحامي البارز نبيل الهلالي عضو مجلس نقابة المحامين الذين اتهما « بالقيام بعمل عدائي ضد دولة اجنبية من شأنه التهديد بقيام الحرب أو قطع العلاقات السياسية » .

أما هذا العام فلقد شاركت اسرائيل في معرض القاهرة الدولي للكتاب بجناح خاص بها يعلوه العلم الاسرائيلي . وأصدرت لجنة الدفاع عن الثقافة القومية عدداً خاص من المواجهة فيه بيان بعنوان : «لا للكتاب الاسرائيلي في معرض الكتاب الرابع عشر » حث فيه المواطنين على مقاطعة الجناح الصهيوني بالمعرض . . وجاء في البيان : « . . . ليس الصراع العربي - الاسرائيلي مجرد حاجز نفسي تزيله الزيارات المتبادلة ، ولكنه في الاساس وعلى طول المدى صراع بين الشعوب العربية المتعطشة للتحرر والتقدم والرخاء ، وبين الاستعمار الذي يريد احتلال الأرض والسيطرة على ارادة ومقدرات الشعوب العربية ، ودفعها إلى مزيدٍ من التخلف » . واكد البيان أن ارتباط الشعب المصري بباقي الشعوب العربية وفي مقدمتها الشعب الفلسطيني « ليس ارتباطاً عاطفياً أو وجدانياً فحسب ، لكنه في الحقيقة ارتباط مصيري تحتمه المصالح الاساسية والجوهرية لكل الشعوب العربية بما فيها الشعب المصري »[٢٠] .

ولقد رفع التجمع على مقره المركزي بوسط القاهرة لافتات كتب عليها « قاطعوا الجناح الاسرائيلي في معرض الكتاب » « لا للثقافة الصهيونية » . « قاطعوا البضائع الاسرائيلية » . كما أقام التجمع في الوقت نفسه أسبوعاً للكتاب الفلسطيني ومهرجاناً للشعر والأغاني النضالية ورفعت الاعلام الفلسطينية على مركز الحزب[٢١] .

صحافة الفقراء وابداعاتهم

لم تقتصر مقاومة المثقفين المصريين على العمل السياسي بل اتخذت تعبيراً لها في انتاجهم الفكري والابداعي . فشهدت السنوات الأخيرة صدور عدد من المجلات غير الدورية أغلبها على شكل كراسات تعد بأبسط الوسائل والتكاليف وتباع بأثمان زهيدة نسبياً . وكان اصدار هذه الكراسات التي لا تخضع لقانون الرقابة على المطبوعات هو احدى الوسائل التي حاول الكتاب من خلالها كسر العزلة المفروضة عليهم من قبل السلطة وهيمنتها على وسائل النشر .

إن هذه الصحافة التي أطلق عليها صلاح عيسى « صحافة الفقراء » والمطبوعة بقروشهم القليلة تشكل ملمحاً رئيسياً من ملامح العمل الثقافي الوطني في مصر الآن . ولقد ظهرت على مدى السنوات الأربع الأخيرة . **الفكر المعاصر** و **الثقافة الوطنية** و **آفاق ٧٩** و **مصرية** و **أبجديات وبديهيات** و **الشارع** و **أدب الجماهير** و **لقاء الأربعاء** و **أصوات** و **أدب المستقبل** و **النديم** و **خطوة** و **المواجهة** وغيرها .

وفي السنوات الأربع الأخيرة أيضاً صدر عدد من الأعمال الابداعية التي تتسم بمناهضة سياسة التبعية للامبريالية والصهيونية وقمع الحريات . منها « **اللجنة** لصنع الله ابراهيم **وذكر ما جرى و** « نوبة حراسة » لجمال الغيطاني و **يحدث في مصر الآن** و **الحرب في بر مصر** لمحمد يوسف القعيد و **المشروع والممنوع** لعبد الرحمن الابنودي و **صندوق الدنيا** وهو شريط مغنى من تأليف احمد فؤاد نجم وتلحين وغناء الشيخ امام عيسى .

ويلاحظ أن أبرز هذه النصوص تعبر عن واقع مصر الحالي وتفضح أبعاده بخلق واقع مواز عبر المحاكاة التعبيرية التهكمية أو الفنتازية ففي رواية « اللجنة » (١٩٨١) تكشف المواجهة بين اللجنة والراوي عن العلاقة الكابوسية بين السلطة القمعية والمواطن . تمد اللجنة أذرعها الاخطبوطية لتسحق المواطن بعد أن تمتهنه وتعريه من انسانيته . والراوي هو المواطن المستكين والعاجز، القابل بالأمر الواقع بل والمستعبد ثقافياً إلى حد ترديد كل مقولات مستعبديه بما فيها أن الهرم الأكبر صممه وبناه عبرانيون[٢٢] .

وفي قصة « ما جرى لأرض الوادي » (**١٩٧٠**) يترجم الغيطاني التفريط في استقلال البلاد الاقتصادي والسياسي الى بيع فعلي لأرض مصر ، يباع نيلها وأرضها وهواؤها حتى يصبح سكان البلاد « سكاناً أصليين » يتجمعون في فدان واحد هو كل ما تبقى لهم من الأرض ومن هذا الفدان المسمى « بأرض مصر المحروسة » تبدأ المقاومة [٢٣] .

أما الصورة المعادلة للواقع الراهن في قصة « العرق في البر » المكتوبة في نوفمبر **١٩٧٧** فتتخذ شكل طفح مياه المجاري بما يهدد كيان المدينة . تكثر احداث الغرق في البر وتحاصر البيوت ببحيرات المياه الراكدة العطنة .

« في تلك الليلة جاءت الاخبار . . . بغرق الحديقة الوحيدة المتبقية في العاصمة اختفت الحشائش والزهور ، والمقاعد الحجرية ، والطرقات الضيقة المرصوفة بالزلط الملون ، كما تشققت مباني المصالح الحكومية ، وظهر شرخ يتسع لمرور لرجل البالغ في واجهة مبنى السنترال الفرعي ، ومن فناء ادارة حفظ الوثائق القديمة .

أما تراث الشعب وثقافته فسوف تفرز وتغربل لتسويد أكثر مظاهرها سلبية وطمس ملامحها الأكثر اشراقاً . وسوف تشجع الروح الأبوية المناقضة لروح التمرد والثورة ويشاع مناخ معاد للعقل والعقلانية وتصدر الخرافة ، ويطمس ذلك الخيط الرفيع الفاصل بين الوطنية والاقليمية الضيقة ، ويشكك في المسلمات والمنجزات الوطنية . وسوف يقال مرة وألف مرة ان الاستعمار فعل ماض وان الصراع من سمات مرحلة تعديناها واننا الآن في عصر وئام الاسرة الواحدة ، عصر السلام .

إن الثقافة الوطنية مجموع القيم والأفكار والعادات والابداعات التي انتجها الشعب عبر مسيرته هي ثمرة لتاريخه تعكس واقعه المادي والفكري بقدر ما تلعب دوراً هاماً في تحديد مسيرة هذا التاريخ وليست هذه الثقافة جامدة أو أبدية الملامح بل لها من صفات الجسد الحي القدرة على التغير والتطور والنمو .

ان الثقافة الوطنية هي هوية الشعب المكتسبة عبر تاريخه . ولما كان الاستعمار نفياً للمسار التاريخي للشعب بتعطيل قواه الانتاجية فان هناك تناقضاً بين الوجود الاستعماري في بلد من البلدان وازدهار ثقافته الوطنية ويوضح اميلكار كابرال قبل استشهاده شيئاً من ابعاد هذه العلاقة بقوله « ان ممارسة السيطرة الامبريالية وكل سيطرة اجنبية تفرض كعامل استقرار (لها) الاضطهاد الثقافي ومحاولة التصفية المباشرة وغير المباشرة للمعطيات الاساسية لثقافة الشعب المستعمَر »[٢٤] . ويعلمنا تاريخ الغزوات الاستعمارية في افريقيا و « العامل الجديد » كيف كان تحطيم الهياكل الثقافية الفاعلة خطوة مواكبة ومساعدة لعملية الغزو العسكري . ويؤكد فانون في بحثه عن « العنصرية والثقافة » ان الغازي بعد تدمير الأنماط الاجتماعية للسكان الاصليين يعرض عليهم مجموعة جديدة من القيم ويفرضها قسراً « بقوة المدافع والسيوف » وحين يشاهد أهل البلاد سقوط ثقافتهم يشعرون بالذنب والدونية ويحاولون الهرب بانتمائهم غير المشروط الى النماذج الثقافية الجديدة بادانة انماطهم الثقافية الاصلية[٢٥] . ان عملية اشعار الجماهير بالدونية هي المقدمة الأولى لاستعباد ثقافي يتمثل في نظرتها إلى نقيضها باعجاب قد يصل إلى حد التوحد ويوضح فانون كيف أن هذه العملية تمر عبر تحطيم التكامل النفسي والعملي لابناء المستعمرات . ويضرب مثلاً بعلاقة اطفال بلاده من السود والهنود بصورتهم في مجلات الاطفال والافلام السينمائية حيث يقدم الاسود أو الهندي دائماً كنموذج للشر والتوحش .

وبما أن المشاهد يتوحد دائماً بالمنتصر فان الزنجي الصغير وبنفس السهولة التي يتقمص بها الطفل الأبيض هذا الدور يصبح كاشفاً ومغامراً ومبشراً يواجه مخاطر ان يأكله الزنوج الاشرار »[٢٦] . وكهؤلاء الاطفال تماماً نجد « الطلائع » العائدين من اسرائيل يتحدثون عن تقدم اسرائيل وحفاوتها بهم وكرمها معهم . لقد اكتملت من حولهم دائرة الاستعباد الثقافي وصاروا يتطلعون إلى عدوهم كجوهر للخير والرقي .

ومع ذلك فلسنا في القرن الثامن عشر أو التاسع عشر حيث التناقض بين غزاة وسكان أصليين وليس كل من يتوحد بالغزاة فاقداً لتكامله العقلي من جراء عملية غسل مخ فمن غسل لتوفيق الحكيم مخه ؟ ان بنية التبعية القائمة في مصر اليوم تفرز شرائح طبقية صاحبة مصلحة في الارتباط بالغزاة والحفاظ على وجودهم . وكما قال محمود أمين العالم :

« إن المحنة الثقافية التي نشهدها اليوم في مصر ليست مجرد غزوة صهيونية ثقافية وافدة من الخارج فحسب بل هي بنية ثقافية ، ايديولوجية داخلية افرزتها وتفرزها الهياكل السياسية في مصر اليوم ، تكريساً واعادة انتاج لهذه الهياكل نفسها . وهذه البنية الثقافية والايديولوجية المهيمنة هي التي تمهد السبيل لاستقبال الثقافة الامبريالية والصهيونية بل واستنباتها »[٢٧]

الهجوم قائم ، والغزاة والطغاة حليفان في المعركة والهدف من الغزو ليس تدمير الثقافة الوطنية بل الوجود الوطني ذاته . إن الثقافة الوطنية مستهدفة بالقدر الذي تشكل فيه درعاً للوجود الوطني وحائلاً دون تدميره ولأن الثقافة الوطنية بها مواطن قوة ومواطن ضعف ، عوامل جمود وتراجع فان الطغاة والغزاة لا يعدمون استغلال بعض ملامحها . وكما ان قوى الثورة تقوم بتحليل انتقائي للقيم الثقافية الصالحة للنضال فان قوى الثورة المضادة سوف تقوم هي أيضاً بعملية انتقائية للقيم الثقافية الصالحة لاعاقة المسيرة التاريخية وخلق مناخ ثقافي يجعل استتباب وجودها ممكناً .

ثم نصل إلى الابعاد الحقيقية لسياسة تطبيع العلاقات بين مصر واسرائيل ان المقصود بالتطبيع هو جعل كل مرفوضات الشارع الوطني في مصر أموراً مقبولة ولا يقتصر الأمر على النظر إلى العلم الاسرائيلي المرفرف فوق مبنى بشارع محيى الدين أبو

العز بالقاهرة كشيء عادي بل يتجاوزه ليشمل كل مظاهر الهيمنة الصهيونية والامبريالية التي دفع شعب مصر عشرات الآلاف من الشهداء على مدى تاريخه الحديث لدرئها عنه . وفي سياق التطبيع يصبح الحديث عن السلام عادياً في الوقت الذي تقصف فيه الطائرات الاسرائيلية الشعبين الفلسطيني واللبناني وتمر المناورات العسكرية الأمريكية على أرض مصر بدون مظاهرات احتجاج . ولن يبدو صادماً ان يعلن الرئيس مبارك انه اذا حاربت سوريا اسرائيل فلا علاقة لمصر بالأمر ويبدو امتناع مصر عن التصويت في الامم المتحدة بادانة اسرائيل على ضم الجولان أمراً « طبيعياً » وهكذا يكون معنى التطبيع شطب حقب كاملة من نضال مصر الوطني واسقاط الهوية الثقافية المكتسبة عبر هذا النضال أو كما قالها عبد الرحمن الابنودي في قصيدة « بوابات العالم الثالث » :

من نضال مصر الوطني واسقاط الهوية الثقافية المكتسبة عبر هذا النضال أو كما قالها عبد الرحمن الابنودي في قصيدة « بوابات العالم الثالث » :

يا مـوج قيامتـك قامـت
طيرة غريبـة حامـت
وقلبت المـوازيـن
العار بقـي فيه نظـر
وفكـرة الأوطـان . . .
لازم نأخذهـا بحـذر
الزيـن أصبـح شيـن
والشيـن أصبح زيـن
يا ليـل واخذنـي لفيـن ؟؟[٢٨] .

والمشروع الاسرائيلي للتطبيع ، تماماً كالمشروع الاسرائيلي « للسلام » مطروح على كافة الدول العربية . والهدف ليس مجرد نزع العداء تجاه اسرائيل بتغيير اتجاهات الرأي العام العربي والذي يمر بالضرورة عبر الانسلاخ عن السياق النضالي والثقافي لمعسكر التحرر الوطني فاسرائيل تريد مجالاً حيوياً لمشروع تفوقها العنصري وهيمنتها السياسية والاقتصادية .

وما العمل ؟

سلاح الغزاة والطغاة تزييف الوعي وسلاحنا كشف الحقائق . القمع وسيلتهم والديمقراطية سبيلنا . ان الديمقراطية كمفهوم وممارسة ترتبط بطموح الجماهير الشعبية في التحرر الوطني والتقدم الاجتماعي وهي الوسيلة التي لا بديل عنها لصد العدوان (الخارجي / الداخلي) والاسراع بالعملية التاريخية ، ان النضال من اجل الغاء القوانين المقيدة للحريات ، قانون حماية الوطن والمواطن (١٩٧٧) قانون حماية الجبهة الداخلية والسلام الاجتماعي (١٩٧٨) قانون حماية القيم من العيب (١٩٨٠) . . . الخ - هذا النضال يكتسب الأولوية . وكذلك فان المطالبة بحق الجماهير في حرية التعبير والتنظيم أصبح من اكثر الأمور الحاحاً . وربما ساعد في انتزاع هذا الحق التوسع في انشاء لجان للدفاع عن الديمقراطية وحقوق الانسان ، ولجان للدفاع عن الوطن وثقافته النضالية ، وربما حتى لجان للدفاع عن اللغة وحمايتها مما تتعرض له من امتهان يومي باستخدام مفرداتها مفرغة من دلالاتها الحقيقية .

الهجمة تترية . . . والخراب محيق . . . وليس من سبيل للمواجهة إلا بالعمل الديمقراطي .

الهوامش

(١) اتفاقية السلام : **النصوص الكاملة للاتفاقية وملحقاتها ، ملحق الاهرام** الاقتصادي (١٠ ابريل ١٩٧٩) .
(٢) هند أبو شرار « تطبيع العلاقات بين مصر واسرائيل في المجالات الثقافية والاقتصادية- شؤون فلسطينية ١١٦(يوليو ١٩٨١) ، ص ١٤٤ - ١٤٥ .
(٣) محمد حسن ، **مصر في المشروع الاسرائيلي للسلام** ، دار الكلمة ، بيروت ١٩٨ ، ص ١٠٨ - ١٧٢ .
(٤) هند أبو شرار ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٤٦ .
(٥) المصدر السابق ، ص ١٤٤ .
(٦) لجنة الدفاع عن الثقافة القومية ، **لا للصهيونية** . حزب التجمع الوطني القومي الوحدوي ، د . ت ، ص ٦ .
(٧) محمد حسن ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٧٨ .
(٨) **المواجهة** ١ (يولية ١٩٨١) ص ١٨ .
(٩) مذكور في « عروبة مصر حقيقة موضوعية » سميح القاسم ، **اليسار العربي** ، ١ ديسمبر (١٤ ديسمبر ١٩٧٩) .
(١٠) « الغزو السينمائي » ، **المواجهة** ، ١ ، ص ١٣ و ١٥ .
(١١) « ورقة الجبهة الوطنية المصرية إلى المؤتمر الاستثنائي لوزراء الثقافة العرب لمجابهة الغزو الثقافي الصهيوني « **اليسار العربي** » ، ٢١أغسطس ١٩٨٠) ص ٢٩ - ٣٠ .
(١٢) محمد حسن ، مصدر سبق ذكره ص ١٧٨ .
(١٣) مذكور في « تطبيع العلاقات بين مصر واسرائيل » مصدر سبق ذكره ، ص ١٤٦ .
(١٤) « مناهج التعليم تواكب عصر السلام » : (مصر والمعتدون) تتحول إلى (ذكريات عن مصر) ، **المواجهة** ١ ص ١٢ - ١٣ .
(١٥) مذكور في : « عامان في مواجهة التطبيع والغزو » المصدر السابق ، ص ١٧ .
(١٦) « نداء دفاعاً عن الثقافة القومية » **حوار آخر مع الحكيم حول العرب والصهيونية** ، حزب التجمع التقدمي والوحدوي ، د . ت .
(١٧) المرجع السابق ، ص ١ .
(١٨) **لا للصهيونية** ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢ ، ٤ ، ٥ ، ٧ .
(١٩) **التقدم** (نشرة غير دورية يصدرها حزب التجمع) ٧٣ (١ فبراير ١٩٨١) ص ١ - ٥ .
(٢٠) المواجهة ٢ (٢٨ يناير ١٩٨٢) .
(٢١) صنع الله ابراهيم ، اللجنة ، دار الكلمة ، بيروت ، ١٩٨١ .

(٢٢) جمال الغيطاني ، **ذكر ما جرى** ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ١٩٧٨ .

(٢٣) المصدر السابق .

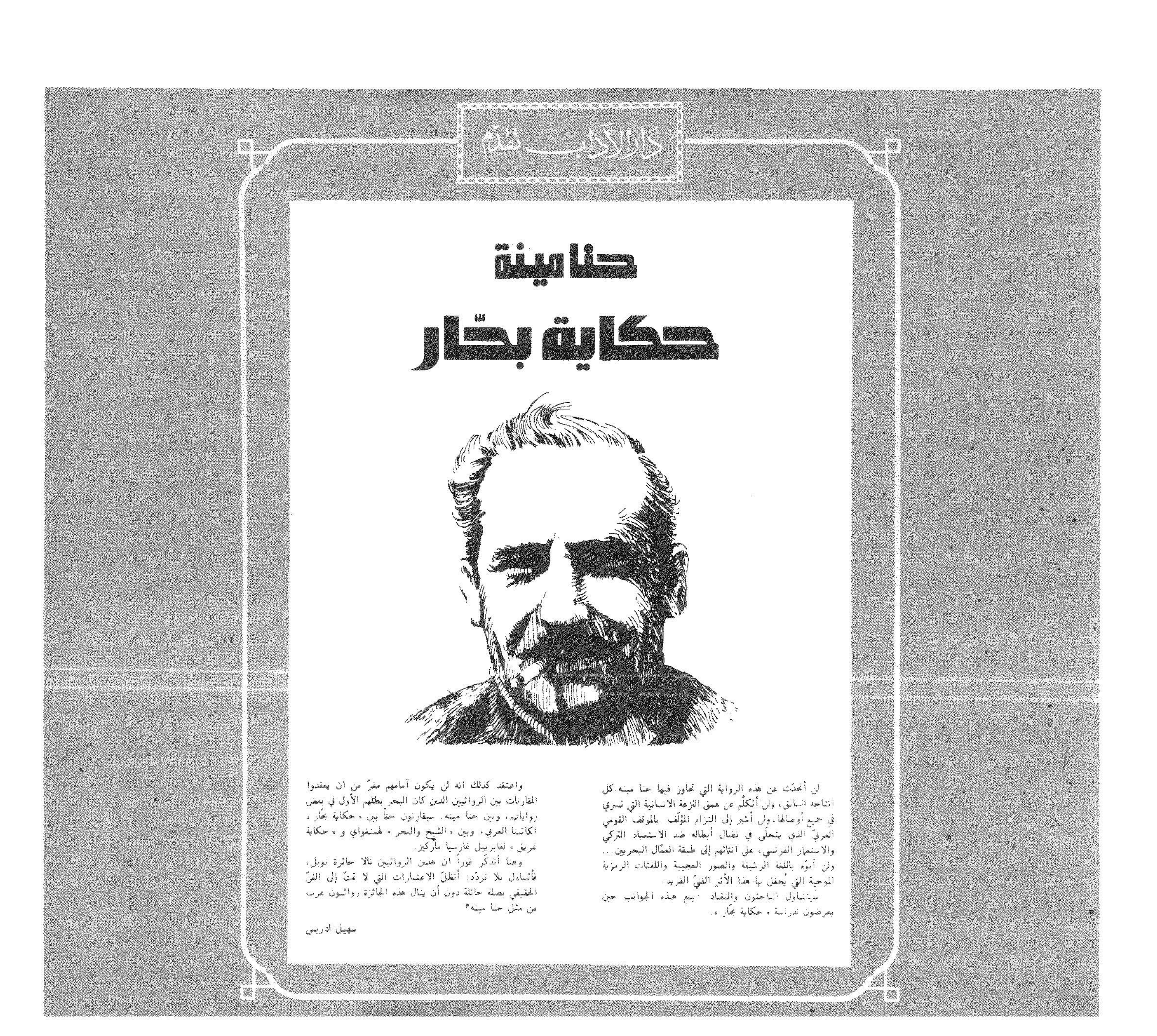
(٢٤) اميلكار كابرال ، « التحرر الوطني والثقافة » ، ترجمة منصور أبو القاسم **فلسطين الثورة** (يناير ١٩٧٦) .

(٢٥) فرانز فانون « العنصرية والثقافة » بحث مقدم إلى المؤتمر الأول للكتاب والفنانين الزنوج الذي انعقد في باريس عام ١٩٥٦ . والبحث منشور ضمن أبحاث المؤتمر في عدد خاص من **بريز يونس افريكان** .

(٢٦) فرانز فانون ، **بشرة سوداء أقنعة بيضاء** ، باريس ، ١٩٥٢ ، (غير مترجم إلى العربية) .

(٢٧) من كلمة محمود أمين العالم في المؤتمر الاستثنائي لوزراء الثقافة العرب ، **اليسار العربي** ، ٢١ (اغسطس ١٩٨٠) ، ص ٢٨ .

(٢٨) عبد الرحمن الابنودي ، **المشروع والممنوع** ، دار الأدب والثقافة ، بيروت ١٩٧٨



وثيقة إدانة ورفض تطبيع العلاقات الثقافية مع الكيان الصهيوني

فريدة نقاش

يعلن المشاركون في ندوة مواجهة الغزو الثقافي الامبريالي الصهيوني للوطن العربي ، الذين ينتمون لمختلف أقطار الوطن ، ويمثلون كافة التيارات الفكرية ، والأجيال الثقافية ، ومن بينهم مثقفون مصريون وطنيون ، ادانتهم ورفضهم « لتطبيع » العلاقات بين مصر والكيان الصهيوني .. كما يشجبون أي سياسة عربية ترمي للصلح مع العدو .

وهم يسجلون ، بعد مناقشة الموضوع والحوار حوله ، قناعتهم المشتركة بما يلي :

أولاً : إن استخدام مصطلح « التطبيع الثقافي » هو استخدام لمصطلح يحمل وجهة نظر مغلوطة يسعى العدو من خلالها ، للايحاء بأن عدم التعامل معه أمر غير طبيعي ، في حين أنه هو ذاته لا يسعى لعلاقات طبيعية على أي مستوى من المستويات ، انطلاقاً من نظرية التفوق الصهيوني المزعومة ، التي تتحرك من منطلقات عنصرية عدوانية ، وتسعى لتطويع العقل العربي ، والسيطرة عليه ونقله إلى حالة من التبعية للامبريالية الدولية التي تشكل الدولة الصهيونية ، بثقافتها ووجودها رأس رمحها في المنطقة .

ثانياً : إن سكوت المدافع على جبهات القتال العربية مع العدو الصهيوني - وفي مقدمتها الجبهة المصرية - جعلت العدو يصعّد نيران مدافعه على جبهة الفكر والثقافة والوعي ، بهدف اقتلاع الجذور الحقيقية للمقاومة ، وهو ما يتطلب من المثقفين العرب المعادين للامبريالية والصهيونية ، على اختلاف مدارسهم ، تشديد الصراع ضد العدو على هذه الجبهة ، وتخليق أدوات المقاومة الفعالة ، ضد كل أشكال تسلل الثقافة العنصرية الصهيونية .

ثالثاً : إن الشكل الذي يمارس به العدو قتاله الآن ، على جبهة الثقافة والوعي ، يتم من خلال وسائط ، كانت لها ، وما زالت ، مرتكزات قوية في مختلف أقطار الوطن العربي ، تستخدم كغطاء لتنفيذ المخطط المشترك ، للامبريالية والصهيونية ، ومن هنا ، فان مواجهة العدو على صعيد الوعي ، تتطلب مواجهة تلك الوسائط ، محلية كانت أو دولية ، وبصفة خاصة النشاط الثقافي الأمريكي والأوروبي الذي يعتبر أقوى هذه الوسائط وأهمها .

رابعاً : إن الادانة الحقيقية لمحاولة العدو تطويع العقل العربي لمخططاته ، تتجاوز موقف الرفض ، وتسعى لتخليق مفردات ثقافة عربية قومية تقدمية ، معادية للاستعمار والتخلف والتبعية ، قادرة على الصمود أمام الحرب الضارية التي يشنها العدو على هذه الجبهة ، بمنهجها العلمي ، ورؤيتها المستنيرة ، وتفاعلها - من موقع التميّز والاستقلال والتواصل - مع كل ما هو انساني في التراث العالمي .

خامساً : إن ذلك يلقي على المثقفين العرب ، مهمة الاعتماد على الذات ، باعتبارهم طلائع الشعب العربي ، التي أخذت الفرصة للتعلم والتثقف على حساب ملايين من أبناء الشعب ، ظلوا أسرى للجهل والتخلف وموضوعاً للقهر والتسلط ، ولما كان هذا الشعب هو هدف العدو الرئيسي ، فينبغي أن يسعى المثقفون العرب ، لتعليمه والتعلم منه ، وأن يجمعوا بين النشاط الفكري ، والنضال العملي ، وبين استلهام الشعب ، وإلهامه ، ذلك أن إحتشاد جماعة المثقفين العرب ، حول الدوائر

الحاكمة في أقطار الوطن العربي ، يعزلهم عن المحيط الحقيقي والتاريخي للدفاع عن الأمة ، ويستدرجهم إلى حيث تقل فاعليتهم . إن المسؤولية القومية تفرض عليم الآن مواجهة سياسة تعريب وتعميم سياسة معسكر داوود وفرض الصلح والاعتراف على جميع العرب .

سادساً : إن تخليق أدوات المقاومة ، يتطلب مناخاً ديمقراطياً ، يتيح حريات البحث العلمي والابداع الفني والأدبي ، ويصون حرية الضمير والمعتقد وحق التجمع والتنظيم المستقل للمواطنين العرب عموماً ، وللمثقفين منهم على وجه الخصوص ، وإذ نلاحظ أن إهدار هذه الحريات جميعها ، أصبح قاسماً مشتركاً في معظم أنحاء الوطن العربي ، وان السجون العربية تزدحم بأعداد متزايدة من المثقفين والكتّاب والأدباء المعادين للامبريالية و الصهيونية، نرى أن هذا القهر العربي ، ذو مردود سلبي بشكل مطلق ، بل هو مساعدة غير مباشرة للعدو في الحرب التي يشنها على جبهة الثقافة والوعي . لذلك ندعو المثقفين للنضال حتى ترفع الحكومات العربية ، يدها عن مواطنيها ، وعن مثقفي الأمة ، وأن تكف عصا قوانينها غير الديمقراطية ، وأعرافها غير المتحضرة عنا ، اذا كانت تريد حقاً أن تحارب المحاولة الصهيونية لتطويع العقل العربي لأهداف الامبريالية .

سابعاً : إن المخطط الامبريالي الصهيوني ، على جبهة الثقافة والوعي ، رغم ضراوته وقوته ، ليس عصيّاً على الهزيمة ، وفي أشكال المقاومة الباسلة لمواطنينا في الأرض العربية الفلسطينية المحتلة ، والمثقفون منهم على وجه الخصوص ، دليل على ذلك ، كما أن الدور الباهر الذي لعبه المثقفون الوطنيون في مصر ، بمختلف مدارسهم واتجاهاتهم ، في مقاومة محاولة عزل العرب المصريين ، عن غيرهم من العرب ، ومقاومة كل أشكال التعامل مع العدو على الجبهة الثقافية ، جعل العدو يشكو من عرقلة ما يسميه عملية « التطبيع » .

ثامناً : يتعينّ على حركة الثقافة العربية القومية التقدمية بمختلف مؤسساتها وأشكالها الرسمية والشعبية أن تدعم القوى والطاقات والمؤسسات العربية التقدمية المصرية ، بكافة الوسائل والاساليب ، في مجالات النشر والطبع والندوات وصيغ التعاون الثقافي الأخرى .

وكذلك دعم الثقافة العربية في الأرض المحتلة ممثلة في الهيئات الفلسطينية الثقافية وفي طليعتها الجامعات واتحاد الكتّاب ورابطة الصحفيين والمؤسسات الاعلامية الوطنية .

تاسعاً : إن تحقيق المهام السابقة ، يتطلب تنظيم جهود المثقفين العرب المعادين للصهيونية والامبريالية ، ومرتكزاتها المحلية في مجال الثقافة ، وخلق الأطر الضرورية لتنظيم العمل الجمعي للمثقفين العرب ، في هذا المجال الهام ، على المستوى القطري ، ثم على المستوى القومي ، وذلك بانشاء لجان قطرية للدفاع عن الثقافة القومية ، كمنظمات ديمقراطية شعبية ، مستقلة عن أي نظام عربي . ويدعو المؤتمر المثقفين في كافة الاقطار العربية ، للبدء فوراً في انشاء تلك اللجان . لتكون جزءاً من العمل القومي التقدمي الذي ساهم به مؤتمر مواجهة الغزو الثقافي الامبريالي الصهيوني للأمة العربية .

بيان « يوم الأرض »

إن الكتّاب والمفكرين والمثقفين العرب المجتمعين في تونس في المؤتمر المكرس لدراسة مواجهة الغزو الثقافي الامبريالي الصهيوني للأمة العربية في الفترة من ٢٩ مارس / آذار الى ٣ نيسان / ابريل ١٩٨٢ بمناسبة الذكرى السادسة ليوم الأرض يتوجهون بالتحية والتقدير لجماهير الشعب الفلسطيني في كل انحاء الأرض الفلسطينية المحتلة الذين يواجهون هذه الأيام بأيديهم وحجارتهم وصدورهم العزلاء دبابات المحتلين الصهاينة وبنادقهم وكل آليات الفتك والدمار ، ويؤكدون بانتفاضتهم المتواصلة إيمانهم بقدرة الشعوب العزلاء على مواجهة المؤامرات ومقاومة الظلم والعدوان . في الذكرى السادسة ليوم الأرض نحيي أبطال فلسطين الصامدين المناضلين الذين يؤكدون بنضالهم رفضهم القاطع لاستمرار نهب الأرض الفلسطينية واصرارهم على أن تظل هذه الأرض عربية مهما كان الثمن وغلت التضحيات .

وحين أعلنت لجنة الدفاع عن الأراضي العربية في فلسطين المحتلة الثلاثين من آذار / مارس ١٩٧٦ يوماً للأرض فانما أرادت أن تؤكد بذلك للأمة العربية وللعالم قاطبة أن معركتها مع الصهيونية هي معركة من اجل الأرض والانسان . وان الأرض الفلسطينية التي جرى احتلالها عام ١٩٤٨ هي أرض

عربية وستبقى عربية ، وبذلك كان يوم الأرض وسيظل تعبيراً ناصعاً عن هذه الحقيقة الخالدة ، من اجل تحرير كامل التراب الفلسطيني المحتل .

وها هي ذكرى يوم الأرض تمر هذا العام وجماهير الشعب الفلسطيني في الوطن المحتل تؤجج نضالها ضد المحتلين وتروي الأرض بدماء شهدائها الذين سقطوا ويسقطون كل يوم دفاعاً عن عروبة الأرض وايذاناً للأمة العربية بأن تستيقظ لمواجهة الامبريالية الامريكية وربيبتها اسرائيل وتسفيهاً لكل الأوهام التي تنسج حول مشاريع السلام المشبوهة .

إننا في هذه الذكرى المجيدة نحيي الصامدين في الأرض المحتلة المناضلين من اجل عروبتها ونؤكد باسم كل جماهير الأمة العربية أن يوم الأرض في فلسطين يجب أن يكون يوماً لكل الأرض العربية تقف فيه جماهير هذه الأمة من اجل تحرير الأرض المحتلة واقامة الدولة الفلسطينية بقيادة منظمة التحرير الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني .

إن الكتّاب والمثقفين والمفكرين المجتمعين في تونس يهيبون بكل عربي وبكل أحرار العالم للوقوف إلى جانب الشعب الفلسطيني المناضل من اجل حرية وطنه وحقه في الحياة وتقرير المصير .

لقد أصبح تأييد هذا النضال علامة من علامات الشرف الفكري ومعياراً للامانة والقيم الحرة النبيلة لا في الوطن العربي فحسب وانما في العالم بأسره .

إن الكتاب والمفكرين والمثقفين العرب اذ يعلنون تأييدهم للموقف الشجاع للشعب العربي الفلسطيني ويتلاحمون معه في معركة الأمة العربية ضد الامبريالية والصهيونية والرجعية ليؤكدون أن قضايا التحرير وتحقيق الوحدة العربية والتقدم مرتبطة جدلياً بمعركة فلسطين ، إن تحرير فلسطين هو تحرير للمستقبل العربي كله .

إننا نهيب بجماهير الأمة العربية أن تلتحم بثورة الشعب الفلسطيني في طريق الكفاح المسلح وأن تسارع إلى تقديم كل أشكال الدعم والتأييد ونؤكد هنا على ما يلي :

١ ـ ضرورة التطوع للتضامن مع الشعب الفلسطيني لتأكيد قومية المعركة .
٢ ـ ضرورة التبرع بالمال لمساعدة النضال الفلسطيني والعربي عموماً وطرح فكرة صندوق النضال الشعبي القومي المقترح من مؤتمر الشعب العربي إلى حيز الوجود .

فالى مواجهة العدو بالوعي والوحدة والكفاح المسلح والنصر لشعب فلسطين والأمة العربية .

وثيقة تضامن مع الكتاب الوطنيين في مصر

باسم الكتاب والمفكرين العرب المجتمعين في تونس لمناقشة أشكال الغزو الثقافي الامبريالي الصهيوني للوطن العربي ، وسبل مقاومته ، نرسل الى كتّاب مصر ومفكريها وفنانيها ومثقفيهاطليعة الشعب العربي في مصر ، تحية على صمودهم ونضالهم ضد سياسة التبعية للامبريالية والصهيونية وما يكرسها من أشكال ثقافية ، تلك السياسة التي تستهدف الأمة العربية بكل أقطارها ، ويشكل نضالهم ضدها ، طليعة نضال المثقفين العرب ، ضد الامبريالية والصهيونية .

إن كتاب مصر وفنانيها الوطنيين والديمقراطيين ، اذ يتصدون لسياسة تطبيع العلاقات بين مصر والكيان الصهيوني ، وكافة أشكال الغزو الثقافي الامبريالي الصهيوني ، انما يضطلعون بدورهم التاريخي الذي طالما اضطلع به شعب مصر العربي . والمؤتمر ، إذ يحيي نضال الجماهير العربيةفي مصر وفي طليعتها الكتّاب والفنانون الوطنيون ، فانه يدين السياسات القمعية ضد المثقفين المصريين ، ويعتبرها موجهة لكل المثقفين العرب ، ويدعو المنظمات الشعبية والديمقراطية العربية ، لاستنكار هذه السياسة ، والتضامن مع الكتاب والأدباء والفنانين المصريين ، المعادين لسياسة التطبيع الثقافي مع العدو الصهيوني ، والذين ما زالوا رهن السجن والاعتقال حتى الآن .

نـــداء

إن المؤتمر وقد أخذ علماً بأنه قد تم التصديق على حكم الاعدام على الابطال خالد الاسلامبولي ورفاقه الذين نفذوا ارادة الشعب العربي في مصر والأمة العربية كلها ، يحذر السلطة المصرية من مغبة تنفيذه ، ويناشد كافة المنظمات الشعبية العربية والدولية ، خاصة المهتمة منها بقضايا الحريات الديمقراطية مساندة موقف المنظمات الوطنية في مصر ، ومشاركتها بالتدخل معها لدى السلطة المصرية لعدم تنفيذ هذا الحكم ، الذي صدر عن محكمة غير قانونية ، باجراءات أهدرت أبسط ضمانات الدفاع ، ومن بين ما أهدرته الدفاع النبيل الذي جعل خالد الاسلامبولي ورفاقه يقومون بعملهم الشجاع امتثالاً لضمير الجماهير العربية واستمراراً لتاريخها النضالي العريق في مقاومة الخيانة .

« برنامـج العمـل »

إن المفكرين والمثقفين والكتّاب العرب المشاركين في مؤتمر مواجهة الغزو الثقافي الامبريالي الصهيوني للأمة العربية ، إذ يختتمون مؤتمرهم الأول يؤكدون أن اقتران الفكر بالعمل لا يمكن إلا أن يكون نضالاً قومياً شعبياً في التصدي لمعركة التحدي الحضاري .

إن مواجهة الغزو الثقافي متعددة الجبهات ، ولا سبيل للنجاح فيها إلا بحشد الطاقات العربية الشعبية والرسمية والتنسيق بينها والعمل على توظيفها بما يخدم الهدف رغم العقبات السياسية السائدة في الوطن العربي .

إن أمتنا العربية تواجه معركة ضارية يتحدد فيها مصيرنا لآماد بعيدة ، ولذلك فان الجماهير العربية من خلال منظماتها الشعبية القومية التقدمية يعنيها رغم الظروف الصعبة أن تواجه الموقف بروية استراتيجية وخطة عمل تحدد الأهداف والوسائل والاساليب .

وحتى يمكن تنفيذ مقررات هذا المؤتمر والعمل على تطوير هذا الجهد المكري والثقافي القومي ، فان المؤتمر يقرر ما يلي برنامجاً للعمل :

أولاً : في استمرارية العمل ومتابعته

١) يقرر المؤتمر استمرار العمل القومي الثقافي الذي كرسه تعاون الشعبة الثقافية بالامانة الدائمة لمؤتمر الشعب العربي مع المفكرين والمثقفين العرب والمنظمات والهيئات الثقافية العربية ، وذلك عبر تأسيس « المجلس القومي للفكر والثقافة العربية » .

٢) على صعيد كل قطر عربي يتم انشاء لجنة وطنية مسؤولة مع المجلس القومي للفكر والثقافة العربية عن تنفيذ مقررات هذا المؤتمر ، وذلك بالتنسيق والتكامل بين الهيئات الثقافية في كل قطر .

٣) يتولى المجلس المذكور وضع خطة عمل من شأنها ادارة حوارات عربية دولية على الصعيد الفكري والثقافي ، وخاصة مع شعوب العالم الثالث وفي مقدمتها الشعوب الاسلامية ، وكذلك أوروبا وبقية انحاء العالم ، ومتابعة وحضور النشاطات الثقافية الدولية المعنية بالشؤون العربية .

٤) تنظيم وتنسيق التعاون مع المنظمات المتخصصة على الصعيدين الشعبي والرسمي .

٥) يناط بالأمانة الدائمة لمؤتمر الشعب العربي واللجنة التحضيرية لهذا المؤتمر اقامة الشكل التنظيمي لهذا العمل .

ثانياً : في نشر وتوزيع أعمال المؤتمر

١) يتم على وجه السرعة الاعلام عن هذا المؤتمر القومي الهام ونتائجه .

٢) يتم نشر البحوث والمناقشات في مجلد أو أكثر اذا اقتضى الأمر .

٣) العمل على توصيل أعمال المؤتمر ونتائجه إلى الجامعات العربية والمعاهد العليا ومراكز البحوث ومختلف الهيئات الثقافية والاعلامية الشعبية والرسمية المعنية .

٤) يتحمل المشاركون في المؤتمر مسؤوليتهم بالعمل كل حسب تخصصه وطاقته وموقعه ، على تنفيذ هذه المقررات وغيرها مما اشتملته الوثائق الأخرى .

ثالثاً : في ضرورة النضال على مختلف الأصعدة من اجل القيام بثورة ثقافية وما تستهدفه من تحولات حضارية

١) من خلال الادارة الثقافية القومية التي شكلها هذا المؤتمر يتم العمل مع المنظمات والهيئات الثقافية العربية المعنية للقيام بالجهود العلمية المطلوبة لتأصيل الثقافة العربية وتثوير محتواها .

٢) تنظيم الندوات والملتقيات الفكرية والثقافية والفنية على الصعيدين العربي والدولي لابراز الثقافة العربية والدفاع عنها .

٣) العمل على امتلاك الأدوات الثقافية والاعلامية اللازمة للنشر والاذاعة لايصال الأفكار المطروحة إلى الجماهير العربية صاحبة المصلحة والمعول عليها في احداث الثورة الثقافية .

إن هذا البرنامج يعتني بالعمل الثقافي النضالي اليومي وسط الجماهير ، حتى يصبح برنامجها من اجل التغيير . .

البيــان الختامي

بدعوة من الامانة الدائمة لمؤتمر الشعب العربي عقد في تونس في المدة من ٢٩ مارس ٨٢ إلى ٣ ابريل ٨٢ مؤتمر مواجهة الغزو الثقافي الامبريالي الصهيوني للأمة العربية كثمرة للتفاعل والتعاون بين المفكرين والمثقفين والهيئات الثقافية في الوطن العربي . وقد حضر هذا المؤتمر (١٥٠) شخصية و

(١٦) هيئة ثقافية من جميع انحاء الوطن العربي .

وقد بحث هذا المؤتمر في جدول أعماله خمسة محاور :

١) الخصائص القومية للشخصية العربية .
٢) الغزو الثقافي الامبريالي الصهيوني والاستلاب الفكري في الوطن العربي .
٣) الجذور التاريخية للغزو الثقافي .
٤) الغزو الثقافي الصهيوني للأمة العربية في الوقت الحاضر .
٥) مواجهة الغزو الثقافي في الوطن العربي .

وقد أُلقي خلاله (٤٨) بحثاً تناولت الموضوع في اطار تشخيص هذه الظاهرة واقتراح الحلول .

وقد افتتح مؤتمر الغزو الثقافي الأخ وزير الشؤون الثقافية في تونس مؤكداً على دور تونس وتفاعلها مع قضايا أمتها العربية وبعد ستة أيام من الحوار والنقاش وتفاعل الآراء على اختلافها في مناخ ديموقراطي حر وبحضور ومشاركة الجماهير العربية في تونس وخاصة الأجيال الجديدة من الشباب التي شدها هذا الحدث القومي الهام فتفاعلت معه واضفت على المؤتمر روحاً تشع بحرارة الايمان وتبعث الثقة والتفاؤ ل على الرغم من مرارة وخطورة الأوضاع .

هذا وقد كرس المؤتمر جلسة خاصة يوم ٣٠ مارس بمناسبة يوم الأرض وذلك لتحية نضال الشعب العربي الفلسطيني وتلاحماً معه في معركة الأمة العربية الشاملة الحاسمة ضد الامبريالية والصهيونية والرجعية .

وقد أكد هذا المؤتمر بجدارة ان مشكلتنا المزدوجة تتمثل في وجود هجوم كاسح على مختلف الجهات وعدم قدرة الأطر والأنظمة الرسمية على مواجهته ، وبالتالي فان المواجهة الحاسمة والجدية هي مواجهة الجماهير ومنظماتها الثقافية والنقابية ؛ والسياسية لأنها المستهدفة والمعنية بحاضر الصراع ومستقبله .

وقد أكد المؤتمر على أهمية تأكيد الشخصية الذاتية القومية للأمة العربية ذات الأهداف الحضارية المحددة ، والعلاقات الانسانية والدولية المحددة أيضاً والتي تنطلق من الاحترام والتكافؤ وعلاقات وصراع الانداد .

هذا وقد صدرت عن المؤتمر الوثائق التالية :

١) اعلان تونس لمقاومة الغزو الثقافي الامبريالي الصهيوني للأمة العربية .
٢) بيان تحية وتأييد وتلاحم مع نضال الشعب العربي الفلسطيني .
٣) قرار ادانة ورفض لتطبيع العلاقات مع العدو الصهيوني .
٤) وثيقة فكرية ختامية بملخص موضوع المؤتمر .
٥) برنامج العمل .
٦) البيان الختامي .
٧) عدد من البرقيات .

وقد قرر المؤتمر مواصلة أعماله والبدء في تنفيذ مقرراته وذلك بانشاء المجلس القومي للفكر والثقافة العربية حتى يمكن حشد الطاقات العربية وتوظيفها وتوجيه النداء إلى الجماهير العربية والهيئات والمؤسسات الثقافية في الوطن العربي لأن يحتضنوا هذا الوليد ويدعموه على طريق معركة الفكر والسلاح والحضارة .

وسائل الاعلام الغربية والاستلاب الثقافي

د. المنجي الكعبي

إن الغرب لا يزال بصورة عامة ، لاسباب تاريخية وحضارية مختلفة ، يناوىء الشرق العربي الاسلامي ، رغم تدخل عدة عوامل جديدة في علاقاتها القديمة من اجل تعايش سلمي وتعاون حقيقي ، فبعد فشل الأهداف الاستعمارية البعيدة المدى وبعد الصحائف البيض التي سطرتها المقاومة العربية الباسلة والجهاد الاسلامي المقدس في التاريخ الحديث لا يبدو أن الغرب اتّعظ بالقدر الكافي بالماضي ، ولا يبدو أنه حتى بصدد تغيير نمط سلوكه العدائي نحو العرب تغييراً جذرياً .

هناك بطبيعة الحال احتمال بأن الغرب يحاول في حقيقة الأمر التغيير المطلوب مدفوعاً في الوقت نفسه بحاجته إلى تأمين مستقبل حياته ، غير أنه يرى العرب مستعجلين على مقاصته مع سوء الظن به والرغبة في تركيعه ، وتتعطل بالتالي محاولاته وتبقى في انتظار آفاق أنسب .

وهناك أيضاً احتمال آخر بأن الغرب عاجز حقاً في أوضاعه الراهنة عن ربط علاقات جديدة مع العرب ، قوامها التعاون والاحترام ، لأسباب ذاتية متعلّقة به أساساً مرتبطة بنظامه السياسي والاقتصادي واستراتيجيته ونسق حضارته وسلم قيمه الخاص . وهي كلها عوامل طالما لم يطرأ عليها تغيير جذري من الداخل أو من الخارج ، يبقى الغرب محكوماً عليه بالمضي في معاملة العرب المعاملة القديمة مع فارق التسمية والصيغة .

ولا يبدو أن السياسات الرأسمالية التي تسود عامة بلاد الغرب وارادة التعهد المستمر والانعاش الدائم للمخلفات الاستعمارية حيث تركها في البلاد العربية وخاصة منها الصهيونية ، من الأمور التي طرأ عليها تغيير يذكر في اتجاه تطهّر الغرب من نزعاته القديمة تجاه العرب .

تبقى مع ذلك التصريحات الرسمية ترسم لوحات متفائلة لآفاق التعاون العربي - الأوروبي ولآفاق الحوار العربي - الأوروبي ولتمتين العلاقات الثقافية بين السوق الأوروبية المشتركة وهذا البلد العربي أو ذاك أو تقوية روابط الصداقة بين هذا أو ذاك من البلدان العربية وهذا أو ذلك من البلدان الغربية ، ولكن دون أن ترتسم على الساحة الشعبية شمال البحر الأبيض المتوسط أو جنوبه نتيجة لها بوادر ثقة متبادلة وتجاوز الماضي ، وتعاون مخلص نزيه يشكل أرضية سليمة لمستقبل أفضل بين الغرب والعرب .

لماذا ؟ لأن وسائل الاعلام حرة في الغرب ولا تعكس بالضرورة وجهة نظر حكامه الرسمية . وباعتبارها - أي وسائل الاعلام - جماهيرية بطبيعتها ، فهي غير حكومية ولا حزبية في الغالب . ولذلك فانها ادعى إلى التعامل مع الرأي العام الذي تتجه اليه من زاوية مصلحته المباشرة العاجلة في الغالب دون المخاطرة بتبني أو باحداث تغيير جوهري في سلوكه ومواقفه من الأحداث التي ينفعل بها في مستوى شعوره واعتقاده وعلاقاته بالآخرين .

ومن هنا قلة وجود الوسائل الاعلامية التي تنذر نفسها في بلاد الغرب لخدمة قضية التقارب العربي - الأوروبي ، لأن الفكرة حتى الآن غير جماهيرية اذا صح التعبير ، فهي غير مربحة إعلامياً ، أي تجارياً ، ولا تصمد لمنافسة وسائل الاعلام المعاكسة . بل ان جرائد الأحزاب السياسية نفسها في أوروبا تعاني من المنافسة الخانقة بسبب التزامها . .

إن وسائل الاعلام الغربية هي التي تتحكم في السياسة في بلادها ، وليس العكس كما هي الحال في البلاد العربية ، اذا لم

نقل كلها ، وكذلك في البلاد ذات الأنظمة التوتاليتارية وذلك راجع لأسباب حضارية وتاريخية متعددة .

وليس معنى « تتحكم » هنا افتراض قيام ضغط من جانب على الجانب الآخر بل مجرد علاقة جدلية بين وسائل الاعلام وبين الحكومات التي تخدم النظام الذي تتفاعل تلك الوسائل داخله ، أي بالنسبة للغرب النظام الرأسمالي . إذاً فهناك تنازع بين وسائل الاعلام التي تتجاوب أو تغازل جمهورها في قضايا العنصرية والتعصب والتفوق والاحتكار وبين مواقف رجال الاصلاح أو السياسة أو الفلاسفة الغربيين من اجل مراجعة سلم المفاهيم والقيم والعلاقات بينها وبين الشعوب المتحررة والحضارات الأخرى . . الا أن هذا التنازع لا يعدو كونه حافزاً لاثارة الفكر وقدح زناد المبادرة الحرة وصمام أمان ضد كل الدعوات الانقلابية .

فليس من الغريب حينئذ أن يواصل الاعلام الأوروبي ـ والغربي بصورة عامة ـ حملاته الاعلامية علينا (الشرق العربي الاسلامي) حتى بعد انقضاء عهد الاستعمار ، لأن عاطفة رد الفعل بين شعوبنا وشعوبه (الشعوب المتحاربة) لا تنتهي بسرعة السنين القليلة بل ربما تتطلب الاجيال العديدة ، فضلاً عن مرارة الهزيمة والخشية من القطيعة التي تهدد مستقبل أوروبا بأسرها وتهدد مصادرها الحيوية الباقية بالمستعمرات القديمة . ومن الطبيعي أن يزداد احساسنا بحدة الحملات الاعلامية الغربية الموجهة ضدنا بقدر تزايد ثوريتنا ووعينا بمشاكل التخلف التي تركنا المستعمر نتخبط فيها ، وبقدر تحمسنا للتخلص منها وزيادة ، أي بزيادة الايقاع به في مشاكل مماثلة ومع اقتضاء تعويضات مناسبة منه .

نقول إن وسائل الاعلام الغربية تغزونا وتستلبنا ثقافياً . ما نقوله صحيحاً قد لا يدعي الغرب عكسه ، ولكنه فقط يختلف معنا في تقديره ، لأنه بدوره لديه رسالة حضارية يستهدف نشرها بكل الوسائل ، ويسرّه باطراد قراءة تأثير ذلك بتزايد على وجوهنا وأفعالنا .

ويسعى باستمرار لإبطال مفعول الشعور العدائي الذي لا تزال تفرزه ثقافتنا التقليدية نحوه ، لأنه انما يريد باعلامه أن يصنع صديقاً لا عدواً ومن باب أولى وأحرى أن يستفرغ عدواً تقليدياً واستراتيجياً من أمشاج نقمته وحقده أو يقاومه حتى يصرعه .

إننا اذا لم يغير الغرب تغيرنا . وهذه قضيتنا الاعلامية معه . فنحن معاً في الحقيقة في غزو متبادل ولكن غير متكافىء طبعاً ، ونحن معاً كذلك في استلاب ثقافي متبادل ، ولكن هو الآخر غير متكافىء واذا شئنا بتعبير آخر نحن والغرب في صراع حضاري مرير . سيستمر بطبيعة الحال الى أن ينتهي كما ينتهي كل صراع بالغلبة لأحد الطرفين ، أو يطرأ من الظروف في المستقبل ما يعمل على حسمه بهدنة وقتية أو دائمة ، وهو الوفاق الحضاري المعروض الآن فلسفياً على الأقل

إننا تاريخياً غزونا الغرب وغير الغرب في عقر داره، ونسخنا في كثير من بلاد العالم القديم نمطها الثقافي السائد بنمطنا الثقافي الجديد . ولدينا قوة كامنة للغزو ثانية . ولم تكن وسيلتنا للغزو ، أو للفتح الثقافي ، بأقل من وسائله الاعلامية الحديثة نفوذاً ولكن قطعاً كانت أكثرها اقناعاً وحسنى وأكثر خيراً وبالخصوص أكثرها مباشرة وحرارة انسانية . وليست بحال عبر اجهزة لا تسمع ولا ترى ، وتقتحمك ببرامجها من غير استئذان وبدون حوار ، وتعالجك معالجة الحيوان القابل للتخدّر تحت تأثير عمليات معينة فتمتلك استلاباً وغصباً ، لا عن اقتناع ووعي .

لكن وسائل الاعلام القديمة لم تكن جماهيرياً بالمرة بل كانت فردية وفي احسن الأحوال جماعية محدودة . ويمكن أن نقول إنها كانت وسائل اتصال بشرية ـ بشرية وقد تجاوزنا اليوم الاعلام والدعاية بالطرق التقليدية ، وكل الأمم مدعوة لاستخدام تكنولوجيا ووسائل الاتصال الحديثة .

بيد أن مشكلتنا مع الاعلام الغربي لا تكمن فقط في مضمون رسالته الاعلامية التي تتناقض مبدئياً ومصيرياً مع أهدافنا القومية وذاتيتنا وثقافتنا المتميزة ، ولكن حتى مع احتمال تغيير مضموني فيها يبقى الخلاف بيننا في مفهوم دور وسائل الاتصال ، وفي الموقف الرسمي والشعبي منها . وليست مشكلتنا مطلقاً إزاء الغزو الاعلامي الغربي مشكل تقدم صناعي ، أو تكنولوجيا أو تجهيزات أو كفاءات بشرية . لأن هناك دولاً عديدة متقدمة صناعياً ولديها تجهيزات اعلامية متطورة وليست لدينا معها مشاكل مماثلة .

أما عن دور وسائل الاعلام في الغرب فالاجابة بسيطة . لا دور لها مطلقاً ومسبقاً ولكن في تفاعل مستمر مع المصلحة العامة من منظار حضاري متطور . وما الموقف الرسمي من وسائل الاعلام ؟ الاجابة بسيطة ، ذلك انها حرة ومسؤولة أمام نفسها فقط .

وما الموقف الشعبي منها ؟ لا موقف لأنه حر في التفاعل معها وفي الاختيار من بينها . وباختصار فان وسائل الاعلام حرة والتعامل معها حر . وهذا راجع في الغرب إلى مستوى معيّن من النضج السياسي والفكري والسلوك الحضاري يسمح بقيام

هذه العلاقة النوعية بين المواطن مسؤولاً كان أو عادياً وبين وسائل الاعلام في بلاده .

وليس معنى ذلك أن وسائل الاعلام التي لها دور محدد في بلاد أخرى ، وللجهاز الحكومي منها موقف محدد وللرأي العام المحلي منها كذلك موقف محدد هي وسائل اعلام محكوم عليها بالقياس الى وسائل الاعلام الغربية . كلاّ ، بل معناه أن الاستخدام غير المتكافىء للسلاح نفسه بين خصمين ليس له الأهمية نفسها . ولكن اذا كان كل خصم له سلاحه الخاص فلا عبرة في كيفية الاستعمال بينهما ، وانما العبرة بالنصر .

والاعلام العربي لا يستطيع أن يواجه الاعلام الغربي ويعاكس تيّاره أو حتى يحاول تحييده اذا كان يتعامل في بعض دوله مع وسائل الاعلام كما يتعامل خصمه مع وسائل اعلامه ، أو اذا كان يتعامل في بعض دوله الأخرى مع وسائل اعلامه كما تتعامل الدول الدكتاتورية مع وسائل اعلامها دون أن تكون هذه أو تلك تملك حكوماتها أو شعوبها في أغلب الأحوال مصير نفسها بنفسها ، ومصير اعلامها بنفسها .

إن الاعلام الغربي في اتجاهنا يرشح بطبيعته بالامبريالية والصهيونية ، ويتسلل الينا في الغالب من جانب ضعفنا ، أي من باب الحرية الذي نخشى أن نسده فنختنق داخلياً . وندخنه يومياً كالسيجارة اللذيذة ونحن نعلم أن التدخين مضر ، ومكتوب عليها أنه مضر .

فما العمل ؟ ان نظام الاعلام العالمي الجديد هو الحل ، ولكن الحل الفلسفي أو الطوباوي . ففي انتظار تطبيقه ، أي إقرار التبادل الحر للمعلومات والتدفق المتوازن للأخبار من مصادرها المختلفة ومراعاة الذاتيات الثقافية في المضمون الاعلامي ، فان هذا النظام قد بدأ بعد الشك في توظيفه لفائدة الدول الصناعية أي الغربية بدليل أن جهازه التنفيذي ، وهو الصندوق الدولي لتنمية الاعلام ، أقرّ مبدأ اتفاق الرأي على القرارات المتخذة داخل مجلسه واتفاق الرأي هذا هو نوع من الفيتو الجديد ـ كما وصفه بعضهم ـ أو هو يرادف الفيتو .

الحل الثوري في مجال الاعلام العربي ؟ حبذا ، ولكن لا بد أن يصادف قبل ذلك استعداداً ثورياً لدى الجماهير العربية . والاستعداد الثوري انما تحرّض عليه وتبلوره وسائل الاعلام العربية نفسها ، وهذه يتسلط عليها في الغالب الاعلام الغربي أو التحالف الوطني الامبريالي الصهيوني في أثواب تقدمية أو تقليدية مموّهة .

ولكن الاعلام الغربي بكل ثقله الاستعماري المباشر أيام الاحتلال أو الحماية أو الوصاية لم يفتّ في زند المقاومة ولم يكبت الثورة العربية الاسلامية الا ليفجرها في النهاية ناراً حامية أتت على كثير من الاستعمار المباشر وعملاء الاستعمار الراحل ، ولسنا ببعيدين في التفاؤل اذا قدّرنا ـ مع استنفادنا كجماهير عربية لكل مظاهر التناقض الاعلامي الحالي ولكل امتيازات الانظمة الاعلامية الدولية المستجدة ـ اننا نستطيع أن نتعامل مع وسائل الاعلام الغربية المباشرة أو المنتقلة عبر قنوات عربية أو دولية عامة بكل وعي وحرية ومسؤولية ومن منطلق المتفاعل مع عصره من خلال منظوره القومي وثقافته العالمية المتميزة وانسانيته الشاملة .

والى أن تمتلك جماهيرنا وسائل اعلامها بأيديها ، إما بتأميمها أو بالزحف عليها شعبياً ، فإن الاعلام الغربي لا نستطيع تحييده في صراعنا مع اسرائيل والامبريالية الا اذا واجهناه بتحدٍّ من جنس تحدّيه وفي عقر داره واذا عجزنا آنياً عن ذلك عن طريق شبكات الاقمار الصناعية فقد نستطيعه ، ولو بقدر بطيء ، عن طريق شبكات العلاقات البشرية الحميمة في جميع المستويات . فان للفرد الأوروبي قيمته وكلمته في نظامه السياسي . وسيكتشف كما اكتشف أيام الاستعمار أن أكثر الشعوب مقاومة للمعتدين هي الأجدر باحترامه وتقديره وخشيته .

الغزو الفكري الصهيوني في التراث المسيحي

د. مروان فارس

إن عملية الاختراق التي حاول الفكر الصهيوني العبور بها الى التراث المسيحي تعود أساساً إلى الالتباس التاريخي الذي أحدث بين مسألتين غير متلازمتين . فلقد تمّ الايهام عبر مراحل متأخرة من الزمن المسيحي بأن التوراة والانجيل كتابان متصلان يمثلان نهجاً متكاملاً في النظر إلى أمور الماوراء وكل المسائل التي هي على صلة وثيقة بمآل الانسان الفرد في صيرورته .

انطلاقاً من هذا المعطى يصح العنوان الذي يتقدم هذا البحث خاصة وان غزواً فعلياً قد حصل للتراث المسيحي من قبل الفكر الصهيوني في فترات متأخرة من التاريخ الوسيط . وان تجلى هذا الغزو في اعتبار المسيحية استكمالاً لليهودية في أذهان شرائح واسعة من البشرية لدرجة أصبح النقاش فيها ممنوعاً بهذه المسألة ، لا بد في البدء من التساؤ ل حول هذه المسلّمة . وللتساؤ ل هذا اسناد طويل وهام على مسافة طويلة من الزمن المسيحي . وان هذا الاسناد يتكىء أساساً على الفصل بين المسيحية واليهودية وكتابيهما من قبل المؤسستين .

وكي يفي البحث بعض غرضه لا بد من تبيان السمات العامة للفكر الصهيوني من ناحية وتلك التي تخص التراث المسيحي من جهة ثانية للتوصل إلى رسم شبكة اختراق الغزو واقتراح البدائل الممكنة للمواجهة في سياق النضال المتعاظم دولياً وعربياً ضد الصهيونية بجميع أشكالها وأدوات سيطرتها .

١) السمات العامة للفكر الصهيوني .

أ) ان الحركة الصهيونية هي حركة عصيان ضد المحور الطبيعي لحركة التاريخ . فهي معاندة ملحوظة للقوانين التي يخضع لها الوجود التاريخي في تظهراته المجتمعية المتعددة وفي نموه وتطوره . « فبينما تنوجد الدولة للتعبير عن مجتمع مما يفرض وجود المجتمع أولاً ومن ثم وجود دولته نلاحظ أن عكس ذلك قد تم فعلاً فيما يختص بالصهيونية وانجازاتها ، اذ أوجدت الدولة أولاً وهي ساعية الان إلى انجاز مشروع المجتمع الموحد الذي قد لا تستطيع على الاطلاق تحقيقه خاصة وان الأمر معاد للسياق التاريخي الصحيح ولقوانين الطبيعة والاجتماع »[١] .

إن هذه المواصفة الأولى تتأكد على امتداد قرون طويلة من الزمن تعود لجوهر الوصية التوراتية التي أتى بها معظم الأنبياء اليهود في دعواهم المستمرة لمنع جماعاتهم من الانخراط في المسار الطبيعي لحركة التاريخ والمجتمع . ويرى المؤرخ الفرنسي جاك ـ هنري بيريك ذلك على ما يلي :

« إن تاريخ الشعب اليهودي يسيطر عليه الصراع بين الملوك الذين حاولوا دمج فلسطين في سياق الحياة الدولية والأنبياء الذين ، خوفاً من عدوى الأفكار الدينية الغربية ، حاولوا اغلاقها بوجه كل تأثير خارجي ، بوجه كل حياة اقتصادية ، كل ذلك للحفاظ على الشعب اليهودي مجتمعاً كطائفة من الفلاحين متحلقين حول إله لهم منفرد هو يهوه »[٢] .

سمة التمييز والانفراد هذه هي التي انتصرت في مسار الصراع . ولغة الأنبياء التي انتصرت في حلبة الصراع مع الملوك لا تزال منتصرة في تحول الملوك إلى أنبياء مع رئيس الحكومة الصهيونية الحالي مناحيم بيغن الذي لا يعترف الا بلغة الأنبياء لغة له ولسياسته التي ترتسم توراتياً كل يوم .

ب) إن هذا الرجل يحسم كثيراً من الجدل حول الهامش بين اليهودية والصهيونية فتتجلى الصهيونية كقضية قومية لليهودية . ما يضفي على الصهيونية صفة اقتصادية سياسية اجتماعية متمحورة حول أرض فلسطين . فالقضية القومية معنية بأن تقوم على أرض والجماعة البشرية معنية بأن تتفاعل مع هذه الأرض .

ولما كانت اليهودية لا تقوم كدين دون قيام الأرض « أرض الميعاد » التي تدعو اليها . وكون الدين لا يتحقق إلاّ على هذه الأرض بالذات ، أرض فلسطين ، فانه هنا بالتحديد صهيوني أو بكلام آخر عدواني استيطاني » .

ديفيس تريتش ١٨٧٠ ـ ١٩٣٥ اليهودي الالماني والصهيوني المتحمس نادى بمشروع فلسطين الكبرى التي تضم برأيه فلسطين المعروفة وقبرص وسيناء وكان من أنشط الصهيونيين في بثّ المعلومات عن جغرافية « فلسطين الكبرى » التي نادى بها من خلال المجلات والنشرات التي قام باعدادها ونشرها . وقد تركز نشاطه منذ أن حضر المؤتمر الصهيوني الأول ، في محاولات شتى ، رمى منها إلى حمل الحركة الصهيونية على تبني مفهومه الخاص عن « فلسطين الكبرى » . ففي ٢٩ تشرين الأول ١٨٩٩ كتب الى هرتزل يقول : « اقترح عليك ان تنظرباهتمام إلى برنامج (فلسطين الكبرى) قبل فوات الأوان . وينبغي أن يتضمن برنامج بال عبارة (فلسطين الكبرى) ، أو (فلسطين والبلاد المجاورة لها) . فليس في وسعكم أن تحشروا عشرة ملايين يهودي في رقعة من الأرض ، لا تتجاوز مساحتها ٢٥ ألف كيلومتر مربع »[٣] .

« أرض الميعاد » هذه جزء أساسي من الدعوة الدينية . ولما كانت هذه الدعوة عدوانية فان حدود هذه الأرض غير دقيقة فهي تارة من الفرات إلى النيل وتارة حيث يتحقق أمن اسرائيل وطوراً ممتدة حسب استراتيجية شارون إلى الباكستان .

لكن الاثبت في هذا المجال والمرجح هو تلك الحدود التي يرسمها عام ١٩١٨ بن غوريون وبن زفي في نشرة « فلسطين » الصادرة عن « لجنة فلسطين البريطانية » ، انها تمتد من جبل لبنان شمالاً وبادية الشام شرقاً إلى شبه جزيرة سيناء جنوباً والبحر الأبيض المتوسط غرباً .

باختصار ان فلسطين كما وردت في التوراة لا تزال أرض الميعاد للشعب اليهودي . وفي الاحتلال « تتحقق رؤيا أنبياء اسرائيل » ، كما ورد على لسان بن غوريون في خطابه بالضباط المتخرجين في ٧ حزيران ١٩٤٩ . وهكذا تصحّ عبارة ماكس نوردو الساعد الأيمن لهرتزل : « اليهودية ، اما أن تكون صهيونية أو لا تكون » .

ج) إن الصهيونية ظاهرة استعمارية لجهة نشوئها في سياق التكوّن الاستعماري وهي مستعمرة لجهة علاقتها بالتكون الديني . وأبرز شاهد على هذه الحقيقة [illegible] التوراة وخاصة تلك التي لأشعياء ، يقول الرب مخاطباً شعبه المختار :

« ترضعون وعلى الأيدي تحملون ، وعلى الركبتين تدللون ـ سفر أشعياء ٦٦/٢٢ » . أو « ويقف الأجانب ويرعون غنمكم . ويكون بنو الغريب حرّاثيكم وكرّاميكم . أما أنتم فتدعون كهنة الرب . تأكلون ثروة الأمم ، وعلى مجدهم تتآمرون . أشعياء ٥/٦١ » . وقال الرب لاسرائيل « بالوجوه إلى الأرض يسجدون لك ، ويلحسون غبار رجليك ـ سفر أشعياء ٤٩ / ٢٢ » .

هذه الأقوال الواردة في التوراة تشير إلى الطبيعة الخاصة بما يسمى « شعب الله المختار » الذي له بحكم هذا الامتياز الذي تقرره الخرافة حق استعباد الشعوب والسيطرة على خيراتها وثرواتها . ففي الاساس الديني اذن منطلق استعماري مبرر أخلاقياً خاصة وأن اليهودية تعتبر نفسها بهذا النموذج من القرارات الدينية صاحبة « وصايا أخلاقية عظيمة » على حد قول بن غوريون .

من هنا يمكن استنتاج بعض الملاحظات الخاصة بالطبيعة العدوانية للصهيونية وما تحمله من زخم هائل يعود لارتكازها الى اللاوعي التاريخي المتكون والمتراكم دينياً . كما يعود إلى مفاهيم اكتسبت بحكم الانغلاق عليها واعتبارها « تؤدي رسالة رائدة » (بن غوريون) ، نمطاً من الثبات الذهني عليه أن يتحقق في واقع التطور التاريخي .

وعلى هذا الاساس فان ترافق الظاهرة الصهيونية مع الظاهرة الاستعمارية الحديثة لا يبدو مستغرباً ، فلقد حضنت بريطانيا العظمى والولايات المتحدة أعظم دولتين استعماريتين مشروع الحركة الصهيونية وحملتاه رويداً رويداً إلى التحقق . واذا كان للاستعمار القديم مصلحة بنشوء الدولة الصهيونية لتأمين جسر له في عبوره إلى مستعمراته في الهند فان الامبريالية لها نفس المصلحة بوجود هذه الدولة على شريان النفط العربي الذي يشكل في هذه المرحلة من الزمن مصدراً للطاقة أساسياً لبقاء الهيمنة الامبريالية واستمرارها .

ولكنه انسجاماً مع المعطى التوراتي فان المشروع الصهيوني لا يعمل فقط لحساب الاستعمار انما يتحول بحكم بنيته إلى مشروع استعماري لحسابه الخاص لأنه على اليهود ، كما يقول أشعياء أن يأكلوا ثروة الأمم « وعلى مجدهم يتآمرون » .

إن الداعين لبناء الدولة الصهيونية هم الصهاينة أنفسهم وان كان الاستعمار البريطاني يفكر بالأمر ويسعى إليه منذ مطلع القرن السابع عشر . إن عدم انصهارهم في المجتمعات التي تواجدوا فيها بناء على دعوة أنبيائهم قادهم إلى حل المشكلة اليهودية بحل مشكلتهم الدينية . فكان الحافز الديني وراء

العدوان وكانت نزعة السيطرة والاستغلال وراء الاستيطان والتوسع . ما يؤكد على ارتباط المشروع الصهيوني بالاستعمار من جهة وبذاته من جهة أخرى ، وعلى سعيه للاستقلالية لاقامة دولته الكاملة على أرض ميعاده الكاملة فتنشأ دولة استعمارية كبرى في المنطقة .

إن اعتبار الصهيونية قضية اليهودية القومية ينهي جدل التحديدات الأحادية الجانب ويعبّر عن حقيقة الحركة الصهيونية وواقعها بجميع جوانبه المركّبة متيحاً بذلك وضع استراتيجية متكاملة للنضال ضدها . فالتاريخ اليهودي الذي تتكىء اليه كان وما يزال مقدمة لفعاليتها التاريخية بانتصاره خاصة في الغرب على حساب التراث المسيحي الذي له سمات متعارضة مع تلك التي سبق ذكرها .

٢) مع السمات الخاصة بالتراث المسيحي

إن اعتراف ملك أنطاكيا عام ١٤٢ قبل الميلاد بمملكة القدس أدى إلى انفتاح هذه المملكة للأفكار القادمة من الخارج وخاصة تلك المتصلة بالحياة الأبدية ، بالعقاب والثواب ، بالجنة والجحيم ، بثنائية الخير والشر وبفكرة القيامة وفكرة مجيء المسيح . وان هذه القناعات التي كانت سائدة في كل المناطق السورية كغيرها من القناعات التوحيدية حسب أغلب المؤرخين تشير إلى صلة المسيحية بجوهرها بالانجازات الحضارية التى أتى اليهود اليها متأخرين والتي هي نتاج التفاعلات الهامة الحاصلة في أطر منفتحة . ففي الاساس يتضح الارتباط المسيحي بالتراث السوري القديم الذي أخذت اليهودية منه متأخرة . وتتضح معالم المسيحية متمايزة شديدة التمايز عن اليهودية ومتناقضة معها شديد التناقض .

أ)لقد ولد المسيح في مكان متواضع من فلسطين وتعمّد على يدي يوحنا الذي كان يبشر باقتراب موعد مجيء مملكة السماء . منذ البداية اتسمت رسالة المسيح بطابعها السماوي دون الأرض . « ان مملكتي ليست من هذا العالم » . « أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » . في هذه الأقوال ايضاح للفصل التام بين الدين والدولة ، بين الأرض والسماء . وعظة الجبل التي حددت أطر المناقبية المسيحية تدعو دون أي التباس المساكين بالروح والرحماء والمساكين والجائعين والمتعطشين للعدل للفرح لأن لهؤلاء ملكوت السموات .

إن هذه الدعوة تتناقض في الجوهر مع الدين اليهودي الذي لا يكتمل إلا في « أرض الميعاد » ، واذ تنبري المسيحية رسالة سماوية ، تتبين معالم اليهودية بوضوح كرسالة أرضية . وتبتعد الأخلاق المسيحية بعداً كبيراً عن الأخلاق اليهودية المنغلقة لتتصل بالارث العالمي فلا تدّعي الهيمنة على المؤسسات البشرية التي ترعى شؤون الاجتماع البشري ويظهر بجلاء اعتبار المسيح للأخلاق وللدين كمسائل فردية خاصة واعتباره الفضيلة أمراً يعود للضمير وليس للجماعة . في محيطه التجاري يدعو الانسان لاعطاء ما هو روحي أولوية بالنسبة للضمير الفردي . ويبيّن البعد الإلّهي الخارج عن المواصفات والقواعد التي وضعت الألوهة في شبكاتها الدوغماتية .

هذه الرسالة السماوية بابتعادها عن الأرض تدعو الناس على الأرض الى المحبة والتسامح وحل المشاكل سلمياً كقاعدة أساسية للفصل في الاشتباكات الممكنة . وهنا يبرز الوجه المناقض لليهودية بدعواها لتملك الأرض بالقوة والسيطرة على خيرات الشعوب .

في السلم الأخلاقي وفي أساس الدعوة اذن افتراق من خلاله يفهم قول المسيح : « بنقض الناموس » وهو يقصد الناموس اليهودي ليحل محله ناموس جديد يهتدي به المؤمنون به .

ب) نتيجة ذلك لقي صوت المسيح دوياً هائلاً في العالم كله وامتدت دعوته على أيدي رسله الى أطراف الأرض . وذلك لأن شعوب الأرض لم تجد فيها رسالة للأرض وللصراع على تملكها بل رسالة للوصول إلى عالم الروح الذي يتم الوصول اليه بفعل الخير . وبينما انحصرت اليهودية كدين لشعب واحد هو « شعب الله المختار » يمتاز عن غيره بالعنصر ، اتسعت المسيحية لتطال العدد الغفير من شعوب الأرض لأنها أعلنت المساواة بين هذه الشعوب وبين أفرادها . اتسعت المسيحية لأنها أتت بحصيلة جهد أخلاقي يعود تاريخه الى ثلاثة آلاف من السنوات ابتدأ في مصر بأعمال الرحمة والتسامح . ولأن القانون اليهودي كان يفرض شريعة دوغماتية حكم على المسيح بالموت وبالرغم من نصائح التسامح التي أسداها الوثني الروماني بيلاطس لليهود نفذ حكم الاعدام به على الصليب وصلب . ما يظهر البون الشاسع في السلم الأخلاقي ليس فقط بين المسيحية واليهودية أما أيضاً بين هذه الأخيرة والوثنية المشبعة بالمدّ الحضاري السوري الاغريقي القديم والمتقدم .

إن قتل المسيح يحمل دلالات هامة ليس أقلها الاعتداء على كل أولئك الرجال ذوي النوايا الطيبة الذين دعاهم إلى الايمان والأمل والمحبة . ولذلك كان انتصاره بعد استشهاده ادانة صارخة من قبل البشرية جمعاء لليهود ولشريعتهم غير المتسامحة الآمرة بالقتل لداعية سلام ومحبة . بقتل المسيح ثم قتل فكرة الفداء الإلّهي ، ثم سقوط اليهودية بمواجهتها للرسالة الجديدة

تماماً كما سقطت في معركتها مع الحضارة اليونانية التي اعتبرتها مجحفة غير متسامحة . واذ تتابعت الحملة بعد المسيح على أتباعه ذهبوا في الأرض وحسم بولس الرسول مع اليهودية لجهة الختان والأوهام الغذائية ومع ما أثر بالمسيحية من طابع يهودي لتظهر كرسالة كونية فتأسست في انطاكية أول كنيسة مسيحية ومن ثم في قبرص وفي آسيا الصغرى وفي تسالونيا ، وكورنتوس وأفسس ، في عواصم الشرق المتفاعل مع الحضارة اليونانية والرومانية بينما بقيت اليهودية لليهود تنغلق بانغلاقهم حيثما حلّوا . بذلك تأخذ المسيحية سمة الانفتاح والتفاعل مع كل شعوب الأرض بينما تبقى اليهودية متسمة بالانغلاق والتعصب لشعب واحد متعال على غيره من الشعوب .

ج) إن القمع الذي جوبه به اليهود خلال انتفاضة أعوام ١٣٢ ـ ١٣٦ أدى إلى تفرقهم في الشتات وانغلاقهم في غيتوات متمايزة شديدة التمايز عن محيطها . بينما أدى اضطهاد المسيحيين من قبل الاباطرة الرومان إلى تحوّل هؤلاء الأباطرة إلى مسيحيين فيما بعد وانتصار المسيحية كديانة توحيد على وثنيتهم . هذه الديانة تحولت إلى مؤسسة ناهضة خاصة في الشرق حيث اضطلعت بمهام ديمقراطية بارزة بوجه الممارسة الامبراطورية القمعية . فلعبت بذلك الكنيسة المحلية المشرقية دوراً معبراً عن النمط السياسي السائد في البلاد بوجه النمط العسكري المفروض عليه . فبوجه نظرية سيطرة الدولة ومؤسستها انتصرت الكنيسة للفرد لجهة انتخابه ممثله الديني (المطران) ودور هذا في أداء العدالة بين المؤمنين . بذلك أخذت الكنيسة طابع الحياة السياسية السائدة في تقاليد التراث السوري وبقيت مستمرة فترة طويلة في الشرق على هذا النهج بينما اتسمت في الغرب بطابع النمط السياسي السائد ذي الوجه السلطوي فقامت حروب التحرر بوجهها ووجه أدواتها دون أن تعرف نماذج مشابهة لذلك في الشرق .

وعلى السواء في الجهتين برهنت الكنيسة عن كونها قوة عظمى في المجال الفكري اذ استوعبت الفلسفة القديمة وجددتها بمنطلقاتها الأساسية مشكّلة بذلك تراثاً غنيّاً فيه من انجازات الشرق ما فيه، وفيه من معطيات الغرب ما فيه . مما أفسح في المجال أمام الاجتهاد الكبير والاغناء والتكثيف . لكنه نتيجة لهذا الانفتاح واتساعه لاحتواء التجارب البشرية المتعددة حاولت اليهودية كما فعلت مع الاغريقية والصهيونية بالتالي العبور إلى هذا التراث الرحب فاخترقته خاصة في الغرب حيث استطاعت تسجيل نجاحات ملحوظة .

٣) سمات الاختراق الصهيوني

إن حصر الاختراقات الصهيونية للتراث المسيحي أمر يحتاج وقتاً طويلاً وعناية خاصة . لكنه من الممكن التوقف أمام بعض السمات الأساسية للفكر اليهودي ـ الصهيوني في محاولته العبور إلى المسيحية بتراثها المتعدد الجوانب والكثير الخصوبة .

أ) لقد التبست العلاقة بين اليهودية والمسيحية منذ البدء لدى بعض تلامذة المسيح بشكل خاص لدى بطرس الرسول الذي كان داعية للاحتفاظ ببعض التقاليد اليهودية كالختان وببعض المحرمات الغذائية وما إلى ذلك من أشكال ومظاهر خارجية لا علاقة لها بالجوهر الروحاني للمسيحية . ومنذ البداية وضع بولس الرسول حدّاً لهذا الالتباس وحسم الخلاف بين بطرس وبولس لصالح الأخير للبون الشاسع في الثقافة بين الرجلين . ومنذ عام ١٨٠ وتأسيس مدرسة الاسكندرية وظهور المسيحية كتتويج للفلسفة القديمة ، حصل الانفصال التام عن اليهودية وتم الانتشار المسيحي على القواعد التي أعطاها لنفسه أو اكتسبها بتفاعله مع الشعوب وحضاراتها المختلفة .

ب) ان الفصل بين المسيحية والامبراطوريات يعني فصل الدين عن الدولة الذي لعب فيه الاغريقي اغسطينوس دوراً بارزاً حال دون انهيار المسيحية مع انهيار الامبراطورية . بذلك حصل عكس ما وقعت به اليهودية التي كانت تنهار بانهيار دولتها . وفي فترات هذا الانهيار الطويلة حاولت أن تفعل بغيرها أيديولوجياً فتكررت مع المسيحية التجربة الاغريقية ففشلت في أمكنة ونجحت في أخرى .

ج) احدى هذه النجاحات الكبرى تتمثل في استطاعة اليهود وخاصة بعد تغلغلهم الكثيف في جهاز الكنيسة الرومانية ، فرض التوراة كعهد قديم واعتبار الانجيل بالتالي عهداً جديداً باحتواء الكتاب المقدس على العهدين معاً .

بهذا الاختراق استطاعت اليهودية أن تعيد ما انقطع من صلة مع المسيحية في القرنين الأول والثاني فالتصق التراث المسيحي بالتراث اليهودي التصاقاً دينياً وطقسياً لدرجة أصبح فيها تاريخ اليهود معروفاً لدى الشعوب المسيحية أكثر من تاريخ هذه الشعوب نفسها . وليس أدلّ على ذلك من تصريح لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا اذ قال :

« لقد تربيت في مدرسة تعلمت فيها عن تاريخ اليهود أكثر بكثير مما تعلمته من تاريخ بلادي ، وفي وسعي أن أخبركم بجميع ملوك اسرائيل ، ولكني أشك في مقدرتي على أن أسمّي لكم ستة من ملوك انكلترا . لقد تشبعنا كل التشبع بتاريخ الجنس العبري »(٤) .

عبر التوراة اذن استطاعت اليهودية كأساس قوي للصهيونية أن تدخل إلى عقل كل مسيحي في تربيته الدينية في العائلة والمدرسة . كما استطاعت عبر الطقوس الكنسية بأناشيدها وأسرارها ورهبتها أن تؤثر على اللاوعي الفردي لدرجة طالت فيها كل البنية الفردية .

هذه الأمور جميعها تفسر التأييد الهام الذي لقيته الصهيونية في الغرب في دعواها للعودة إلى فلسطين « أرض الميعاد » . ففلسطين هي بالنسبة للأغلبية الساحقة من المسيحيين الغربيين أرض الميعاد لا يشكون بالأمر لأنه يواكب تربيتهم العميقة عبر الأجيال والعصور المتلاحقة .

ولقد حاول الغرب كثيراً تبرير موقفه من الصهيونية على قاعدة الاضطهاد الذي نال اليهود من قبل النازية ، وذلك ليظهر هذا الموقف منطلقاً من حوافز انسانية لا غير . إن في المسألة تبسيطاً غير مقنع خاصة وان الغرب المسيحي بجناحيه الكاثوليكي والبروتستانتي ينطلق في مساندته للصهيونية من اعتباره اليهودية أساساً ومنطلقاً لجوهر ديانته .

في هذا المجال يتميز موقف مسيحيي الشرق لعدة أسباب أهمها ان كنيسة الشرق كانت أدرى باليهودية كونها كانت تعرف الأساس الأول لسلّم القيم الذي تبنّته من محيطها دون أن يكون لليهودية . وان هذه الكنيسة وان تأثرت قبل الانشقاق عن الغرب بالتوراة واستعادت الكثير من صوره واحداثه وملامحه في طقوسها بقيت حذرة للغاية من العهد القديم . وهذا الحذر يتمثل في اجتزاء بعضه ومنع التداول ببعضه الآخر في المعابد والأديرة وتغطية أقسام منه بالصفائح السوداء . وموقف الكنيسة الشرقية من الصهيونية موقفاً حازماً يعود بالاساس لموقفها الحذر من التاريخ اليهودي واعتباره تاريخاً مقدساً .

د) إن هذا التاريخ نفذ إلى التراث المسيحي عبر التوراة وعبر المدرسة خاصة وأن الصهيونية اعتمدت بشكل أساسي على حقل التربية والتعليم ان في تنشئة جماعتها وان في تنشئة الجماعات المسيحية الأخرى .

« كنت ـ يقول موشيه منوحن ـ من خريجي عام ١٩١٣ في معهد هرتزليا في يافا . هذا المعهد كان المهد الذي ترعرع فيه ما سمّي بالقومية اليهودية . . . إن ما أذهلني خلال تلك الفترة هو ما كان يتسرب إلى أذهاننا من خلال التعليم . اذ كان هناك بيت شعر معين يحشر في الدروس ويلقن لنا بمناسبة وغير مناسبة . . . كانوا يلقوننا « عمينو » أي أمتنا ، « أرتسينو » أي أرضنا ، « مولادتينو » أي وطننا ومسقط رأسنا . . . . وكانوا يتوخون من هذا الوعظ المتكرر تسميم أفكارنا لننقلب إلى يهود قوميين . حتى أصبح الجمنازيوم الذي تخرجت منه بؤرة للأفكار القومية السياسية المتطرفة المجنونة »[٥] .

عبر المدرسة الصهيونية التي تعلم فيها موشيه منوحن والمدرسة المسيحية التي درس فيها لويد جورج زرع المبدأ الصهيوني والفكر الصهيوني في عقول الناشئة اليهود والمسيحيين الغربيين على السواء . وان عدم التمايز في النشأة أدى إلى عدم التمايز في الموقف طالما بقيت الحقائق مندثرة في بطون التاريخ دون كشف علمي وموضوعي لها .

هـ) على هامش المدرسة دخل الفكر الصهيوني الى التراث المسيحي بواسطة عملية الاستقطاب الهائلة للكتاب والمفكرين المتشربين بالتراث الصهيوني فقاد هؤلاء حملات التحمس للكيان الصهيوني وللخطة الصهيونية عن الصهيونيين أنفسهم . مما أعطى لهذه الخطة مصداقية أكبر تجاه المتوجسين من اجراء تغيير في خريطة المنطقة . ولقد وصل الأمر إلى حدّ ألقى فيه أحد أبرز مفكري الاسبانية جورج لويس بورخيس محاضرة في الارجنتين قال فيها :

« ان اسرائيل تشكل جزءاً عميقاً منا جميعاً وأشد عمقاً من الانتساب برابطة الدم أو التحدر العنصري . . . لقد رافقتني اسرائيل دوماً منذ كانت جدتي الانكليزية تقرأ عليّ التوراة . أعني أنني كنت دوماً متشبعاً باسرائيل »[٦] .

و) هذا التشبع أتى أيضاً عن طريق الصحف والمجلات والاذاعات الصهيونية المباشرة أم المتصهينة أم المتأثرة بالحركة الصهيونية . واذ ركزت الصهيونية جهداً كبيراً في هذا المجال عرفت كيف تنشىء أجهزتها الدعائية الايديولوجية الخاصة كما عرفت بشكل أفضل تشغل المؤمنين با عواها التوراتية لخدمة دعواها الصهيونية . ويعبر عن ذلك الأب فورست بقوله : « أعتقد أنني في عدائي للعرب كنت صورة عن الغربيين قارئي الصحف والمجلات الذين يؤمنون بالكنيسة وتعاليمها عن حسن نية . فكان لديّ نزعاتي الموالية لاسرائيل والمناهضة للعرب . فاليهود كانوا برأيي شعب الله المختار والقدس مدينتهم المقدسة وفلسطين أرضهم . وبدا لي واضحاً أن اليهود بعد قرون من النفي والتشرد ، استطاعوا العودة إلى أرض آبائهم . . . لقد ورثت هذه الأفكار من تربيتي في البيت والكنيسة ومدرسة يوم الأحد »[٧] .

ز) لقد لعب المسيحيون المتصهينون دوراً كبيراً في الدعاية للصهيونية بأهدافها ومطامعها أفراداً ومؤسسات . والأمثلة على ذلك متعددة ليس أقلها « لجنة فلسطين البريطانية » وغيرها من المؤسسات والمؤتمرات المنعقدة في أوروبا الغربية وأميركا

اللاتينية والولايات المتحدة بشكل خاص . لقد قاتل الصهاينة بأسلحة الفكر الديني والسياسي والأدبي والاعلامي قتالاً دون حدود واستغلوا الكنائس والجمعيات والنوادي والطوائف في سبيل غرس مفاهيمهم وتعميقها بغية اقناع العالم بصحة دعواهم .

ح) أكثر من ذلك فلقد أنشأوا طوائف أو نشأت شيع كالانجيليين والسبتيين وشهود يهوه والمتجددين وشيع البروتستانتية والتي باعتمادها الأساسي على التوراة كادت أن تنسى الأنجيل . فتمّ بذلك الانحراف الخطير من المسيحية إلى اليهودية بعد انزلاق المسيحية الى كنف اليهودية . وان الحروب الدينية المهلكة التي حصلت داخل الكنيسة المسيحية دارت بجزء منها تحت شعار الدور الذي يجب أن تلعبه التوراة في الحياة الدينية المسيحية ، حتى تغلبت لدى بعض الفرق البروتستانتية على الانجيل . ما يعني تغلب العهد القديم على العهد الجديد والحاق الجديد بالقديم بدل السياق السابق بالحاق القديم بالجديد .

ط) ولم ينج بعض الفكر العربي من الوقوع في تلك الدعوات الصهيونية المستترة بستار اليهودية وموقف المسيحية المشرقية والمحمدية المتسامح معها ، فاستغلت هذه الوسيلة أيضاً للوصول إلى غاياتها بالكتب والمنشورات والاعلام وما إلى ذلك .

في المحصلة نستطيع الاستنتاج بأن غزواً حقيقياً حصل للتراث المسيحي من قبل الفكر اليهودي ـ الصهيوني عبر بوابة اعتماد التوراة في صلب الكتاب المسيحي المقدس . وهذا الغزو حقق نجاحات عديدة في أميركا اللاتينية التي شكلت « لجان نصرة فلسطين » برموزها وشخصياتها المسيحية الكبيرة . كما حقق نجاحات هائلة في الغرب الأوروبي الذي أنشأ دولة اسرائيل بموجب وعد بلفور ومعاهدة سايكس بيكو والانتداب البريطاني على فلسطين . واننا نراه بقوة في الدعم الذي لا حدود له من قبل الولايات المتحدة لدولة الصهيونية عبر « المؤتمر الدولي المسيحي لنصرة فلسطين » المنعقد عام ١٩٤٥ في واشنطن وعبر الطائرات الامريكية المخيفة التي تخوض حروباً صليبية جديدة ضد شعبنا في نهاية القرن العشرين . لقد غزا الصهاينة الفكر الغربي وسيطروا عليه ولا يزالون يمارسون سيطرتهم هذه بثبات ليس من السهل زعزعته .

٤) وسائل المواجهة

أمام هذا الواقع يتعيّن علينا خوض معركة مواجهة محتدمة مع هذه المعطيات الاساسية وفي ذات الملعب الذي تدفع الصهيونية بقوتها عليه . وان النجاح في هذا المجال ليس مستبعداً وان اقتضى كثيراً من الصبر نتيجة للغفلة التاريخية عن الأخذ بأسباب المواجهة . ذلك لأن الخطة النظامية الصهيونية الدقيقة لا بد وأن تواجه بخطة نظامية قومية أدقّ . وأسباب النجاح عديدة ومهيأة لاتّسام حضارتنا العربية بسمة الانفتاح التي هي سمة المسيحية ذاتها . فعلى قاعدة الاشتراك في التوجه الحضاري يمكن مقاومة التناقض مع الحضارة .

أ) في البداية لا بد من كشف الحقائق التي خضعت لعملية تزوير هائلة في التاريخ . والحقيقة الأولى في هذا المجال تتمثل في اعادة التاريخ اليهودي إلى حجمه التاريخي دون اعتباره كتاباً مقدساً أم بالأحرى جزءاً أساسياً من الرسالة المسيحية .

ب) إن الكنيسة الشرقية على وجه التخصيص معنية بخوض هذه المعركة الهامة التي بنتيجتها يعود للمسيحية البريق الذي هو لها . انها معنية بأن تلعب دور بولس الرسول بالنسبة لما ألحق بها من تاريخ لا علاقة لها به ، وباعتمادها هذا المسار تضع الغرب المسيحي أمام مسؤولياته التاريخية بالكشف عن حقيقة العملية القيصرية التي أجريت لحركة التاريخ .

ج) ان معاهد الابحاث والدراسات العربية الغفيرة والمتواجدة في مجمل الاقطار العربية مطالبة بأن تلقي الضوء بقوة على مسألة الغزو الصهيوني للتراث المسيحي وتقديم النتائج العلمية الدقيقة للغرب الذي ليس باستطاعته بحكم تربيته التاريخية أن يكون على ذات السوية في التجرد على هذا الصعيد .

د) يقتضي عقد مؤتمرات في كل بلدان الغرب للمتنورين من المسيحيين وللجان دعم نضال الشعب الفلسطيني لنقاش موضوع حق الشعب الفلسطيني بالعودة إلى وطنه . ما يقود إلى نقاش مسألة الحقوق التاريخية وفصلها عمّا يسمى بحقوق دينية ، وان ايجاد حركة من هذا النوع سيكون بمثابة كرة الثلج التي تكبر بحكم سقوطها خاصة وان العقل الغربي يتسم بسمة البحث عن الحقائق والتدقيق بالمعطيات على قاعدة تحكيم العقل بجميع المسلّمات . المهم في هذا الوقت هو توظيف الامكانات العربية الهائلة لاستثارة البحث في هذ المجال .

هـ) إن خوض معركة الاعلام والمدرسة ليس أمراً متعذراً على الحضارة العربية ولا على الامكانات المتوفرة راهناً . ما يقتضي تحولاً أساسياً في خطط الجامعة العربية في هذه المرحلة لجهة عملها لكسب الرأي العام المسيحي الغربي على قاعدة انفتاحه على الحضارات وعلى قاعدة انفتاح الحضارة العربية

عليه . لقد حصل تقصير كبير في هذا المجال ولكنه يمكن اختصار الوقت بفضل ما يتوفر من زخم حضاري وقوى مادية ومعنوية كبيرة في مختلف الأقطار العربية .

في النهاية لا بد من الاقرار بأن غزواً صهيونياً حقيقياً وقوياً في رسوخه قد عبر الى بنية التراث المسيحي . واذ تمثل هذا الغزو في التوصل لتبرئة اليهود من قتل المسيح فانه يتتابع في التسامح الغربي اللامحدود بقبول استلاب الحقوق والأرض والانسان في فلسطين ، ما يتناقض مع جوهر المناقبية المسيحية ودعواها القائمة على المحبة ، ما يضع البشرية في الربع الأخير من القرن العشرين أمام تساؤلات حادة حول حجم التشويه الصهيوني الذي طال سلّم قيمها الاساسي الذي يعود لألوف من السنوات ، ما يحفزنا نحن لخوض معركتنا مع الصهيونية ليس بأسمنا فقط انما باسم البشرية جمعاء .

---

(١) مقالات في المنهج ـ للكاتب ـ منشورات مجلة فكر ـ بيروت ١٩٨٠ .
(٢)
(٣) سقوط الامبراطورية الاسرائيلية ـ د . جورجي كنعان ـ دار الطليعة ١٩٨٠ .
(٤ ـ ٥) أمجاد اسرائيل ـ د . جورجي كنعان ـ دار الطليعة ـ بيروت ١٩٧٨ .
(٦ ـ ٧) المصدر السابق .

آثار الغزو الثقافي في الموسيقى العربية

سليم سحاب

قبل التطرق إلى ظواهر الغزو الثقافي للموسيقى وأسباب هذا الغزو وعلاجه أود أن أوضح الزاوية التي أنظر منها الى هذا الموضوع .

إن التراكم الانساني العام للنشاطات والخبرات الانسانية (والفنون جزء مهم منها) هو تراكم واحد للانسانية جمعاء وليس حكراً على شعب واحد ، فهو مجموعة اسهامات جميع الشعوب . فتراكم الخبرة انتقل من شعب إلى آخر منذ قدم الانسانية بشكل لا نستطيع فيه القول إن حضارة شعب ما هي من صنعه لوحده . ان التمازج بين حضارات الشعوب المختلفة هو من أهم صفات التطور الحضاري الانساني العام . فالحضارة اليونانية التي كانت جزءاً مهماً من أسس الحضارة الأوروبية كانت نتيجة تفاعل عباقرة الحضارة اليونانية مع الحضارات المحيطة ومنها الحضارة الهندية . كما ان الحضارة العربية كانت نتاج تفاعل العبقرية العربية مع الحضارات اليونانية والهندية والفارسية . كذلك الحضارة الأوروبية في عصر النهضة حيث امتزجت العبقرية الأوروبية بالحضارة العربية واليونانية .

هذه هي النقطة المبدئية التي انطلق منها في هذا البحث . إن الاستقلال الحضاري بمعنى الصفاء القومي المطلق لحضارة شعب ما غير موجود اصلاً وان وجد فهو يعني شيئاً واحداً . الانغلاق والتجمد . لذلك فان انغلاقنا التام على حضارتنا هو شيء مستحيل ومرفوض أساساً .

ماذا أعني بالغزو الثقافي اذن ؟ انني أعني بالضبط ذلك التفاعل غير الحر وغير المتكافىء المفروض بقوة نوايا الغزو وقوة امكانات الغزو ، وذلك بقصد واضح هو التأثير بشكل ما مقصود ومخطط يمارسه شعب في ظرف تملكه لكل وسائل التقدم ، على شعب آخر في ظرف افتقاره لمعظم وسائل هذا التقدم بقصد الالحاق الحضاري . وفي المجال الثقافي والموسيقي بالذات فانني أرى (كما في المجالات الأخرى على ما اعتقد) أن أخطر حلفاء الغزو الثقافي من الخارج هو التبعية الثقافية من الداخل التي تتضافر فيها عقد النقص أمام الأجنبي مع ظروف التخلف الداخلي حتى يصل الأمر إلى حد قد لا تعود معه القوة الخارجية بحاجة الى أي مجهود اضافي لفرض سيطرتها الثقافية (أو غير الثقافية) بل تكتفي في مرحلة ما بالتبعية الثقافية التي تكون دائرتها قد احكم اغلاقها تماماً .

انتقل الآن إلى ظواهر هذه الأزمة .

١ ـ أهم هذه الظواهر هي عقدة النقص الموجودة عند المستمع العربي والعاملين في الموسيقى على حد سواء . هذه العقدة ، الموجودة بنسب متفاوتة ، تقول بأن الموسيقى العربية متخلفة وان الموسيقى الأوروبية متقدمة . أول سبب لهذه الظاهرة هو عدم وجود تراثنا الموسيقي في التداول اليومي كما هو الحال لدى كل الأمم الحية .

إن عدم وجود التراث الموسيقي العربي بين أيدي أطفالنا منذ صغرهم يجعل الاتجاه إلى الموسيقى الأوروبية أمراً واقعاً خصوصاً وان الانسان الطبيعي محب للموسيقى . النتيجة الحتمية لهذا السبب هو انقطاع تراكم التفاعل وعادة الاستماع بين الانسان العربي منذ صغره وبين تراثه الموسيقي . والتعود كما هو معروف نفسانياً هو من أهم عناصر التربية فالعادة تصبح مع الزمن طبيعة ثانية . هذا الانقطاع خلّف تراثاً غريباً بالنسبة للانسان العربي خصوصاً وان هذا الانقطاع عن الموسيقى العربية يقابله تعود الاستماع إلى الموسيقى الأوروبية وهذا ما يولد احتقاراً لدى المستمع العربي للموسيقى العربية التي لا يعرفها .

إن عقدة النقص أمام الموسيقى الأوروبية موجودة حتى عند

بعض محبي الموسيقى العربية ومقدريها وتتلخص بالانبهار أمام انتشار الموسيقى الأوروبية في بلادنا وعدم انتشار موسيقانا في أوروبا . وألّخص هذه الظاهرة بحوار جرى بيني وبين أحد زملائي وهو معلم موسيقى . فقد أبدى حنقه وتعقده بسبب عدم انتشار موسيقانا في الغرب . فقلت له : أنت تحب الموسيقى الأوروبية الكلاسيكية وتطرب لها وتفهمها ؟ قال : نعم . قلت : « هل تحب الموسيقى العربية وتفهمها وتطرب لها » ؟ قال « نعم » . قلت : لنفترض أن الأوروبي يحب الموسيقى الكلاسيكية (ونسبة الأوروبيين من محبي الموسيقى الكلاسيكية ليست كبيرة) فهل يستمع الأوروبي إلى الموسيقى العربية ويفهمها ؟ قال : « لا » . وهنا المشكلة . قلت : مشكلة من ؟ هل هي مشكلة الانسان العربي القادر على استيعاب وفهم موسيقى الشعوب الأخرى ، أم مشكلة الأوروبي الذي يفهم موسيقاه فقط ويعجز عن التفاعل مع الحضارات الأخرى ؟

إن عدم انتشار الموسيقى العربية في أوروبا سببه معروف وهو انقطاع أوروبا عن ربع الصوت منذ أن الغاه باخ من الموسيقى الأوروبية وهذه مشكلة أوروبا وليست مشكلتنا ومشكلة موسيقانا ومستواها .

٢ ـ هذه العقدة موجودة أيضاً لدى معظم دارسي الموسيقى العرب في أوروبا . ان مدة الدراسة الطويلة في أوروبا مع الخلل في العلاقة الموجودة عند هذا الدارس منذ صغره بينه وبين الموسيقى العربية يؤدي إلى نتيجة سيئة جداً وهي : أولاً انقطاع هذا الدارس عن تراثه القومي الموسيقي . ثانياً ، وهذا هو الأخطر ، ظهور عقلية تفكير جديدة لا ترى التحضّر والتقدم الا بالمنظار الأوروبي . واحدى نتائج هذه العقلية القول بأن لا موسيقى كلاسيكية في الموسيقى العربية لأن المفهوم الأوروبي للموسيقى الكلاسيكية هو الموسيقى المكتوبة للأوركسترا السمفونية أو الآلات الموسيقية الأوروبية المكتوبة في قوالب موسيقية أوروبية . نتائج اخرى لهذه العقلية القول بأن الموسيقى العربية متخلفة لعدم وجود السمفونية والهارمونيا والبوليفونيا والغناء الجماعي المتعدد الأصوات . لا لسبب الا لأن الموسيقى الأوروبية مبنية على هذه العناصر .

إن هذه الأقوال تغض النظر عن حقيقة علمية لا تقبل الجدل وهي ان هذه الأشكال ظهرت في أوروبا نتيجة عملية تراكم للنشاطات الموسيقية والأشكال الموسيقية على مدى مئات السنين وهي أيضاً نتيجة تطور المجتمع الأوروبي نفسه وليس لها علاقة بالتطور الذي حصل للموسيقى العربية والمجتمع العربي منذ حوالي الألف سنة أي عندما كانت شعوب أوروبا عبارة عن مجتمعات بدائية كل ما كانت تعرفه عن الحضارة هو ما أخذته من الأندلس العربية . هذا القول لا ينفي احتمالات تلاقي الموسيقى العربية مع هذه الاشكال الموسيقية المناسبة لطبيعتها وشخصيتها وقد تلفظ أشكالاً أخرى لا تتلاءم مع عملية التطور التي ستؤدي إلى اجهاض أي تطور مرتجى .

إن أمثلة كثيرة نراها من هذا القبيل في الحضارة الموسيقية الأوروبية نفسها . إن الطابع الغنائي الوجداني المسيطر على طبيعة الموسيقى الايطالية الشعبية أدى إلى نتيجة طبيعية وهي ظهور الأوبرا في ايطاليا (١٦٠٠) وهي الفن الغنائي المتكامل ، بينما نرى أن طابع التفكير التأملي الفلسفي في طبيعة الثقافة الالمانية أدى إلى ظهور الموسيقى السمفونية فيها وهي تعتبر قمة التجريد في الموسيقى .

مثال آخر مهم في الموسيقى الأوروبية نراه عند غلينكا مؤسس المدرسة الموسيقية الروسية القومية الحديثة . بعد رجوعه من دراسته الموسيقية في ايطاليا والمانيا انكب على تأليف سمفونية جمع لها مادة موسيقية من التراث الموسيقي الروسي الشعبي . « سمفونية تراس بولبا » .

وقد مزق غلينكا سمفونيته هذه عندما رأى أن كتابته لها (بالرغم من مادتها الموسيقية الشعبية الروسية) جاءت بقوالب المانية وطبيعة المانية في الوقت الذي كان الطابع الغنائي هو المسيطر في الموسيقى الروسية . ولم يعز غلينكا سبب تمزيقه للسمفونية إلى تخلف شعبه وموسيقاه . كل هذا نراه في موسيقات الشعوب الأوروبية بالرغم من وجود تقارب شديد بين حضاراتهم وبين طبيعة موسيقاتهم القومية المتخلفة . فما بالنا عندما نتكلم عن الموسيقى العربية ذات الطبيعة المتخلفة كثيراً عن طبيعة الموسيقى الأوروبية ؟ هناك عنصر مهم درسناه في مادة تاريخ الموسيقى في أوروبا نفسها وهو الطابع القومي لموسيقى كل شعب . فاذا كان الأوروبيون انفسهم يشددون على الطابع القومي هذا ، فما الذي يدعونا للخجل من الطابع القومي لموسيقانا كلما اردنا التفاعل مع حضارة موسيقية أخرى ؟

نتيجة أخرى للدراسة غير المحصنة في أوروبا أو في بلادنا ان هؤلاء الدارسين يحصرون مفهوم العلوم الموسيقية بعلوم الموسيقى الأوروبية وحدها . من هنا تأتي التصنيفات الغربية ومنها إطلاق صفة الجهل على موسيقيين عرب عبقارة مثل زكريا احمد ورياض السنباطي وغيرهما . لا لسبب الا لعدم الما م هؤلاء بالموسيقى الأوروبية وعلومها ضاربين عرض الحائط

بالمام هؤلاء العباقرة الكامل بالموسيقى العربية ونظرياتها المتشعبة وايقاعاتها التي تدهش الموسيقيين الأوروبيين انفسهم (٣٠٠ ايقاع) ونغماتها التي لا حد لها (حوالي المئة نغمة) والتشابك المعقد بين صياغة النغمات في العمل الموسيقي الواحد ، هذا إلى جانب العبقرية في صياغة المادة اللحنية نفسها . هل يحق لنا انطلاقاً من هذا المنطق الغريب أن نطلق صفة الجهل على موسيقيي أوروبا لعدم معرفتهم بالموسيقى العربية وبعناصرها التي ذكرنا ؟

٣ ـ الظاهرة الثالثة هي في موقف بعض الاذاعات العربية التي وصلت فيها نسبة اذاعة الموسيقى الغربية إلى درجة لم يعد يفهم هل هي اذاعة عربية أم اذاعة اجنبية موجهة للعالم العربي . الى جانب ذلك نرى أن نسبة اذاعة الأعمال الموسيقية العربية اللاكسيكية والجيدة أصبحت نسبة ضئيلة جداً اذا قارناها بالكمية الهائلة من الأعمال الموسيقية من مستوى الوسط وما دون التي تملأ الاذاعات العربية من الصباح إلى المساء والمبنية في معظمها على أساس عقد النقص أمام الموسيقى الغربية الخفيفة ، هذا إلى جانب ان الاعمال الجيدة التي تذاع ضائعة وسط البرنامج العام في بعض هذه الاذاعات كملعقة سكر في برميل ماء ، وذلك لعدم وجود برامج محددة في وقت معين تذاع فيه هذه الأعمال الجيدة . وبما ان من المتعذر على المستمع أن يجلس إلى جانب المذياع كل الوقت في انتظار بعض الاغنيات الجيدة تكون النتيجة العملية عدم جدوى وجود حتى هذه النسبة الضئيلة من الأعمال الجيدة في البرنامج العام . من هنا تأتي موجة الانغماس الكامل مع الموسيقى الأجنبية الخفيفة لدى الأجيال العربية الشابة التي لا تسمع من الاذاعات الا النتاج الموسيقي العربي السيء أو الموسيقى الأوروبية .

٤ ـ الظاهرة الرابعة هي الابتعاد التدريجي عند الملحنين الشباب عن تراث الموسيقى العربية وعناصرها . ان الانغماس غير الخلاّق في استعمال عناصر الموسيقى الأوروبية(لنأخذ مثلاً الايقاع الغربي) يؤدي إلى اختفاء الايقاع العربي وهو احدى الركائز الاساسية في موسيقانا كونه نابعاً مباشرة من ايقاع الكلمة العربية نفسها . واختفاء الايقاع العربي يؤدي إلى ما هو أخطر ، اختفاء اللفظ العربي الصحيح في الغناء وهذا ما نراه للأسف بنسبة مذهلة في السواد الأعظم من الأغنيات العربية الحديثة حيث تتحول كلمة « بلدية » مثلاً إلى كلمة « بالادية » وكلمة وطني إلى « واطاني » الأمثلة بالمئات ولا مجال لذكرها هنا . أما الاستعمال غير الخلاّق التبعي للهارمونيا الغربية فيؤدي إلى اختفاء النغمات العربية الأصيلة ذوات ربع الصوت كالهزام والراست والبياتي والصبا وغيرها لعدم انسجامها مع قوالب الهارمونيا الغربية . واستعمال الهارمونيا الغربية بهذا الشكل غير الخلاّق لا يرحم حتى النغمات المشتركة بين الموسيقى الغربية والأوروبية كالنهوند والعجم والحجاز كار والكورد والنكريز . ذلك ان الهارمونيا الأوروبية تفرض وجود لحن من نفس طبيعتها القومية لتتجانس معه وهذا طبيعي ومنطقي جداً . والنتيجة الحتمية لذلك هو ان اللحن العربي يتحول شيئاً فشيئاً إلى لحن أوروبي خالص ليتجانس مع مكتوبه على ايقاع غربي وموزعة بالطريقة الغربية .

والذي يزيد من شيوع هذه الظاهرة هو أن برنامج بعض الاذاعات العربية مليئة بهذه الأعمال الموسيقية الشاذة وهذا ما يساعد للأسف مع التراكم ، على تكوين ذوق عام لدى المستمعين يصبح معه من المستحيل تحديد المسؤول عن هذا السقوط : هل هو المستمع الذي يتقبل هذه الأعمال بسبب فرضها عليه بقوة التكرار ، أم هو الملحن الذي يتذرع بتقبل الجمهور لأعماله على طريقة الجمهور « عايز كده » . إن هذه الدوامة تخلق تمزقاً فظيعاً في حياتنا الموسيقية وتعيق التطور الصحيح والسليم للموسيقى العربية .

٥ ـ الظاهرة الخامسة المتأتية عن عقد النقص أمام الغرب هي دخول التطوير إلى الأوركسترا العربية بطريقة خاطئة ، وأقصد طغيان الأورغ الكهربائي والغيتار الكهربائي وبطارية الايقاع الغربي . وهذا نتيجة أو سبب الابتعاد عن عناصر الموسيقى العربية والتفاعل الخلاّق مع أوروبا . أقول نتيجة أو سبب ، ذلك أن المسألة وصلت إلى حد الحيرة في الأسف : البيضة أولاً أم الدجاجة ؟

إن عقدة النقص هذه دفعت احد الموسيقيين اللبنانيين المشهورين إلى القول من على شاشة التلفزيون اللبناني ما يلي :

كنا في السابق اذا استمعنا إلى موسيقى أو أغنية عربية ضمن موسيقى أوروبية في مقهى ما نشعر بالخجل . أما الآن وبفضل أغنيات الديسكو التي ألحّنها نشعر بالفخر لسبب عدم تخلف أغنياتنا عن احسن أغنيات الديسكو الأوروبية . واذا علمنا أن الديسكو هو احدى موجات الانحطاط الموسيقي الغربي نعلم فظاعة عقد النقص التي تدفع موسيقانا إلى أخذ فتات الموسيقى الغربية كمثال أعلى لتطور الموسيقى العربية .

إن انتشار الموسيقى العربية المنسوخة عن الموسيقى الأوروبية الساقطة بل أقول ان انتشار الموسيقى الأوروبية الساقطة للملحنين العرب يدفع الشاب العربي بشكل خطير إلى تعلم

العزف على الأورغ والغيتار الكهربائيين وآلات الايقاع الغربي والى الابتعاد النهائي عن الموسيقى العربية بكل عناصرها . هذه الظاهرة دفعت احد الموسيقيين اللبنانيين المشهورين أيضاً إلى القول حرفياً من على شاشة التلفزيون اللبناني أيضاً : « انني مطمئن الى مستقبل الموسيقى اللبنانية وذلك لاندفاع شبابنا إلى تعلم العزف على الأورغ والغيتار » . هذا مع العلم بأن الموسيقى الجادة في أوروبا لا تستعمل اطلاقاً هاتين الآلتين .

واذا أردنا تلخيص ظواهر التأثر بالغرب المبني على عقد النقص وعلى الاستعمار الثقافي نصل إلى هذه النتائج : اختفت بالتدريج المقامات العربية الأصيلة ذوات ربع الصوت واختفت الايقاعات العربية المعقدة والعريقة ، واختفى النطق العربي السليم في الغناء واختفى اللحن ذو الطابع العربي ، واختفت الزخرفة الداخلية في الغناء العربي المعروفة باسم العرب الغنائية واختفت الاشكال العربية الكلاسيكية الموسيقية منها الغنائية : الموشح والمنلوج والقصيدة والموال والبشرف والسماعي واللونغا والمعزوفة العربية الحديثة التي جاءت تطويراً طبيعياً لهذه الاشكال الموسيقية .

ماذا حل محل هذه الاشكال ؟ حل محلها الأغنية الخفيفة الهجينة التي كل عناصرها غربية ما عدا الكلام العربي الملفوظ بطريقة بعيدة كل البعد عن اللفظ العربي الصحيح . وبكلمة واحدة الغيت الموسيقى العربية وحل محلها موسيقى لا هي عربية ولا غربية .

الاسبــاب

١ ـ إن السبب الأول لهذه الحالة التي وصلت اليها الموسيقى العربية هو الاهمال في جمع التراث وتصنيفه . إن جمع التراث وتصنيفه في الموسيقى الأوروبية الجادة يشكل احدى أقوى دعائم التطور الموسيقي فيها . وبالتالي فان فقدانه عندنا يؤدي إلى ضعضعة خطيرة في مسار موسيقانا . لأن مثل هذا التجميع والتصنيف يضع بين أيدي العاملين في الموسيقى التراث بكامله ، وهذا ما يشكل الاساس الوحيد لأي تطور صحيح نرتجيه . إن بعض الكتب الموجودة بين أيدي العاملين في الموسيقى لا يكفي اطلاقاً لأنها أولاً مبعثرة في عدد قليل من البلاد العربية أذكر منها مصر ، تونس ، والعراق والقليل في لبنان وسوريا .

إلى جانب ذلك فان بعض هذه الكتب والتدوينات لا تخلو من الخطأ في التدوين الموسيقي وهذا ما يزيد البلبلة . حتى نحن العاملين بالموسيقى العربية نجد صعوبة في الدراسة الجدية وهذا يقطع عملية التراكم الضرورية لأن كل واحد منا يبدأ من الصفر بتجميع المراجع التي يحتاج اليها وذلك بشرائها في بلد منشئها وهذا يعني السفر إلى العراق وسوريا وتونس ومصر ، لعدم توفرها في غير بلد المنشأ . أضف إلى ذلك أن الكثير من هذه الطبعات ينفد بسرعة ويصبح نادر الوجود حتى في بلد المنشأ . ومثلما يفتقر الموسيقي العربي المحترف إلى المراجع الطبيعية لتراثه فان المستمع العربي أكثر افتقاراً إلى حيازة الاسطوانات والاشرطة بالسهولة التي تمكن أي مستمع أوروبي من الحصول على تسجيلات مختلفة لأي عمل موسيقي أوروبي كلاسيكي كما يحصل على رغيف الخبز . فحتى الآن لا أعرف كموسيقي وكقائد فرقة غنائية تقدم التراث الموسيقي العربي أو حتى كمستمع للموسيقى العربية ، لا أعرف الا مجموعة الاسطوانات لفرقة الموسيقى العربية بقيادة الفنان عبد الحليم نويره (حوالي عشر اسطوانات) فالى جانب أن هذا العدد يعتبر صفراً أمام تراث يمتد على نحو مئتي عام ، فان هذه الاسطوانات مختفية منذ زمن بعيد من الأسواق العربية .

٢ ـ السبب الثاني هو أساليب التدريس في الكثير من معاهد الموسيقى في البلاد العربية . فالمستوى التقني لاستاذ الموسيقى العربية أقل بكثير من مستوى استاذ الموسيقى الأوروبية والسبب في ذلك هو في البرنامج التعليمي نفسه . فبينما نرى أن البرنامج الدراسي للموسيقى الغربية في معاهدنا يحتوي على خلاصة الحضارة الموسيقية الأوروبية من الناحية التقنية والموسيقية كموسيقى باخ وموزار وبتهوفن الخ . . . وفق تسلسل اكاديمي واضح وثابت ، نرى أن البرنامج التعليمي للموسيقى العربية لا يحتوي الا على معزوفات قديمة وان كانت جيدة من الناحية الموسيقية إلا انها لا تفي بالغرض من الناحية التقنية .

ففي حين أن البرامج التعليمية في كل البلاد الأوروبية وصلت إلى تصنيف نهائي يؤمن لطلاب الموسيقى أعلى المستويات من الناحية التقنية والموسيقية نرى أن هذا التصنيف النهائي مفقود في المعاهد العربية ، وذلك لأن كل بلد عربي يصنف المواد الدراسية في معاهده بمعزل عن الدول العربية الأخرى . وفي حين أن الموسيقى العربية الحديثة عرفت مئات القطع الموسيقية والغنائية التي تخولها من الناحية الموسيقية والتقنية أن تلعب دوراً مهماً في تطوير العزف والغناء عند طلاب الموسيقى العربية نرى أن هذه القطع ليست مدرجة حتى الآن في البرامج التعليمية بل أنه يحظر على الطلاب عزفها في بعض البلاد العربية لاعتبارها موسيقى اجنبية . السبب الأكبر في هذا ، هو التقسيم المصطنع في برامج الدراسة الموسيقية . ففيما

عدا تونس ، على ما أعتقد ، تقسم المعاهد الموسيقية في البلاد العربية الى قسمين : المعهد الشرقي حيث تعلم الموسيقى العربية وحدها بكل العورات التي ذكرنا ، والمعهد الغربي حيث تعلم الموسيقى الأوروبية بأعلى مستوياتها . إن هذا التقسيم المصطنع في المنهاج الدراسي يؤدي إلى انقسام خطير في الحياة الموسيقية . إذ يحرم طلاب المعهد الشرقي من التملك من تقنية العزف الغربية العالمية كما انه يحرمهم من الاطلاع الشامل على الحضارة الموسيقية الانسانية . أما بالنسبة الى المعهد الغربي فان عدم وجود الموسيقى العربية فيه يؤدي إلى انقطاع طلاب هذا المعهد الكامل عن الموسيقى العربية أي عن تراثها الموسيقي القومي ويؤدي بالتالي إلى تبعية كاملة للحضارة الأوروبية . وأذكر شخصياً عندما كنت في بداية دراستي في المعهد الموسيقي الغربي في بيروت أذكر دهشة زملائي في المعهد عندما كنت أعلن حبي لموسيقى عبد الوهاب وأدافع عن الموسيقى العربية وأذكر تساؤلهم : كيف تستطيع أن تحب موسيقى بتهوفن وتستمع في الوقت نفسه إلى الموسيقى العربية ؟

إن الانفصام في الشخصية الموسيقية واضح هنا ولا يحتاج إلى تفسير . والخطأ الفادح في البرنامج التعليمي واضح أيضاً في غياب الموسيقى العربية عن البرنامج الغربي . إن هذا وضع لا يمكن السكوت عنه ، اذ ليس هناك شعب في العالم يبدأ بالتعرف على تراث غيره قبل تراثه . فما بالك عندما تكون الموسيقى الأوروبية هي الموسيقى الوحيدة المدرسة ؟ أليس هذا انتحاراً حضارياً ؟ أوليس هذا تبعية كاملة لأوروبا ورضوخاً كاملاً للاستعمار الثقافي نختارهما نحن بأنفسنا وننفذهما بأيدينا ؟

٣ ـ السبب الثالث هو عدم وجود سياسة عامة لتكوين فرق موسيقية في البلاد العربية . فعدد الفرق الجدية الثابتة لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة . هل هذا يكفي ؟ فنحن نرى في كل بلد أوروبي (مهما صغرت مساحته ومساهمته في الحضارة الانسانية) فرقاً (وليس فرقة واحدة) في كل مدينة كبيرة ، ونرى بالمقابل ان سياسة تكوين فرق ثابتة شبه غائبة في البلاد العربية أكانت هذه الفرق لعزف الموسيقى العربية أم الكلاسيكية الأوروبية بل أنا أجرؤ على طرح المثال الذي يجب أن يوجد : أوركسترا سيمفونية تستطيع أن تعزف (على الأقل بقسمها الوتري) الموسيقى العربية ونغماتها ذوات ربع الصوت . وهذا ما نراه في تونس مثلاً . اني أرى في تجربة تونس هذه مثالاً باتجاه تطوير حقيقي للموسيقى العربية تأليفاً وعزفاً . ان عدم وجود فرق جدية ثابتة يعطي انطباعاً بالتخلف وهذا صحيح . فثقافة أي شعب هي المرآة التي ينعكس فيها مدى تقدمه ، حتى في البلاد التي نجد فيها فرقاً سمفونية ، كمصر مثلاً ، نرى للأسف ان اوركسترا القاهرةالسمفونية (أول اوركسترا سمفونية عربية) لا تعرف الاستقرار بل انها في صعود وهبوط . ففي حين نعرف أن هذه الفرقة كانت في أوج عطائها ومستواها الفني في الخمسينات والستينات نرى أن مستواها بدأ بالتقهقر في السبعينات حتى أصبحت على وشك الحل ، وهذا ما يمنع تراكم الخبرة في الأوركسترا . فاذا علمنا أن أوركسترا برلين السمفونية أسست منذ ٥٠٠ سنة وما زالت مستمرة دون انقطاع حتى اليوم نعرف لماذا تعتبر من أمهات السمفونية في العالم .

٤ ـ نأتي هنا إلى مسؤولية الاذاعات العربية في المساهمة في هذا التدهور الحاصل . فهذه الاذاعات ليس عندها عموماً أية سياسة لمحاربة التدهور الحاصل بالأغنية ، أو لوقفه على الأقل عند حد معين ، فالانتاج الهابط هو المسيطر على البرنامج العام الى جانب الموسيقى الأوروبية الخفيفة وبالتالي وبالتدريج ومع التكرار والتراكم . وعندما لا يسمع المستمع العربي إلّا النتاج الساقط ، وأخص بالذكر الشباب الذين لم يعايشوا الفترات الخصبة للانتاج الموسيقي العربي ، يبدأ هذا المستمع بالاعتقاد بأن الموسيقى العربية ككل ساقطة ويعمق هذا الاعتقاد مساهمة الاذاعات في بث الاغنيات الغربية الخفيفة واختفاء التراث الموسيقي الجيد من البرنامج .

هذا الوضع يشكل بيئة خصبة جداً لعقد النقص تجاه أوروبا . وهنا أذكر من تجربتي السمعية الخاصة منذ ٣٥ سنة إلى الآن ، أن النتاج الجيد كان هو المسيطر على برامج الاذاعات العربية وكنا ننتقد بشدة هذه الاذاعات عندما كانت تذيع أعمالاً موسيقية من المستوى الوسط . أما الأعمال ما دون مستوى الوسط فكانت وقفاً على أماكن اللهو وعلب الليل . ماذا نرى الآن ؟ المستوى الجيد اختفى تقريباً وأصبح المستوى الوسط هو أعلى مستوى وانتقل المستوى السيء من علب الليل إلى الاذاعات فأصبحت المغنية التي كانت لا تغني الا في علب الليل منذ عشرين سنة أصبحت تصر على حمل لقب مطربة ، وأصبحت مغنية أخرى لا تصل مساحة صوتها الى ديوان واحد ، أصبحت لا تصعد إلى المسرح اذا لم يذكر مع اسمها لقب كوكب الشرق أي لقب سيدة الغناء العربي أم كلثوم . هذه الوقائع حقيقية وأسماء هؤلاء المغنيات معروفة . وأصبح ملحن من الدرجة العاشرة يطلق على نفسه موسيقار واسمه معروف أيضاً وأصبحت مغنية ناشئة لا تتعدى مدة شهرتها

خمس سنوات أصبح اسمها يذكر مع لقب مطربة الجيل . وتستغل اذاعة مثل اذاعة مونت كارلو هذا في محاولة بناء وضع جديد خطير على أساس هذا الوضع الشاذ وتتعمق المصيبة عندما تقلد اذاعتنا العربية اذاعة مونت كارلو فتصبح الموسيقى الجدية العربية مادة شبه محرمة في اذاعاتنا . ويشترك في المسؤولية التلفزيون العربي الذي يؤمن الوصول السهل إلى الشهرة . يكفي أن يظهر أي مغنٍّ ، مهما كان مستواه ، مرة واحدة على شاشة التلفزيون حتى يتحول إلى سلطة فنية ومثل أعلى للجيل الذي يليه من مستمعين وموسيقيين على السواء ليزيد هذا الوضع شذوذاً وخطورة .

٥ ـ السبب الخامس هو عدم وجود نقاد موسيقيين ملمين بالدراسة الموسيقية الأكاديمية ويعقد هذه القضية هيمنة العلاقات العامة بينهم وبين الموسيقيين . هنا تأتي مسؤولية رؤساء تحرير الصحف والمجلات اليومية والاسبوعية الذين يسلمون مسؤولية النقد الفني الخطيرة لكتاب نادراً ما يكون لهم تخصص في هذا المجال ، بل نادراً ما نجد خبرة سماع عندهم . والذي يزيد المشكلة تعقيداً أن الناقد الفني في الكثير من الصحف يحمل أكثر من بطيخة في يد واحدة فهو الناقد الموسيقي وناقد الرسم وناقد النحت والناقد الأدبي والناقد السينمائي . ماذا تكون النتيجة ؟ نرى النتيجة في أي نقد في أية صحيفة لبنانية مثلاً : كلمات مبهمة ، عمومية ، انطباعات شخصية تصلح للرسم والنحت والموسيقى والسينما معاً ، ليس فيها أية كلمة تحليل علمية تعطي ولو أدنى فكرة عن العمل المنتقد . أما الطامة الكبرى في هذه القضية فهي أن هؤلاء النقاد ممتلئون بعقد النقص تجاه الحضارة الموسيقية الأوروبية وهم يجهلون في معظمهم حتى هذه الموسيقى .

العــلاج

أول مشكلة يجب حلها هي مشكلة تصنيف التراث وجمعه . فعلى وزارات الثقافة العربية بالتعاون مع المجمع الموسيقي العربي اقرار برنامج زمني محدد للقضاء على تبعثر الأعمال التراثية والنتاج العربي الجيد وجمعه بكامله ، ووضعه قيد الاستعمال على شكل كراسات مدونة بين أيدي الموسيقيين والعاملين في الموسيقى ، وعلى شكل اسطوانات وكاسيتات بين أيدي المستمعين العرب . فمن الغريب حتى الآن ونحن على أبواب القرن الحادي والعشرين أن نجد تراثنا من دون سائر الأمم الحية مبعثراً . والأغرب أن يستمر هذا الوضع الشاذ . فما من دولة متحضرة الا والقيّم من تراثها مدون بكامله . ففي أوروبا كتالوج لكامل أعمال عباقرة الموسيقى الأوروبيين وهذه الكتالوجات موجودة على شكل نوطة موسيقية وعلى شكل تسجيلات تجمع كامل تراث هؤلاء العباقرة . ومتوفرة في المعاهد الموسيقية العالية ، وفي محلات الموسيقى الكبيرة منها والصغيرة وهذا ما يحفظ التراث الموسيقي من الضياع ويشكل القاعدة الاساسية للتطور الصحيح الوحيد للموسيقى العربية .

٢ ـ وضع حد للانفصام في البرامج التعليمية الموسيقية عن طريق قيام وزارات الثقافة العربية مع المجمع الموسيقي العربي باقرار منهاج موحد للتدريس الموسيقي ، وأنا أكرّر لفت النظر إلى تجربة تونس الرائدة في هذا المضمار حيث الدراسة الأساسية هي التراث العربي . يلي ذلك الاطلاع على التراث الموسيقي الأوروبي إذ لا يجوز في بلد عربي أن تكون الموسيقى الغربية هي الوحيدة التي تدرّس . ففي تونس لا يمنح طالب الموسيقى منحة دراسية للخارج اذا لم يكن حاصلاً على دبلوم الموسيقى العربية ، وهذا حتى بالنسبة للذين ينوون دراسة الموسيقى الأوروبية . أقول : ان التجربة رائدة لأن الطالب يذهب إلى أوروبا محصناً ضد عقد النقص وضد احتمالات فقدان هويته وشخصيته الثقافية المميزة . ولا يحملن كلامي من باب التعصب والشوفينية ، هذه السياسة تتبعها بلاد العالم المتقدمة في تدريس تراثها قبل تراث الشعوب الأخرى . إن هذا الدمج بين البرنامجين يقضي مع الوقت على حالة الانفصام التي نعاني منها ويساعد على تطوير عزف طلاب الموسيقى العربية بالاستعانة بتقنية العزف الغربيه ، وذلك بتدريس القواعد الاساسية المشتركة بين الموسيقى العربية والأوروبية ومنها القراءة والكتابة الموسيقية وتقنية العزف على الآلات .

٣ ـ ننتقل الآن إلى دور الاذاعات في العلاج : الخطوة الأولى لوقف هذا النزف هو ضرورة اخضاع عملية اختيار الأغاني المذاعة للجان من كبار الموسيقيين وليس لموظفين روتينيين يخضعون لأية اعتبارات الا الاحساس بخطورة مسؤولية دور الاذاعات . والخطوة الثانية هي اخضاع النتاج الموسيقي الجديد الذي يسجل إلى اللجنة نفسها المؤلفة من كبار الموسيقيين . والخطوة الثالثة هي تصنيف الأغاني المذاعة حسب مستواها الفني ووفقاً لسياسة عامة لما يذاع أو لا يذاع . وهذا يحتاج لضمير مهني متزمت يأخذ بعين الاعتبار تأثير هذا التصنيف ، على المدى الطويل ، في مسار التطور العام للموسيقى العربية والحضارة العربية عموماً . ومن اللافت للنظر في هذا المجال أن معظم هذه الطلبات التي نعتبرها بالنسبة لبعض الاذاعات العربية في مجال الامنيات ، مطبقة في

اذاعة اسرائيل باللغة العربية . ومعروف طبعاً أن هدف اسرائيل هو الانتهاء بالقوة إلى المنطقة . وتعرف اسرائيل أن الانتهاء الثقافي هو جزء مهم من الانتهاء السياسي . لذلك نرى أن القسم الأكبر من البرنامج الموسيقي لاذاعة اسرائيل يتألف من الأعمال الموسيقية العربية التراثية العظيمة ، هذا إلى جانب فرقة موسيقية وغنائية ذات مستوى جيّد تابعة للاذاعة ومخصصة بتسجيل الأعمال التراثية العربية . فهل كتب علينا أخذ المثل من اذاعة العدو للمحافظة على تراثنا الحضاري ؟

إن اسرائيل لا تكتفي بقوة السلاح لفرض نفسها علينا بل تستعين أيضاً بقوة الثقافة .

٤ ـ نصل إلى مسؤولية الصحف . وأبدأ هذه النقطة بحادثة تذكرتها عندما زرت المجر في أوائل سنة ١٩٦٦ . فقد أصدرت وزارة الثقافة المجرية آنذاك قراراً يمنع بموجبه أي موسيقي من ممارسة العزف في المطاعم (أي لتسلية الزبائن) ما لم يحمل شهادة موسيقية ، وكانت المهلة لتطبيق القرار نهائياً مدة سنة . فهل نطمع بأن يكون على رأس صحفنا ومجلاتنا رؤساء تحرير حريصون على اسناد مهمة النقد الموسيقي على الأقل الى الذين لهم باع كبير في التذوق الموسيقي في حال تعذر اسناد المهمة لحاملي شهادات موسيقية ؟

هذه الاوضاع الشاذة تشكل خطراً كبيراً على تراث أمتنا وعلى الشخصية الثقافية والحضارية العربية الخاصة . واذا بقيت هذه الأوضاع على حالها بدون مبادرة لتغييرها فالمستقبل مظلم ومرعب وعندئذ يكون من الترف النظري التكلم عن التفاعل مع الغرب لأن الوضع يشكل في هذه الحالة تبعية كاملة لا يفيد فيها التفاعل كما لا يفيد الانغلاق . فالحل الوحيد الذي يفيد هو تحديد المشاكل والاقدام على العلاج . ومن المؤكد علمياً بما لا شك فيه أن الموسيقى العربية عظيمة ان في مادتها التراثية الفلكلورية أم في الانجازات الموسيقية المعاصرة التي انطلقت من هذا التراث . ففي الأعوام المئة الأخيرة عرفت الموسيقى العربية تطوراً خطيراً . كما ظهرت في مدى نصف قرن مجموعة كبيرة من الموسيقيين النابغين الذين يصل بعضهم إلى مستوى العبقرية بنسبة عالية قد تفتقر اليها معظم الأمم المتقدمة في هذا المجال في البرهة الزمنية نفسها عدداً وموهبة .

فاذا كان هناك في العلوم الموسيقية الأوروبية ما لا ينطبق على طبيعة الموسيقى العربية فهذا ليس مشكلة الموسيقى العربية التي لها مسارها الخاص المبني على منطق علمي دقيق جداً ، على عكس الشائع عنها ، التي تقوم بوظيفة التلوين الموسيقي في الموسيقى الأوروبية . إن لدينا ما يسمى بالسكك المقامية أي تداخل النغمات المختلفة في العمل الموسيقي الواحد وهذه السكك تشكل ظاهرة شديدة التعقيد وبحراً لا ينضب من الطاقة الجمالية والانفعالية وأكرّر بأن كلامي هذا لا يمنع بل لا يجوز أن يمنع احتمالات التفاعل الموسيقي بيننا وبين أوروبا . فالجزء الكبير من تراث القرن العشرين ، وأخص بالذكر سيد درويش ومحمد عبد الوهاب ومحمد القصبجي ، جاء تعبيراً مبدعاً عن امكانية التفاعل الخلّاق بين الموسيقى العربية والأوروبية .

وأقول ، وليس من باب التفاخر أو الشوفينية الضيقة : ان الموسيقى العربية لا تقل عن الموسيقى الكلاسيكية الأوروبية ان من حيث مادتها اللحنية أم غنى نغماتها اللامتناهية أم ايقاعاتها المعقدة أم من حيث تعقيداتها العلمية الرياضية ، أم من حيث المنطق الرياضي الدقيق الذي يحكم أشكالها الايقاعية والنغمية ، وأقول ذلك بكل مسؤولية علمية ، وبناء على سماع مقارن مطول ودراسة علمية مقارنة مطولة .

ولكن الايمان بعظمة الموسيقى العربية لا يكفي . فاذا لم نحسن صيانة هذا الكنز الثمين واذا لم نحسن تربية اجيالنا عليه ستكتمل حلقات المؤامرة وسنكون شركاء فيها وسيأتي وقت يضيع معه تراثنا ونندم ساعة لا ينفع الندم .

اذا كان من مصلحة الغرب زيادة عقد النقص لدينا وتعميقها سواء من خلال أساليب تعليمية أم أفكار معينة يزرعها أم نشاطات اعلامية ، فلست أرى أين المصلحة العربية في الاستمرار بالخضوع لهذا الأمر والسماح له بالتعمق والانتشار ، بدل وضع خطة لوقف هذا الوضع الشاذ سواء على صعيد المعاهد أم الوزارات الثقافية أم مجمع الموسيقى أم الاذاعات أم التلفزيون .

أيها السادة ، نحن ندق ناقوس خطر فتراثنا مهدد وشخصيتنا الثقافية والحضارية مهددة . ان اجيالاً كاملة من الشباب العربي تنقطع صلتها تدريجياً بالموسيقى العربية . وان بعض هذه الأجيال يؤدي بها هذا الانقطاع الى البحث عن المتعة الوجدانية والروحية خارج إطارات شخصيته الحضارية الطبيعية . لقد وصلنا في هذا المجال الى الخط الدفاعي الأخير .

سليم سحاب

تجربة الجزائر في مجال التعريب

عبد القادر حجار

عضو اللجنة المركزية للحزب والمقرّر العام
للمجلس الأعلى للغة العربية

إني سعيد جداً بوجودي ضمن الوفد الجزائري في هذا الملتقى العظيم الذي أعلى خصيصاً لدراسة الغزو الثقافي الامبريالي الصهيوني ومدى آثاره على الأمة العربية . ويزيد هذا الملتقى أهمية أنه عقد في هذا الظرف بالذات والأمة العربية تتعرض لهجمة أمبريالية صهيونية ظهرت في العديد من الممارسات السياسية والعسكرية والاقتصادية والثقافية ، ويزيده أهمية أيضاً انعقاده بتونس الشقيقة وتبنيها له حكومة وحزباً وشعباً مما يجعلنا واثقين بأن نتائج هذا الملتقى تساوق ما تصبو اليه جماهير أمتنا من المحيط إلى الخليج ، ويزيده أهمية كذلك هذه النخبة من المثقفين اللامعين الذين لهم قيادة الفكر والتوجيه على امتداد الساحة العربية ، ولعل لقاءهم هذا وبهذه النوعية وبهذه العزيمة والتعميم يجعلنا نجدد الثقة في قدرات أمتنا على المواجهة والتصدي لكل الغزوات التي تهدد الكينونة العربية في أي مجال من المجالات .

واسمحوا لي أيها الاخوة أن أقدم اليكم تجربة الجزائر في مواجهة الغزو الثقافي الاستعماري الذي انبسط على أرضنا حقبة من الزمن جاوزت القرن والثلث ، ومن وقت دخول فرنسا إلى أرضنا والشعب الجزائري يقاوم المحتل في ثورات مسلحة متتالية تقوى احياناً وتضعف أحياناً أخرى . وكانت آخرها الثورة المسلحة **٥٤ ـ ١٩٦٢** دفع فيها شعبنا عُشْر سكانه فداء على مذبح الحرية ، غير أن الصراع الثقافي بيننا وبين الاستعمار كان وظل شرساً وعنيداً ومتواصلاً ، وما زلنا حتى الآن نتصدى له بمختلف الأسلحة والوسائل، ونحن واعون لأساليبه المختلفة التي يستعملها لفرض هيمنته على الأفكار والعقول بعد نزوحه بقوة السلاح عن الأراضي والحقول .

ان الجزائر كما تعلمون هي البلد العربي الوحيد الذي ابتلي باستعمار استيطاني حاقد هدف منذ تواجده مقاومة شخصيتنا

وتقاليدنا وثقافتنا العربية الاسلامية ، مستعملاً لذلك كل وسائل التشويه أو الاستئصال . وكم حوّل من مساجد شعار عقيدتنا الى كنائس لزهبانه وثكنات لمرتزقيه أو اسطبلات لخيوله ، ورغم فصل الدين عن الدولة في كل قوانينه فانه جعل الدين الاسلامي تابعاً لادارته الاستعمارية ، وتدخل بقوانين جائرة لمنع اللغة العربية من التعليم والتعلم وجعل مهنتها لا تعطى الا برخص مشروطة منها :

١ ـ اقتصار التعليم على حفظ القرآن لا غير .

٢ ـ عدم التعرض لتفسير الآيات القرآنية التي تدعو إلى التحرر من الظلم والاستعباد .

٣ ـ استبعاد دراسة التاريخ العربي والاسلامي وجغرافية العالم العربي والاسلامي .

٤ ـ استبعاد دراسة الأدب العربي بجميع فنونه .

ولا شك أن افراغ التعليم العربي من محتواه الفكري والثقافي وقطع صلاته بغيره من الأقطار العربية والاسلامية هو محاولة هدم ومحق لتاريخنا وأصالتنا وخلخلة خطيرة لمقوماتنا وشخصيتنا . وقد جندت فرنسا لتحقيق هذه العملية بالاضافة إلى رجال القمع والارهاب مختصين وباحثين ومستشرقين ليستعملوا بكل قوة معاول الدمار والخراب وراحت تفرنس الادارة والتعليم والاعلام ، وعرف قانون العقوبات الجنائية مواد زجرية لأول مرة سُنّت لمعلمي لغة الضاد وأصبحت قوانين النفي والتشريد وتشريعات التغريم والتجريم وعقوبات الايقاف والسجن أشياء عادية وطبيعية في معاملة رجال التعليم العربي . ومع كل هذه الوسائل القهرية فان الكتاتيب القرآنية وزوايا الطرقية ومدارس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والتي رفعت شعارها : العربية لغتنا ـ الاسلام ديننا ـ الجزائر وطننا ، سارت السياسة التي انتهجتها الحركة الوطنية مع التعليم المستنير جنباً إلى جنب لشحذ الهمم وتربية الناشئة على القواعد الوطنية وتشريبها قيم النضال واعدادها الشعب الجزائري ليوم النهوض الذي خط في الأول ليكون بداية انعتاقنا وعنوان تحررنا . إنه يوم نوفمبر الأغرّ ، فكانت الثورة ، وكانت التضحيات الجسام ، فكان النصر .

الوضع اللغوي غداة الاستقلال

خرجت الجزائر من حرب ضروس مثقلة بتركة ثقيلة من الفقر والمرض والجهل . وكانت الأولويات في سلم الترتيب متزاحمة ومتداخلة تتراوح من توفير لقمة العيش للمواطن وايجاد حقن الدواء للمرضى والمعطوبين وايواء المنكوبين والمشردين وحماية أرامل الحرب وأبناء الشهداء والبحث عن مجالات لتوظيف العاملين والبطالين ، وكان ذلك صعباً وشاقاً للجزائر المستقلّة التي وجدت دواليب الادارة انقاضاً متهالكة وبقايا المصانع أشلاء متطايرة ومئات المدارس أكواماً محرقة عاشت فيها بالاضافة إلى جيش الاحتلال أيادي منظمات الارهاب الأوروبية وغلاة المعمرين بالتخريب والفساد .

واسمحوا لي اذا ذكرت لكم كل ذلك حتى تروا صعوبة الأشكال الذي عرفته الجزائر وحتى تميزوا بأن اعطاء الأولويّة للمشكل اللغوي ومواجهة وضعه المعقد كان في سلم الأولويات المتداخلة ، فكان أول موسم دراسي للجزائر المستقلة بلغ فيه عدد التلاميذ قرابة ٧٠٠,٠٠٠ تلميذ في التعليم العمومي يتقرر فيه ادخال اللغة العربية في كل المدارس العمومية بمعدل سبع ساعات أسبوعياً . وكانت الجزائر المستقلة مدركة لقضية التعريب باعتبارها قضية متصلة ومندمجة ومتفاعلة مع قضايانا الوطنية الأخرى بالسلب أو الايجاب وهي كمواجهة لمخلفات المحتل التي تركها في لساننا فرنسة وفي محيطنا تفرنساً وفي افكارنا جهلاً وفي بطوننا جوعاً وفي أجسادنا عاهات وفي نفوسنا عقداً وأمراضاً . ولا يكون الخلاص حقيقياً الا بتخلصنا من كل موروثات المستعمِر مجتمعة أو منفردة لتفك قيودها حتى ننطلق أحراراً نبني ونشيد .

وقد أدركت الجزائر منذ الوهلة الأولى أن ثقافتها الوطنية لا تكون الا ثورية وقومية وعلمية تستهدف المحافظة على أصالتها المتفتحة بكل مقوماتها من عقيدة وتاريخ وتراث حضاري ولغة ، وهذه الثقافة لا تكون وطنية إلا اذا كانت بلغة الوطن التي هي العنصر الاساسي في كيانها وحجر زاوية في بنائها ، لأنها لغة لا تقتصر وظائفها في التعبير عن بوارق الفكر وخوالج العواطف ، بل يشمل حدّها كل جوانب الحياة الوطنية في العلم أو التعليم في الصناعة أو الزراعة في الادارة أو المحيط ، واللغة العربية في منظور الجزائر رابط قوي ينظم أفراد الشعب ويربط بين أقطار الأمة العربية ويصل أمجاد العرب وحضاراتهم بحاضرهم وهي وعاء صبت فيه تجارب الفكر العربي والاسلامي خلال قرون من الزمن ، وهي المعبر الذي يتوق منه شعبنا تطلعاً لبناء أمة قوية تفرض هيمنتها وسلطانها في العالم المعاصر الذي يعتمد ويفرض سياسة الاحلاف والتكتلات .

لم تطرح قضية التعريب علينا طرح المبدأ والخيار ولكن طرحت علينا من حيث الطرق والمناهج ومن حيث الامكانيات البشرية والمادية ، وهي في وضعنا ليست قضية فنية تقنية تحصر في الطريقة والمنهاج ، بل هي أيضاً قضية سياسية وهدف استراتيجي بالنسبة إلى الثورة ، ومطلب جماهيري تتطلع إليه كل فئات الشعب .

وأكثر المجالات التي واجهنا فيها قضية التعريب بحدة هي مجالات التعليم والاعلام والادارة والاقتصاد . ولعل التعليم هو الميدان الحيوي لعملية التعريب ، وقبل الحديث عن الأشواط التي قطعناها في ميدان التعريب فلا بد من ذكر بعض الصعوبات التي واجهت المدرسة الجزائرية الفتية التي أسست على مبادىء أربعة هي كالآتي :

١ ـ ديمقراطية التعليم : هدفنا من ورائه إلى اعطاء فرص متكافئة لكل الأطفال مهما كانت مكانة الاسرة الاجتماعية لنقضي بذلك على

الانحياز الذي كانت تباشره فرنسا بفتح أبواب المدرسة لأبناء المعمرين والدائرين في فلكها من الجزائريين .

٢ - جزأرة الاطارات : إذ تبيّن لنا بأن التعاون الفني سواء مع الدول الصديقة والشقيقة أو مع الدول الغربية لا يمكن أن يحقق لنا كل أهدافنا . ومع اعترافنا بحسن الصنيع للذين أمدونا بالكفاءات والخبرات ، وغالباً ما كانت على حساب شعوبهم ومجتمعاتهم وخطط التنمية لديهم ، فان حاجياتنا تتزايد باستمرار من معلمين ومديرين ومرشدين تربويين ومفتشين وبيداغوجيين ومتخصصين في البرامج والطرق ومؤلفين للكتب المدرسية .

٣ - التعريب والمحتوى العلمي والتقني للتعليم : ان الجامعات الجزائرية باعتمادها مبدأ التركيز على العلوم والتقنيات أرادت من ذلك انفتاح الجامعة على المجتمع في كل تفاعلاته وتحولاته والتخلي تدريجياً عن التعليم النظري البحت وخاصة أن عدد الطلاب كان لا يزيد عن الألف غداة الاستقلال . وقد ارتفع هذا الرقم في افتتاح الموسم الجامعي الحالي إلى مائة ألف ويزيد ، وذلك ما يتطلب جيشاً من الاساتذة والمدرسين أكثر من ثلاثة أرباعه يكون متخصصاً في المواد التقنية والعلمية .

فمن هي الدولة العربية التي يتوافر لديها هذا العدد الكافي من الاطارات لسد حاجيات الجزائر بالاضافة إلى حاجياتها ؟

٤ - التعريب والمعلم : لنبدأ الحديث الآن عن المعلم ، فان احصاءات وزارة التربية تبين بأن عدد المعلمين بالعربية الذين وظفوا لمجابهة الموسم الدراسي الأول الذي أدخلت فيه حصص العربية بمعدل سبع ساعات في الاسبوع كان ٣٤٥٢ معلماً بالعربية هذا من حيث الكم . أما من حيث الكيف فان الغالبية منهم تلقت تعليمها بطرق عتيقة إما في الكتاتيب القرآنية أو زوايا الطرقية أو في مدارس الاصلاح والحركات الوطنية وقليل منهم من تخرج من الزيتونة أو القرويين والقليل القليل تخرج من الجامعات العربية ، وهذا التباين في منابع المعرفة لم يكن بالميسور التغلب على نتائجه وتحويل هذا العدد إلى اطارات كفؤ تستوعب مستحدثات العلوم التربوية والنفسية وتسيطر على تعقيدات المدرسة العصرية وخاصة العربية ليست وحدها في ميدان التدريس بل لها مزاحمة قوية تريد قهرها عن طريق المقارنة بين رجال هذه وتلك ، رجال تخرجوا من الكتاتيب القرآنية في مواجهة خريجي الجامعات الفرنسية والغربية والصف واحد والتلميذ هو هو ، وحكم التلاميذ على المعلمين هو أقسى حكم يوجه لرجال التعليم ، وآثار فرنسا لم تزل آنذاك قوية في حياتنا الثقافية والمدرسية ، وغريزة اقتداء المغلوبين بالغالبين سنة طبيعية والانعكاسات التي تحدثها هذه المقابلة معادلة دقيقة ، كم خشينا أن تحقق للمستعمر كسباً يُظهر العربية بمظهر العجز والتقصير ويظهر الفرنسية بمظهر القادرة على مواكبة العصر وحدها في ميدان العلم والتقنيات .

وتفادياً لذلك وتفطناً لهذه الأحابيل جندت الجزائر كل طاقاتها ورصدت أموالاً طائلة لذلك وكثفت جهداً كبيراً وعسيراً لتكوين المعربين تكويناً علمياً وعصرياً ، نفسياً وبيداغوجياً لتقضي على جوانب النقص ، سواء في الثقافة العامة أو في فنيّات المهنة ، وكان يمكن التغلب على القضية وفي وقت قصير لو بقي عدد المعلمين هو هو وحصص العربية هي هي ، وعدد التلاميذ لم يرتفع بالملايين .

فعدد المعلمين تجاوز ١٠٠,٠٠٠ في التعليم الابتدائي وحده في بداية الموسم الدراسي الحالي ، والعربية توسّعت لتشمل أغلب المواد في كل مستويات التعليم وخاصة تعريب المواد التي كان لها مساس بشعورنا كشعب له عراقة في الحضارة والتاريخ ولارتباطها أيضاً بالأرض والماضي والتفكير ، فليس مقبولاً أو معقولاً أن يتلقى تلامذة الاستقلال دروس الجغرافيا التي طالما طبلت أبواق فرنسا ودعاياتها ولأكثر من قرن وثلث بأن الجزائر جزء لا يتجزأ من فرنسا ، وليس مقبولاً أو معقولاً أن يتلقى تلامذة الاستقلال دروس التاريخ بلغة طالما عملت على تشويهه وتحريفه ، وطالما علم اساتذة فرنسا أطفالنا فيما مضى بأننا شعب بدائي ليس له تراث أو حضارة ، وكم صوروا ثوراتنا المتعاقبة في مقاومة الاستعمار بأنها تمرد وعصيان ، فليس من المعقول أن يبقى تاريخنا وهو حلقة الوصول الذهبية بيننا وبين أشقائنا فوق هذه الرقعة العربية متواصلاً تدرسه بلغة اجنبية وذلك ما دفعنا لتعريبه من أول درس في الابتدائي حتى أعلى شهادة في الجامعة .

وليس مقبولاً ولا معقولاً أن تبقى دروس الفلسفة تلقى على أطفالنا وهم في سن المراهقة ، والمراهقة حالة استعداد قصوى لتقبل كل ما هو شاذ وغريب ومخالف للمألوف وتساعد على التمرد والمروق بلغة فرنسية ومن طرف اساتذة فرنسيين أو متفرنسين ، وهم مدارس فكرية وأيديولوجية متباينة ومتناقضة ، فلم يكن أمامنا طريق آخر الا تعريب البلاد تعريباً شاملاً في كل مناحي حياتها .

التعريب والكتــاب المدرسي

أيها السادة ، لم تتوقف صعوبة التعريب عند المعلم وكفاءاته ونوعيته وعدده بل وجدنا أنفسنا منذ البداية أمام الطرف الثاني في قضية التعريب وهو الكتاب المدرسي . والكتاب المدرسي يشكو ضعفاً في مستواه الثقافي ومحتواه العلمي لدى جميع الشعوب العربية ، والدراسات التي قام المكتب الدائم للتعريب بالرباط بمقارنة مجموعة من الكتب المدرسية العربية بمجموعة أخرى من الكتب المدرسية الغربية تبين بأن المفاهيم التي يتعلمها الطفل العربي عن طريق الكتاب المدرسي لا تتجاوز ٤٠ ٪ مما يتعلمه نظيره بأوروبا ، والجزائر لم يكن لها غداة الاستقلال أي كتاب مدرسي بالعربية لسد حاجياتها حيث انها انهالت على السوق الجزائرية مجموعة من الكتب التجارية الرخيصة من لبنان فكانت من أسوأ العوامل تأثيراً على التعريب .

وعن طريق المقارنة يرى الطفل الجزائري ان كتابه المدرسي باللغة الفرنسية أنيق في طبعه ، جميل في صوره ، وأوضح في أسلوبه ، مفيد بتمارينه ويرى كتابه العربي فيجد فيه ركاكة الأسلوب ، وقبح المناظر ورداءة الطبع ، وعمدت الجزائر إلى القضاء على هذا الخطر الداهم بتأسيس معهد وطني لتأليف الكتب والمذكرات المدرسية ، وبجهد مضن وقاس استطاعت الجزائر أن تغطي كل حاجياتها في مجال الكتاب المدرسي ولمختلف المواد اللغوية والاجتماعية والعلمية .

واذا كنا وفرنا كمية الكتاب اللازمة وأصبح التلميذ الجزائري يجد كتابه المدرسي في أي مادة من مواد المنهاج ، واذا تغلبنا على مشكلة الكم ، فالأعمال الآن جارية على قدم وساق لادخال اصلاحات جذرية على مضمون هذا الكتاب وطريقته من حيث الكيف ليتماشى مع اصلاح التعليم الجديد الذي يعتبر ثورة جذرية في ميدان التعليم ، والذي نطلق عليه اصطلاحاً اسم المدرسة الأساسية لتسع سنوات ، ذات التعليم المتعدد التقنيات .

ولأهمية هذا الموضوع وتعقيداته وصعوبة الاحاطة به وانطلاقاً من التجارب الجزئية التي تمت في هذا القطاع أو ذاك ، شكل حزب جبهة التحرير لجنة وطنية للتعريب باشرافه المباشر وبمشاركة ممثلين عن مختلف الوزارات والشركات والمؤسسات الوطنية والمنظمات الجماهيرية ثم مد هيكلها إلى كل الولايات وكلف هذه اللجنة بدراسة مشكلة التعليم دراسةعلميةوتقييميةلابراز مواطن القوة والضعف واعداد الجو العام نفسيا وسياسياً عن طريق حملات شرح وتوعية والخروج في النهاية بخطة وطنية تعتمد الشمولية في الطرح والتزامن في الانطلاق والتدرج في التطبيق والتكامل بين القطاعات . وبعد سنين من الدراسة والتوعية توجت اللجنة أعمالها بعقد ندوة وطنية للتعريب بتاريخ ١٤ ماي ١٩٧٥ باشراف رئيس الدولة شخصياً وبمشاركة ١٢٠٠ مندوب عن كل القطاعات الادارية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية في البلاد .

وخرجت الندوة بخطة وطنية حددت فيها المراحل وحوصرت طرائق العمل وحددت مجالات التعريب في التعليم والتكوين والادارة والاقتصاد والاعلام والمحيط .

وبعد التغيير الذي عرفه الحزب من هياكله الدائمة بعد المؤتمر الرابع ، انتخاب قيادة سياسية جديدة تمثلت في اللجنة المركزية أدمجت مهمة التعريب في اطار لجنة التربية والثقافة والتكوين ، ثم قررت اللجنة المركزية في دورتها الثالثة انشاء مجلس أعلى للغة العربية برئاسة رئيس الجمهورية شخصياً وعضوية العديد من الوزراء ومسؤولي الحزب ، وأمناء المنظمات الجماهيرية اسندت له مهمة المتابعة والتنسيق والتقييم ومراقبة الانجاز .

وأما من حيث الطرح السياسي فان نصوص الثورة الجزائرية أكدت جميعها انتماء الشعب الجزائري للأمة العربية وأقرت بأن اللغة العربية هي اللغة الوطنية والرسمية للبلاد ، انطلاقاً من بيان أول نوفمبر ومروراً بمواثيق الصومال وطرابلس والجزائر والميثاق الوطني الأخير .

وأما في مجال الانجازات التي تمت في ميدان التعريب بالفعل ، فهي كثيرة ومتنوعة ، وأقول بكل تواضع جبارة ، إذا قيست بجسامة المشكل اللغوي الذي ورثناه غداة الاستقلال ومزاحمته بأولويات مستعجلة في المجالات الأخرى تتميز كلها بطابع الالحاح والفترة الزمنية القصيرة من عمر الاستقلال . وأحاول حصر الخطوط العريضة كالآتي :

التعليـــم :

عربت السنوات الست الابتدائية تعريباً كاملاً في مختلف المواد وبقيت الفرنسية ابتداء من السنة الرابعة تدرس كلغة اجنبية لا تتعدى قواعد النحو والصرف والمحادثة والاملاء من حصة اسبوعية بمعدل ست ساعات وكان بقاؤها ليس اختياراً سياسياً نهائياً بل لضرورة عملية وذلك من حالة نقص العدد الكافي من المعلمين باللغة العربية للمواد العلمية في المرحلتين الاعدادية والثانوية . في هذه الحالة يمكن الاستعانة بتدريس هذه المواد العلمية باللغة الفرنسية حتى لا يبقى جزء من التلاميذ متوقفاً عن مواصلة الدراسة .

كما عرب الثلث من كل الأقسام من المرحلة الاعدادية تعريباً كاملاً بجميع المواد ، وأما الثلثان الباقيان فتدرس لهما مواد التاريخ والجغرافية والتربية والآداب باللغة العربية بمعدل يتجاوز العشر ساعات ، ومعنى ذلك ان الفرنسية في هذين الثلثين مقصورة على المواد العلمية ، لا غير .

وأما المرحلة الثانوية فعربت الشعبة الأدبية تعريباً كاملاً وعرّب بجانبها ثلث الاقسام في الشعبتين الرياضية والعلمية ويتلقى الثلثان الباقيان دروس الجغرافية والتاريخ والفلسفة باللغة العربية لكل طلاب المرحلة وتبقى الفرنسية مقصورة أيضاً على المواد العلمية .

وأما التعليم العالي فلم نجد غداة الاستقلال إلا فرعاً هزيلاً يسمى قسم الآداب العربي تدرس أغلب مواده باللغة الفرنسية ومن وجهة نظر استشراقية فعمدت الجزائر الى فتح فروع باللغةالعربية بجانب فروع الفرنسية في مختلف مواد العلوم الاجتماعية وبقيت الفروع العربية تنمو شيئاً فشيئاً ويتكاثر طلابها وأخيراً قررت اللجنة المركزية في دورتها الثانية قراراً سياسياً تاريخياً في مغزاه وفحواه حيث أوقفت التدريس باللغة الفرنسية بصفة نهائية في فروع الفلسفة والتاريخ والحقوق والاقتصاد والتجارة والعلوم السياسية والعلوم الصحفية والجغرافية وعلوم النفس والاجتماع والتربية وقصر تدريسها على اللغة العربية وحدها والتطبيق الفعال لهذا القرار ابتداء من الموسم الجامعي ٨٠ و ٨١ .

كما شمل التعريب دور المعلمين التابعة لوزارة التربية حيث

أصبحت تكون مختلف التخصصات باللغة العربية وحدها ، واتسع هذا التعريب ليشمل مراكز التكوين المهني والاداري والمدرسة الوطنية للادارة .

وأما في مجال الاعلام فلم تكن لنا الا جريدة « المجاهد » لسان المقاومة المسلحة تصدر بالعربية ، وغداة الاستقلال تأسست جريدة « الشعب » اليومية وثلاث جرائد ناطقة باللغة الفرنسية ، ثم اتخذ قرار بتعريبها وتأسيس جريدة « الجمهورية » وجريدة « النصر » وبذلك أصبحت اليوميات العربية ثلاثاً والفرنسية واحدة ، كما انشئت مجلات « الأصالة » و « الثقافة » و « الجيش » و « آمال » و « ألوان » وكلها صادرة باللغة العربية وكذلك مجلات المنظمات الجماهيرية : « الوحدة » لسان الشبيبة الجزائرية و « الفلاح » لسان اتحاد الفلاحين و « الثورة » و « العمل » لسان اتحاد العمال و « أول نوفمبر » لسان المجاهدين وكلها صادرة باللغة العربية أيضاً .

وأما التلفزة فكانت برامجها وأفلامها وتحقيقاتها بالفرنسية ، واتخذت خطوات جبارة في مجال تعريبها ، فأصبحت كل النشرات الاساسية والتحقيقات والندوات واللقاءات الرسمية ونقل المباريات بما فيها العالمية لا تهتم الا باللغة العربية وحدها . ولم يعترضنا الا مشكل الأفلام والمسلسلات . فالانتاج الوطني والعربي على ضعفه لا يستطيع تغطية كل ساعات البث التلفيزيوني والذي يتجاوز يومياً أكثر من سبع ساعات وخاصة الأفلام المصرية بالذات التي هي أوسع انتاج عربي ، اعترضتها مشكلة اللهجة المصرية واحياناً محتواها الايديولوجي وخاصة في عهد الردة الساداتية وشعور الجزائريين حولها ونفورهم من انتاج الردةفي أي ثوب يقدم حتى ولو كان باسم التعريب ، وقمنا بتجربة دبلجة الأفلام الأجنبية المختارة فكان ثمن الدبلجه باهظاً حيث تضاعف في بعض الحالات خمس مرات عن الثمن الرسمي الذي اشتري به الفيلم الأجنبي ، واتصلنا بشركات اجنبية طالبين منها القيام بالدبلجة رأساً فاشترطت علينا ضمان السوق العربية لترويج انتاجها المدبلج ، وعندما اتصلنا بجهات عربية مسؤولة رفضت الاقتراح بحجة أن طلابها وتلامذتها ضعاف في اللغات الأجنبية والأفلام والمسلسلات بلغاتها الأصلية تساعد على تقويتهم في هذا المجال .

وقامت الجزائر بتعريب جهاز القضاء تعريباً كاملاً حيث لا يعقل أن يبقى هذا الجهاز الذي عرفه شعبنا خلال عهد الاحتلال جهاز ظلم وجور كم أصدر من احكام جائرة بلغة فرنسية وبقوانين فرنسية لحماية مصالح فرنسية ، وكم كان مؤلماً ان يقف الفلاح الجزائري بين قاضٍ ومحام يتحاوران حول حياته أو مماته بلغة لا يفهمها . فمن أبسط قواعد الكرامة أن يكون هذا الجهاز من أول الأجهزة التي شملها التعريب وشملها أيضاً تغيير محتوى القوانين .

وكان الاستعمار قد ترك لنا محيطاً عاماً مفرنساً ، فأسماء شوارعنا وأحيائنا ومدننا ومدارسنا كلها ناطقة بأسماء فرنسية غالباً ما تكون أسماء الجنرالات أو مسؤولين فرنسيين لهم مآثر سوداء في تاريخهم في معاملة شعبنا . لذا قررت اللجنة الوطنية للتعريب في ندوتها التعريب الشامل لمظاهر البيئة الجزائرية وابدال كل الأسماء الغربية والغريبة على مجتمعنا بأسماء ومدلولات مستمدة من الحضارة العربية الاسلامية وكانت عملية تعريب المحيط بمثابة المنبه الحقيقي الى خطورة مخلفات الاستعمار ومخططاته في مجالات الفكر والثقافة ، فكانت المواجهة عنيفة مع رموز الفرنسة في الجزائر وضجّت الصحافة الفرنسية ضجة كبيرة وصفت فيها المشرفين على العملية بأسوأ النعوت والأوصاف ، وارتبكت الحكومة الفرنسية كأن القيامة قامت من حولها وتدخلت أحياناً تحت غطاء النصح والارشاد . وأحياناً بالوعيد والتهديد . وفي ظرف قصير تغير وجه الجزائر من الحدود إلى الحدود ولبست حلتها العربية الزاهية المشرقة وتغير أكثر من ثلاثة ملايين اسم في شوارعنا واحيائنا ومدننا ، وكان يقصد زيادة على ذلك أن تكون شوارعنا ذاكرة خالدة لأجيالنا وهي تحمل أسماء شهدائنا واعلامنا وأبطالنا عبر التاريخ .

وأما مخططات التعريب من المجالات الباقية وخاصة في مجال الكليات العلمية والادارة والشركات الوطنية فان اللجنة المركزية قد اتخذت قرارات هامة في دورتها الثالثة وكلفت المجلس الأعلى باعداد الخطة المرحلية ضمن مخططات التنمية حتى يضمن لها التنظيم والتجهيز والتمويل اللازم وليس هناك مجال لذكر تفاصيلها . .

هكذا يتضح لكم من خلال هذا العرض الموجز خطورة المشكلة التي تعاني منها الجزائر وصعوبة مواجهتها لأنها ليست مشكلة لغوية فحسب ، بل هي مشكلة سياسية وثقافية وايديولوجية تتقاطع عندها ومن خلالها كل التيارات التي أفرزتها الحرب ووسعت من مجالاتها مفرزات التنمية الاقتصادية التي سلكتها الجزائر بعد الاستقلال . وان جنود معركة التعريب في الجزائر لا يجدون سنداً قوياً يستندون اليه عند الحاجة أو الجدال من طرف أمة عربية جعلها وضعها الممزق ونوعية نظمها وتفتت قواها وبعثرة طاقاتها حجة عليهم وليست لهم .

ولعل هذه المعركة التي أشرت اليها تجسم بصدق شراسة الهجمة الاستعمارية الغاشمة التي حاولت بكل ما تملك ضرب مقوماتها وخاصة في مجال اللسان والايمان ، فرغم خروج فرنسا جيوشاً ومستوطنين ورغم افتكاكنا السيادة الوطنية بقوة السلاح فان السلاح الثقافي واللغوي ما زال مستمراً وعنيفاً بيننا وبين الاستعمار حتى الآن . وبتفاؤل أقول إن المعركة تؤكد نصرنا فيها تباشير تلوح في الأفق وان جنودها أصبحوا آلافاً مؤلفة من حَمَلة الشهادات الجامعية العليا فوعيهم بجسامة المعركة أقوى بكثير مما كان متوفراً ومما كان عليه اخوانهم الذين سبقوهم لرفع راية الجهاد ، وان حزب جبهة التحرير الذي قاد الجزائر في حرب التحرير وانتصر ثم قادها في معركة التعمير فانتصر هو الذي يقودها بالعزيمة نفسها في معركة التفكير فايماننا به أكبر بأنه ينتصر .

عبد القادر حجار